دار المدينة المنورة

تقـدم لك

شراب الأرواح من فضل الفتاح

للإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الخرطوم

طبع بإذن من

شيخ الطريقة العزمية

السيد عز الدين ماضي أبو العزائم

المحامي بالنقض



دار المدينة المنورة

تقـــدم لك

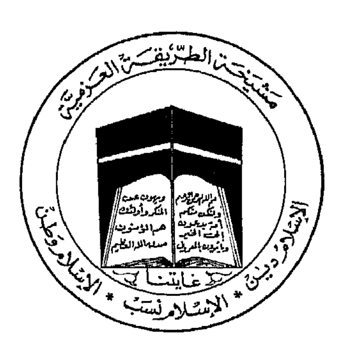
شراب الأرواح من فضل الفتاح

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الخرطوم

طبع بإذن من
شيخ الطريقة العزمية
السيد عز الدين ماضي أبو العزائم
المحامي بالنقض



الطبعة الأولى : ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١٢ م

الطبعة الثانية : ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

الطبعة الثالثة : ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م

فاتحة الكتاب

الحمد لله الصاحب فى الشدة ، الولى فى النعمة ، الغياث فى الرغبة ، الحافظ فى الغيبة ، الكافى فى الوحدة ، الأنيس فى الوحشة ، الساتر للعورة ، المقيل للعثرة .

وصلى الله على سيدنا محمد نور الحق المشرق لبيان سبل الله ، وشمس القدس التي طلعت فى الأفق العلى ، لتكون حجة لمن سبقت لهم الحسنى ، سدرة منتهى علوم الخلائق . وعلى آله الطيبين الأبرار الأخيار ، الذين أوجبت حقوقهم وفرضت طاعتهم وولايتهم . المتقدم عليهم مارق ، والمتاخر عنهم زاهق ، والمعادى لهم فاسق ، واللازم لهم لاحق ، وعلى صحابته الهادين المهدين .

ورضى الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم نور الوراثة المحمدية المتألق ، وضيائها المشرق ، اللهم اجعلنا من انصاره قائمين ، واكتبنا فى أعوانه ناعمين ، وبصحبته غانمين ، ومن الشر سالمين ياأرحم الراحمين .

ونضر الله وجه خليفته الأول الإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبى العزائم النفس الشريفة والسلالة الطاهرة ، والنسمة الزاكية ، رضى الله عنه وارضاه وثبتنا على محبته ، وانفعنا بزيارته ، واجمع بيننا وبينه فى مستقر دار رحمتك ياأكرم الأكرمين .

طبعات الكتاب وأبوابه :

تقدم مشيخة الطريقة العزمية هذه الطبعة الثالثة لكتاب « شراب الأرواح من فضل الفتاح » للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم الذى صدرت طبعته الأولى بتاريخ ١٣٢٩ هـ — ١٩١٢ م ثم أصدر مجمع البحوث الإسلامية الطبعة الثانية فى ربيع ١٣٩٨ هـ الموافق مارس ١٩٧٨ فى الكتاب الثالث من سلسلة البحوث الإسلامية السنة العاشرة . وقد جاءت هذه الطبعة تضم ٢٦٦ صفحة تعمد مجمع البحوث على حذف ٣٦ صفحة من طبعته الأصلية ، كما تعمد تغيير اسم الكتاب من « شراب الأرواح من فضل الفتاح » إلى شراب الأرواح فقط ، كما تعمد تغيير وتبديل ومسخ واضافة كل صفحات هذا السفر الجليل ، وبذلك خالف مجمع البحوث فى طبعته هذه الطبعة الأصلية لهذا الكتاب مع علمه أن الأمانة العلمية فى تبليغ العلم لا تستقيم مع التبديل والتغيير والحذف والاضافة . فجاء الكتاب بعد الطبع محرفا أبسط ما يقال عنه أنه تشويه لآثار الإمام المجدد العلمية ومنع لوصول مفاهيم معينة أرادها رضى الله عنه أن تصل إلى الناس .

ولذلك قامت دار المدينة المنورة وهى احدى الهيئات التابعة لمشيخة الطريقة العزمية بإعادة طبعة متوخية فى ذلك الأمانة العلمية والدقة فى النقل .

والباب الأول من هذا الكتاب يتضمن ١٣٢ حكمة من حكم الإمام المجدد رضى الله عنه وجوله

بالعين أو بالقلب ، فى هذه الحكم تضع يدك على السر الخفى ، فستجد لكل حكمة أجنحة وروحاً ، لأنها قطعه نابضة من قلب عابد ، وخفقه محلقة من شعور ساجد ، وشحنة ملهمة من روح واجد . انه كلم عليه من رضاء الله شعاع وسناء ، وفيه من نفحات القدس إشراق وبهاء ، إنه كلم يعيش تحت ظلال النبوة ويتعلق برسالتها ، ويولى وجهه نحو التنزيل والذكر الحكيم .

والباب الثانى : فى الشريعة الإسلامية مصادرها ورجالها ودعاتها وقد تناول الإمام المجدد رضى الله عنه الكتاب والسنة كمصدرين أساسيين للشريعة الإسلامية ، أما بالنسبة للرجال فقد قسمهم الإمام إلى السلف الصالح ، والمعاصرون ، أما بالنسبة للدعاة فقد بينهم الإمام المجدد أنهم ثلاثة أنواع المرشد الكامل ، والإمام الذى يهدى بأمر الله ، والداعون إلى الخير .

والباب الثالث : فى المشاهدات والمنح الربانية وما يجب على السالك من ترك النفاق العلمى والعملى ، وتزكية النفس والجهاد ، والرياضة العامة والخاصة ، وسلوك النهج الوسط والعمل لجمع القلوب على الله وتلقى العلوم النافعة واستقامة السيرة مع صفاء السريرة .

الباب الرابع : فى الاعتقادات وهم الرجال ومشاهداتهم والسير إلى الله تعالى . والاعتقادات بَيّنت أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أتو بأمرين عظيمين وهما طهارة الظاهر والباطن . أما هم الرجال فأوضحها رضى الله عنه فى الرشاد والإرشاد ، والإخلاص والصدق ، والحكمة ، والإقبال والقبول . أما مشاهداتهم فهى تتضمن التوحيد للواحد ، ومشاهدة التوحيد بالتوحيد ، والرؤيا والشهود الكونى والملكوتى . أما السير إلى الله تعالى ، فهو يتناول مذاكرة فى الصلح وصدق الحال ، والفرار إلى الله ، ورموز التكاليف وأسرار الرجال .

الباب الخامس : فى التجليات الوهبية وهى اربعة عشر تجلى ثم تناول رضى الله عنه حال التلوين ومقام التمكين والمواهب اللدنية ثم الخصوصيات .

صراعات فى العالم الإسلامى :

فقد تعددت معارف العالم الإسلامى ، حينما اتسعت حضارته ، ومن ثم تسرب إلى أفق الحياة الإسلامية مواريث هذه الحضارات وبعض عقائدها ، وألوان تفكيرها ، وتسرب إليها أيضا الجدل والحوار ، والتعصب الفكرى ، والسبح الفلسفى الذى يجرى وراء الأهواء والنزوات . ورأينا تبعا لذلك عجبا ، رأينا الخصومات الحادة العنيفة تقوم بين طوائف العلماء ، وتندلع بين صفوف المفكرين ، ورأينا هؤلاء العلماء والمفكرين تجمح بهم عصبيتهم لعلومهم إلى مخاصمة كل علم ، ومحاربة كل منهج غير علمهم ومنهجهم .

وشب الصراع بين الفقهاء ورجال علم الكلام ، وعلماء التفسير ، ورواة الحديث ثم انقسم هؤلاء وهؤلاء إلى طوائف وشعب ، وتعددت ساحات الصراع ، واستعملت فيها كافة الأسلحة ، وكان الضحية لهذه الحرب هو العالم الإسلامى ، والعلم الدينى والتفكير الإيمانى .

لقد إستحال الإسلام من عبادة إلى جدل ، ومن علم إلى حوار ،.ومن إيمان إلى سفسطة فى لهوات هؤلاء الرجال الذين لم يعد يعنيهم إلا الفوز فى حلبة الصراع والنضال .

وسيبقى هذا الجدل وهذا الحوار خالدا ما بقى الفكر وبقيت الحياة ، فالناس أعداء لما جهلوا ، فكل فريق من الناس يخاصم من الأراء الرأى الذى لم يعرفه والعلم الذى لم يتذوقه .

وتلك كلمة حق تكشف لنا الستار عن سر تلك الخصومات التاريخية التى اندلعت فى أفق العالم الإسلامى ، ومزقت وحدته ، وبلبلت مناهجه .

خصومات حول التصوف :

ومع أن الصوفية لم يشتركوا قط من جانبهم فى هذا الصراع ، ونزهوا أوقاتهم وصانوها من أن تفنى فى هذا الحوار الطائفى ، واقبلوا على ربهم عبادة وذكرا ، وأقبلوا على الإسلام بقلوبهم يأخذون بعزماته ، ويرفعون راياته ، ويدعون الناس إلى ساحاته ، وأقبلوا على حياتهم معتصمين بأخلاقهم مجاهدين مناضلين فى سبيل الإرتفاع بالإنسانية إلى مناطق النور والخير والسلام .

ومع أنهم قد وقفوا على الدعوة الوسطية التى هى بين فكر الغلاة وفكر البغاة ، ومع أنهم وقفوا على المحجة البيضاء فى غير تعصب ولا تشنج ولا إستعلاء فقد هاجمهم فى عنف وفى مرارة ، وفى عصبية موتورة ، أهل التفكير والتشريك والتبديع المتعشقون للذم والمراء ، الذين لا تحلو لهم الحياة إلا فى سعار من الحقد ، وفى عاصفة من البغضاء .

هاجمهم الامتداد التاريخى لفكر الخوارج فى القرن السادس ممثلا فى ابن تيمية وابن القيم ، وهاجمهم تلميذه التاريخى ابن عبد الوهاب فى القرن الثانى عشر ، وهاجمهم من مشى فى أعقابهم وتحت أذيالهم من طلاب الثراء المأمول من بلاد البترول .

هاجم هؤلاء وهؤلاء الصوفية فى حبهم لرسول الله ﷺ واجلالهم له ، وصلواتهم الدائمة عليه .

وهاجموهم فى حبهم لأولياء الله وتقديرهم لهم واحتفالهم بموالدهم .

وهاجموهم فى مناهجهم فى السلوك والتربية والتصفية والتحلية وما يتبعها من ذوق وشوق والهام ومقامات وأحوال .

وهاجموهم فى حرصهم على أورادهم وأذكارهم ، وزهدهم وآدابهم ، ومناهج معارفهم ، وجعل أهل التفكير والتشريك والتبديع عنوان ذلك الهجوم كله : حماية التوحيد .

وابن تيمية وابن عبد الوهاب وذيولهم ـــ أهل التكفير والتشريك والتبديع ـــ عرفوا بالشذوذ الفكرى والتعصب والغضوب ضد كل من يخالفهم فى الرأى والتفكير .

لقد نادى ابن تيمية بالمعنى الحرفى للقرآن فخاصم بذلك كل رأى فى تفسيره ولم يقبل حتى فى الآيات التى توهم بالتجسيم تأويلا ، أو صرفا لها إلى المعنويات ، وفسق كل المذاهب الإسلامية فى علم الكلام ، وحرم الاجتهاد على الناس جميعا وأباحه لنفسه ، فحدد صفات الله سبحانه حسب

رأيه . وحرم زيارة أضرحة الأولياء وقراءة القرآن لهم ، وتغالى فتنادى بأن من يزور روضة رسول الله ﷺ تقربا أو طلبا للشفاعة فهو ضال مبتدع !! ولم يسلم من لسانه ولا من قلمه طائفة من المسلمين . ومن ثم ظفر التصوف ورجاله من قلمه ومن لسانه بالقسط الأوفى من الإتهام والسباب .

تلك هى المطاعن التى وجهت إلى الصوفية ، وهى عند كل منصف نزيه آيات ترتفع بهم إلى أسمى وأعلى صور الكمال الإنسانى والايمان التوحيدى .

موضوع الكتاب :

وكتاب « شراب الأرواح من فضل الفتاح » هو دراسة عليا فى علم التصوف الذى هو من أجل العلوم قدرا ، وأرفعها ذكرا ، وأعظمها أثرا ، وأروعها تأثيرا ، وأعمقها نفعا .

يهتدى بكتاب « شراب الأرواح من فضل الفتاح » الكثير ممن يعيشون فى ظلال مملكة التصوف ، تتزكى نفوسهم بدروسه ، وتتطهر القلوب بارشاده ووحى توجيهاته ، فيشفون من أمراض نفوسهم ، ويسقون شرابا طهورا يزكيهم وينير قلوبهم ويحيى أرواحهم فهو العلاج لأمراض النفوس ، والدواء الشافى لعلل القلوب .

وبذلك يخطط هذا الكتاب للسائرين أروع الطرق للسير عليها ، ويرسم لهم معارج الأنس لطلوعهم إلى سماء الهدى والتمتع بمناجاة الحضرة ، ونعيم التجلى الربانى . وعظاته تهدى إلى مقامات العارفين ، وترشد إلى منازل المقربين ، وتدل على كعبة المحبين ، وتوجه إلى قبله العاشقين ، وتوصل إلى الالهامات الربانية ، والإمدادات القدسية ، والعطايا العلوية .

فهو الهادى إلى تلك الفضائل ، والدال على هذا الثمر الشهى العظيم ، لنتحلى بأخلاق الأنبياء والمرسلين ، وعباد الله المخلصين الذين قال الله فيهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ وصفات من امتدحهم الله ووصفهم بقوله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ وبين حالهم بقوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾

وعندما تأخذ صفحات الكتاب بيمينك تعلم أنك فى يقظة وجدانية تدفعك دائماً إلى جهاد النفس والسمو الروحى بها لتكون دائماً فى تصعيد وتطلع إلى الحياة الروحية والكمال الدينى ، فتتحرر وجدانياً وخلقيا وعقليا ، لا تستعبدك الشهوات ، ولا يسترقك الهوى ، ولا يغرك مفاتن الدنيا وملاهيها ، فتصبح قوه لا تقف فى وجهك جميع القوى ، لأنك أطلقت قواك الروحية من عقالها وسجن شهواتها وارسالها فى أفاق الحضرة القدسية والتمتع بجلال المناجاه .

والله يهدى إلى الحق ويرشد إلى صراط مستقيم

مشيخة الطريقة العزمية
فى يوم الأثنين
٢٦/٦/١٤٠٧ هـ
٢٦/١/١٩٨٧ م

شيخ الطريقة العزمية
السيد عز الدين ماضى أبو العزائم
المحامى بالنقض

التماس الطبعة الأولى

للإمام الممتحن السيد أحمد ماضى أبى العزائم
١٣٢٩ هـ ـ ١٩١٢

الحمد لله خلق الخلق بقدرته ، وسواهم بحكمته على سابق مشيئته ، وقديم علمه وباهر إرادته ، وهداهم إلى الأنس به ، والحظوة برضاه وبعظيم رحمته .

والصلاة والسلام على المخصوص بالمقام المحمود ، والحوض المورود ، من أقمته مقاما لم تقم فيه أحدا من عوالم ملكك وملكوتك ، مقاما جعلته ﷺ كعبة تنزلات جمالك ، وقدس مجلس كمالك بقولك سبحانك ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ وعلى آله الأئمة علما وزهدا ومعرفة وحفظا ونسبا ، وعلى صحابته الذين نهضوا بالدين إلى أوج الروحانية الإسلامية ، والعمل على تغيير وجه التاريخ إلى ما تصبو إليه هذه الحياة ، من رفع شأن الإسلام والمسلمين .

ورضى الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم المفاض عليه من سوابق التوفيق ، لإقتفاء آثاره ﷺ فى سائر أحواله ، فاستحق الخلافة الكبرى عنه ﷺ ، فى الهدية والإمداد للخلق بباطنه وظاهره .

وبعد فقد طلب إخواننا آل العزائم المزيد من إحياء قلوبهم بلطائف أسرار علوم الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ، المملوءة بوافر الحكمة ، وشهود تجليات المولى ، ليجلسوا على بساط حضرته ، وليتمتعوا بمناجاته والقرب منه . فالتمست من والدى الإمام المجدد أن يفيض علينا من فيض علمه فتلقينا واستقبلنا كتاب « شراب الأرواح من فضل الفتاح » ففرحت الأرواح بأنوار المشاهدة ، وأُتحفت السرائر بحلاوة المكاشفة ، وصدق الله العظيم فهو رضى الله عنه وأرضاه من الذين قال الله فيهم : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾

ولذلك جاء هذا الكتاب ليصعد بالنفوس الإنسانية إلى عالم الأرواح ، فأيقظ أهل الغفلة من غفلتهم ، وأيقظ النائمين من سباتهم ورقادهم ، وسما بهم إلى سماء الروحانية الإسلامية ، والمشاهدات القدسية ، حتى أجلس الكثير فى محاريب الإشراق وأدخلهم فى دائرة الحب الوالة ، ومحيط الوجد العظيم .

أسأل الله أن ينفع به آل العزائم خاصة ، والمسلمين عامة ، لنذوق حلاوة شراب الأرواح من فضل الفتاح ، فنسعد برضوان الله تعالى ، ولذة الأنس به .

والله ولى التوفيق .

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

يقدم نفسه ويصف إخوانه

محمد ماضي أبو العزائم : الخوف قوامه ، والذل حليته ، والرهبة باطنه ، والرغبة ظاهره ، والحيرة رداؤه ، والصبر أنيسه ، والرضا رفيقه ، والشكر زاده والثقة كنزه ، والفكر طريقه ، والتسليم مذهبه ، والتواضع رفعته ، والفقه منهجه ، والصدق ضالته ، والإخلاص مراده ، والسيد صلى الله عليه وسلم مقصوده والله سبحانه معبوده ، والشكر ذكره ، والدعاء عمله ، وما يقرب إلى النار عدوه وما يقرب إلى الجنة أليفه ، وبرّ الوالدين سروره ، وصلة الرحم حبوره ، وإدخال السرور على عباد الله وصوله ، والرحمة بخلق الله تعالى حظوته ، والقرآن الكريم خلوته ، والحضور بقلبه مع الحق سبحانه جلوته .

يا مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبه ، وبلّغه مراده ، وهكذا فليكن كل ماض ، أو من يحب ماضياً .



الباب الأول

في الحِكَم

● طلبك له هو عين طلبه لك ، ولولا طلبه لك ما طلبته ، فأنت مطلوب به ومطلوب له ، ولا أثر لك في طلبك له ، إنما أنت به مطلوب و به طالب ، وإلا فمن وفق الطالبين حتى يطلبوا ؟ وهل للطالب فعل أو أثر حتى ينسب الطلب لنفسه ؟ حاشا ، إنما ينسب الطلب لنفسه من لم يوحد مطلوبه ، والواصل لا يشهد غيراً ، ولا تميل نفسه إلى سوى ، فهو فانٍ به فيه عن شهود الأعمال والعبادات ، ومتى شهد لنفسه عملا وتيقن أنه طالب له بعبادته و بطاعته فهو محجوب عن الحقائق الإلهية ، وإلاَّ فتى يوحد من شهد نفسه أو أثبت له عملا وليس في الكون أثر لغيره : « وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ وَٱلسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » (١) .

فالوصول هو إضافة الأعمال والآثار والمظاهر كلها إلى الواحد المنزه عن الشريك والمعين ، حتى يفنى عن المشاهدات والمشهودات ، والنسبة إلى نفسه ، والنظر إلى إضافة الأعمال والتوفيقات إلى نفسه ، أو إلى غير الواحد الأحد ، تنزه عن أن ينسب إليه ما لا يليق بجنابه السامي من التبجيل والتعظيم . وتقدس عن أن تكون نعمته معللة بسبب ، مرتبطة بعمل ، وهو المعطى الوهاب : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » (٢) .

● اضطرارك إليه هو عين التوكل عليه ، فإذا اعتمدت عليك وكلك إليك .

● سلب أنيتك يوجب حسن هيئتك ، وشهود وجودك هو عين صدودك .

● متى ظهرت لك حقيقتك صحت عبوديتك .

● إذا انكشفت لك شمس التحقيق قبل أن تشهد شرع التدقيق ؛ فأنت غريق .

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧

(٢) سورة يس آية ٨٢ .

- إذا لم يستتر نور البدر صورتك ؛ كشفت شمس الحقيقة سريرتك .
- متى دخلت من الباب ؛ صرتَ من أولى الألباب .
- إذا لمعت عليك أنوار قدسه ؛ فقد اختصك بأنسه ، وإذا جملك بجمال الربوبية ؛ فطهِّر ثياب العبودية .

- الدنيا دار تعريف وتكليف ، فلا يشغلك عن تلك الغاية الحظوظ والتصريف ، والتهاون والتسويف . أحيِ صفاتك بنسبتها إليه ، وأسعد أوقاتك بالتوكل عليه .
- أنت عدم إذا عاملك بعدله ، وملَكٌ إذا لاحظك بفضله ، أوجدك لتتوصل بمعرفته إلى التحقق بعبوديتك لذاته ، وكلفك مع أنه الفاعل المختار ؛ لتذوق بإطاعة الأمر حلاوة الأسرار .
- اجعل حظك الرضا بما أقامك فيه ، حتى يدخلك بفضله حضرة تجليه .
- حافظ على الأدب ولو رفعت لأعلى الرتب ، واخضع للسنة ولو بشرك بالجنة .
- إذا أردت أن تراه فازهد مَن سواه . كيف تظهر تجلياته لمن صدأت بغيره مرآته ؟! كيف يشهد ربه من الجنةُ سكنت قلبه ؟! إنما وعد بجماله ، وأوعد بجلاله ، لإحياء بشريتك ، والفناء عن حظوظك وشهوتك ، لتفنى عن الوعد والوعيد فى طلب المَلِكِ المجيد .
- سِرْ من حيوانيتك إلى آدميتك بما أنت عليه من حسن حليتك ، وانهض من قيود الآدمية إلى رحيب الإنسانية بما فيك من الحِكم الربانية ، وتخلص من أدران إنسانيتك بنور ملكيتك ، وأنب بربك من الوقوف عند الملكية إليه بنور البصيرة الإلهية .
- إذا صفا الناسوت من أدران سفله ، وسطعت على الروح أنوار كماله ، سبحت فى ملكوت شهود الجمال ، وتمتعت بشهود حظيرة الوصال ، ليس ما تشهده فيك وفى الآفاق إلاَّ أسرار تجليات الخلاَّق ، وهو تنَّزه علوا عن الا تصال والانفصال ، فكيف تدريه العقول فى حال من الأحوال ؟

إذا ما غيبك عنك بشهوده ، وأفنى وجودك فى ظاهر وجوده ، ظهرت عين آياته فى صورة مرآته . وإذا غيبك بشهود مظاهر تنزلا ته ، ومحا عنك نسبة الأين الحاجبة لستارته فقد خصصك لحضرة ذاته .

- لا تجعل لسانك لهجا بذكر خصوصيتك ، ولا تبسطه فيشطح بأسرار مزيتك ، فيكون نقصا فى مقام عبوديتك ، إذا جملك بجمال ربوبيته فاشطح بلسان العبارة فى بستان وحدته .

• رحمة الله وسعت كل شئ ، وإنما وهو الذى يكون ظاهره جمالا و باطنه جلالا كالشهوات ، وجلال جمالى ؛ وهو الذى يكون ظاهره جلالا و باطنه جمالا كالنار فى الدنيا .

• إن لله جنة عاجلة من دخلها لا يحتاج إلى جنة آجلة ، ألا وهى المعرفة بالله تعالى .

• ظهرتُ لك بك وبما لابد لك منه حتى لا تدعى أننى حُجبتُ عنك ، فإذا تقربتَ إلىَّ بما ظهرتُ لك فيه ، قربتُك إلىَّ وكاشفتُك بجمالى بى ، وإذا شغلك ما ظهرتُ لك فيه حجبتُك عنى ، وطالبتُك بحقوقى ، ولى الحجة البالغة عليك .

• نوعت لك الأنواعَ لتثبت الوحدانية لذاتى ، وكثرت فى عينك الأعداد لتشهد معانى تنزلات أسمائى . ليكون أنسك أكمل ، وتقربك إلىَّ أسهل ، وكل ذلك لك سخرت وأنت لذاتى ، فلا يسخرك ما لأجلك خلق ، ولا يستعبدك ما لأجلك وجد ، فكن لى خالصا أكن لك خالصا ، ومن كنت له خالصا لا تعلم نفس ما أجعله له .

• عجبا لمن رآنى دون مُكَوَّناتى ، قال العارف : سبحانك تنزَّهتَ ، قال : من جعلنى وسيلةً إلى جناتى ، فقد رآنى دون مُكَوَّناتى .

• أول فريضةٍ المعرفة ، ولا عمل قبلها .
• ما وحَّد من شهد عملا لنفسه أو لغير الله .
• متى صلحت القلوب ، واجهت علامَ الغيوب .

• ثلاثة لا تدوم محبتهم : الحب لطمع فى الدنيا ، والحب لنوال معصية ، والحب لمعونة على معصية . وثلاثة لا تنقطع محبتهم : الحب لله ، والحب لجميل ، والحب للعالم .. حديث سيدتنا عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم حين طلب معاوية منها أن تنصحه وتوجز : قالت رضى الله عنها : (من حسَّنَ سريرته لله ، جمل الله علانيته للخلق) .

• من كان الله مراده ؛ كان مقعد صدق وراءه .
• من عَصى اللهَ فيك ؛ فاجتهد أن تطيع الله فيه .

• الوجد نتيجة القصد ، ولا قصد إلا بمعرفة ، ولا معرفة إلا بيقين ، ولا يقين إلاَّ بحجة ، والحجة إما نور مواجهة للسرائر ، أو انكشاف حكمة المظاهر . فمن كان قصده الأحد العلى

لذاته ؛ فوجده الرهبة من عظمته ، والرغبة فى كمالاته ، وهو الفرد الكامل المتمكن من مشاهدة التوحيد بالتوحيد ، واجهه الجبروت ، وشاهد العزة بعد أن غاب عن الملكوت « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ » (١) . ودونه مراد من المرادين ، قصده الجميل المفيض للجمال ، الولى المعطى الوهاب ، ووجده الخشية من ذى الجلال ، والرغبة فى ذى الفضل العظيم والإحسان ، وهو مراد متمكن من مشاهدة تجلى معانى الصفات ، واجهته العزة ، وشاهد الملكوت بعد أن غاب عن الملك « إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ » (٢) .

- ودونهم مريد صادق من الصادقين ، وقصده الإنعام والإحسان ، ووجده الخوف من مقام ربه ، ورغبته النعيم المقيم فى الجنان ، وهو مريد متمكن من التصديق بالملكوت ، واجهه الملكوت بعد أن غاب عما حظره الشرع فى المُلْك :« وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » (٣) .

- الفكر مطية ، إما للصد أو الوجد ، فإن بعث إليه شهوة الأعضاء ودواعى الحظ والهوى فقد أخلد إلى الأرض ، وإن دعى إليه تدبر فى أسرار الكائنات ؛ واعتبار بالآيات ؛ وقياس ما يأتى بما فات ؛ فهو البراق بالرفعة إلى أعلى المقامات .

أعضاؤك السبع مفاتيح للشهود فى الجنات ، وأبواب للخلود فى أسفل الدركات ، الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ .

- أخلاق إبليس إعلان على سوء الخاتمة ، مالم يتطهر منها مريد الوصول ، وأخلاق البهائم يمحوها ماء التوبة وصابون العدول .

- إنما النوافل بعد الواجبات وإلا كانت بليات .

- من أخذ حظه من الصبر واليقين فقد نال الخير كلّه .

---

(١) سورة سبأ آية ١٣ .

(٢) سورة فصلت آية ٣٠ .

(٣) سورة الإسراء آية ١٩ .

- العبارة إذا كانت منك لك حجبتك ، وإذا كانت منه له قربتك .
- إذا ظهرت لك حجبك ظهورك عن شهود ظاهر الحق ، وربما استدرجك فى هذا المقام فرفعك فى أعين الخلق .

لسان العبارة من العارفين بالله نغمات تطيب بها الأرواح ، وإشارات عن الغيب تهتز بها الأشباح : « ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » (١) .

- قربك به منه بطون لك فيه ، وظهور له به ولك به فيك ، وقربك الحِسّى بك من حيث الاستدلال نأى عنه ، وظهور لك فى عينك بغير حقيقتك ، وهو هو الظاهر له به ذاتا واسما ، ولك تأثيرا ، وهو الحجاب الذى هو أنت فى عينيك ، و بعدك الحسى بطون لظهوره ، وخفاء لظاهره ، وهو هو الظاهر له به من حيث غيبتك عن علم مَن أنت حقيقته ، وهو الستر المعبر عنه بالكفر ، لأن الهوى غالب على السمع والأبصار والأفئدة فحرمها من التفكر فى الآثار . وخير الأمور الوسط ، وهو أن تعلم حقيقة أنك شئ مذكور به له ، وأنه الواجب الوجود الظاهر بأسمائه ونعوته حقيقة له ، واعتباراً لك من حيث تقييدك ، فهو سبحانه ظاهر لا يخفى ، و باطن لا يُدرَك ، وأنت ثابت به له ، معدوم بك لك ، والحال يحول ستارة الأوهام كما يذيب حرُّ الشمس بردَ الماء ، ومتى هبت نسمات القدس من أرجاء حظيرة الأنس ؛ انتعشت تلك الروح القدسية ، فى مضايق العوالم الناسوتية ، وترنمت بأشجان الميل إلى مكانة التنزلات الربانية ، فغاب الحس ، وانمحى اللمس ، واختفت الآثار بأنوار الأسرار ، هنالك يترجم اللسان ولا ملام ، وتباح العبارة ، و يؤمر بالإشارة : « وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » (٢) .. « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » (٣) .

الحمد لله على القرب به له سبحانه ، والفتح منه ، والإقبال والقبول ، وصلى الله على عين كمالات العين ، وسر جمال الأحد ، صلاة بها نشرب من أنهار معارفه شراب العلم النافع ، والتوفيق والإخلاص يا رب العالمين ، أجب دعانا يا مجيب الدعاء .

- لا تفرح بالعمل إلاّ إذا تحققت بالإخلاص فيه . ولا تفرح بالإخلاص إلاّ إذا تحققت

---

(١) سورة الزمر آية ٢٣ .
(٢) سورة الصافات آية ١٦٤ .
(٣) سورة الإنسان آية ٢١ .

بإصابة الحق فيه ، ولا تفرح بإصابة الحق إلاَّإذا تحققت بتوفيق الله فيه ومعونته ، ولا تفرح بالتوفيق إلاَّ إذا فرحت بالله الذى أقامك مقام العامل لذاته حتى صرت من عمال الله .

● الإحسان واجب عليك إلى أخيك ولو تحققت منه الإساءة ، فكيف تسئ إليه مع تشككك فى قصده ؟ !

● علامة الحب أن تقبل على حبيبك عند إقباله عليك وإدباره عنك .

● من كان قربه بالأذن كان بعده بالأذن ، ومن كان قريبا بالقلب لم يبعد .

● أحبابك ثلاثة : حبيبك ، وحبيب حبيبك ، وعدو عدوك . وأعداؤك ثلاثة : عدوك ، وعدو حبيبك ، وحبيب عدوك .

● الرجل من إذا غضب أرضى الله ، وإذا رضى أرضى الله .

● القيود الشرعية حصون من الفحشاء فى البداية ، ومزاج يجعل الطالب وسطا فى النهاية .

● استنارة القلوب دليل على غفران الذنوب ، قبل أن يتجلى الوهاب يتجلى التواب ، حتى تطيب المواجهات بعد الهبات .

● من لم يجلس مجلس ذل صغير؛ جلس مجلس ذل كبير.

● الجمال جمالان : جمال تبتهج به وإن احتقرك الناس ، وجمال تحتقر به نفسك وتعز عند الناس . أما الأول : فوضوح الحق لك عن عين يقين ، وانتهاجك على سنته ، وإن خالفك الناس وعادوك . وأما الثانى : فانبلاج أنوار الحق عليك حتى تضىء أرجاء حقيقتك ، فتعلم مقدار نفسك فتحتقرها ، وتظهر أنوار الحق للخلق فتحترم عندهم ، وتعظم فى أعينهم .

● المريد فى حال بسطه ، أيسر من ذى المقام فى حال قبضه .

المريد الكامل من تجلى لقلبه مراد المرشد قبل سؤاله .

شئ إذا علمته علَّمك ،وشىء إذا فهمته جَمَّلك ،وشىءإذا واليته أشهدَك ، وشئ إذا شهدته جملك ، أما الأول فهو الأب ، والثانى هو الأستاذ ، والثالث هو اتباعك للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، والرابع هو الله جل جلاله .

● الجمال أربعة أقسام : جمال صرف وهو الجنة ، وجلال صرف وهو النار، وجمال جلالى

وصف بها أفراده المحبوبين ، فالرحمة برهان المحبوبين أنهم محبوبون (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) (١) أى يوصف بها .

● كمال المعرفة أن تعرف من أنت فلا تتعدى قدرك (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)(٢) .

● كمال الظلم أن تنسب لك ما هو لغيرك : « لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ » (٣) .

● كمال الجهل أن تعتقد دوام ما يزول فتحرص عليه (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) (٤) .

● كمال المجاهدة أن تجاهد نفسك وهواك فى ذات الله تعالى : « وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (٥) .

● كمال النعمة شهود الحق عند كل شيء بما يناسب مقامه : (وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ) (٦) .

● كمال الغفلة أن يسيء و يرى أنه محسن (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (٧) .

● القلوب أوعية الغيوب ، وهى البيت المعمور ، والعرش ، واللوح المحفوظ «فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ » عن الشرك « وَ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ » بالتوحيد «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ » (٨) بالفكر والاستحضار .

● كمال الأدب مع الله تعالى حسن الظن به سبحانه ، الحمد لله على نعمائه الظاهرة والباطنة .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٦
(٢) سورة الرحمن آية ٤٦ .
(٣) سورة المائدة آية ١٢٠ .
(٤) سورة الفرقان آيه ٢٣ .
(٥) سورة العنكبوت آية ٦٩ .
(٦) سورة الأنعام آية ٧٥ .
(٧) سورة الكهف آية ١٠٤ .
(٨) سورة النور آية ٣٦.

الظاهر من الأعمال ميزان الخلق ، والحق محل نظره القلب ، فعلى الإنسان أن يحكم على الناس بظواهرهم حالا غير موقن بالمآل ، فقد يكون المآل على مقتضى ظاهرهم وقد يكون على غير ذلك ، وكل ذلك بحسب السابقية .

أنت أيها الإنسان لا تعلم ما سبق فى العلم ، فلا تفرح بحسن الحال الظاهر فى آخر ، ولا تحزن بسوء الحال الظاهر فى آخر ، فإن الأحوال تتحول ، والشئون تتجدد . ولكن عليك أن تجعل الشكر حصنا لحسن حالك ، والابتهال وسيلة لتحسين مآلك ، أيها الإنسان : اجعل ثقتك بمن لا يتغير ولا يتحول ، وأوصل نسبك بنسبه ، وأنس به ليدوم فرحك ، وتتوالى عليك البشائر فى دنياك وآخرتك ، واجعل مدحك للناس فى حال إحسانهم بلسانك ، تنشيطاً لهم ، ولا تركن بقلبك إليهم لتكون على حذر منهم .

● ليس كل إقبال موجبا للقبول ، ولا كل تمسك بالصالحات مؤدٍّ إلى الوصول ، وإنما تصل إلى مولاك بنسبك ، وتقبل لديه بأخلاقه التى تتجمل بها ، فنسبك له عبد مفتقر مضطر ، ونسبته إليك رب ممدك بالإيجاد والإمداد .

ليس الوصول تلذذا بالأعمال وتجملا بالأحوال ، إنما الوصول معرفتك نفسك ، وعلمك مرتبتك ، وتحققك بفاقتك ، واضطرارك له ، فكم عامل بالكتاب والسنة وهو أشرُّ على المسلمين من الجِنَّةِ ، وكم من متظاهر بزى المساكين وهو أضر عليهم من الشياطين ، فجمل باطنك لمولاك يدوم رقيك وعلاك ، متى تتجمل بالعبودية وأنت ترى نفسك خيراً من سواك ؟ أو أولى بفضل مولاك ؟ عجباً لك !! أَوَ تَقْسِمُ رحمة ربك ؟ « إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ »(١) .

العبد من كان جماله صفات العبيد ، وكماله التخلق بأخلاق المبدئ المعيد ، إبليس عَبَدَ اللّـهَ سبعين ألف سَنـة ، لم ينتفع منها بحظوة سِنَةٍ ، ولكنه حسد آدم نَفَساً فطُرد وأُبعد . فتجمل بجمال الأخلاق ، وصغِّر نفسك فى أعينك تعظيما لذى الجلال والإكرام ، من أمدك بالخير والإنعام .

---

(١) سورة آل عمران أية ٧٣ .

لَيْسَ الرُّقِيُّ إلى العَلْيَا بِأَعْمَالِ ... وَلاَ الوُصُولُ بِأَسْرَارٍ وَأَحْوَالِ

وَلاَ بِعِلْمٍ بِهِ تَغْوَى وَلاَ أَمَلٍ ... وَلاَ جِهَادٍ بِأَبْدَانٍ وَأَمْوَالِ

لَكِنَّهُ مِنَّةٌ مِنْ فَضْلِ وَاهِبِهِ ... بِهِ تُعَدُّ جميلا بين أَبْدَالِ

خُلُقٌ عَظِيمٌ وَإِيقَانٌ وَمَعْرِفَةٌ ... بِاللَّهِ ذِى الفَضْلِ وَالإحْسَانِ وَالْوَالِى

إِذَا عَرَفْتَ مَقَامَ اللَّهِ خِفْتَ وَفِى ... خَوْفِ المَقَامِ تَنَالُ الْقُرْبَ بِوِصَالِ

هَذَا الوِصَالُ وَهَذَا القُرْبُ أَجْمَعُهُ ... سَعَادَة أَبَداً فضلٌ بِغَيْرِ زَوَالِ

يَا وَاسِعَ الفَضْلِ جَمِّلْنَا بِفَضْلِكَ يَا ... مُولِى العَطَايَا بإحْسَانٍ وإقْبَالِ

وَبِالجَمَالِ فَعَامِلْنَا وَكُن مَعَنَا ... بِنُورِ وَجْهِكَ فِى دُنْيَاىَ وَمآلِى

● إذا انفتق رتق القلب بما يفاجىء المراد من واردات الحق انحلت عقدة لسانه فأظهر حقائق الوجود فى هياكل مجملة بروح القدس. تميل إليه النفوس المطمئنة، وتنكشف بها ظلمات الوهم بأنوار اليقين، وتنزعج منها النفوس المحجوبة بحجاب الهوى، وهى هى الحكمة السماوية المفاضة بفضل الله ورحمته، والناطق بها من أفراد الرجال المخصوصين بسابقة الحسنى، يصدع بها القلوب، ويمحق بها الأوهام. وليس المراد من الحكمة عبارات متسعة المبانى، بالغة حدها فى سمو اللفظ، وانتظام التركيب، ومراعاة مقتضى الحال المكتسب، ذلك من مزاولة علوم الفلسفة والمنطق والرياضات، ليستمد الذهن بالنظائر والقضايا والأقيسة والأشكال، واستعمال النكت البلاغية، فإن هذا من الحكمة بمراحل، لأنا نرى كثيراً من الكفار وأهل المعاصى لهم اللسان المعبر؛ والقلم المبين بحالة تحير العقول. وقد جعل الله حظهم منه لسانهم، وحرمهم من نور الحضور معه، ولذة الاستمداد منه.

● من استغنى عن الله استغنى الله عنه، ومن افتقر إلى الله أقبل الله عليه.

● ادع نفسك إلى الله، فإن انقادت فادع غيرك.

● إذا تعلقت همتك بالقدس الأعلى، وانحصرت إرادتك فى طلبه، وهجرت مألوفاتك وعوائدك، وعاديت آمالك ومراداتك، كان لك ما تشاء مما تتعلق به قدرة الحق، ولو قلْب الأعيان وإسباغ الآلاء.

● إذا كان لك غير الله مراد، كيف تبلغ منه المراد؟.

- إذا جملت له سريرتك جمّل بمعانى صفاته علانيتك .
- إذا أقبلت بكلك عليه جذبك به إليه .
- إذا تحققت بمعانى صفاتك من عدم وذل وفاقة واضطرار، وذكرته بما ظهر لك فيك وفى الآفاق ، جعلك أمينا متصرفا فى مكوّناته ، وكانت (كن) لك من بعض هباته .

إذا ظهرت له بأكمل أخلاق العبيد ؛ أحبك وجملك بالمزيد ثم أظهرك فى كونه مجملا بجماله ، فإذا رئيت ذكر الله لرؤيته .

- أعمال الأبدان إذا كانت عن مشاهدات كانت قربات ، وإلاّ فهى على العمال بليات .
- إذا واجهك بمعنى اسم من أسماء جماله ، بإسباغ نعم أو نشر فضل ، فلا تنس مَن أنت .

واستقبل مواجهته بفرح بفضله : وأنسٍ بمشاهدته ، وذكرٍ له سبحانه ، وشكرٍ على نعماه حتى تكون على مزيد من جدواه .

- إذا أقبل بوجوه خلقه عليك ، وتقرب بواسع الفضل إليك ، أقبل عليه بكليتك ولا تلتفت إلى سواه ، وأكرمه فى خلقه فى كل حال بمقتضاه ، ولا تشغلك النعمة عن المنعم ، ولا الخلق عن الخالق ، ولا الكون عن المكوّن .

- إذا أحببت أن يواجهك فادخل على حضرته بما أنت أهله ، حتى يواجهك بما هو أهله .
- إذا أحببت أن تعرف فتفكر من أنت قبل أن توجد ، وما أنت قبل أن تحمل بك أمك ، ثم اشكر المنعم على ما جملك به من مواهبه ، واحمده على ما منحك من مننه ، وواجهه برتبة من الرتبتين شاكرا ذاكرا فاكرا ، وعندها تدخل فسيح القدس الأعلى ، وتأنس بمشاهدات المقربين .

- الواصل حقا من توحد مطلوبه ، ورضى بما قدره محبوبه . والعارف من تحقق فناء ما سوى الأحد ، ولم يشغله مال ولا ولد . والجاهل مَن الأكوان مناه ، ويحسب أنه يعبد الله . وإلاّ فمتى يمكنك أن تجمع بين رضا عدوين بلا نفاق أو مين ؟ .

- أنسك بما تميل إليه بهواك يسرك ، والفرار إلى الحق دواك .
- استأنس بآياته ينبلج لك صبح تجلياته .
- استحضر بنور فكرتك نور معيته ، لتشرق عليك شمس هويته .

● مَن أنت إذا تأملت بعين مستبصر؟ ومن أنت إذا شهدت بعين مستحضر؟ لو كشف عنك حجاب حظك، وذاب ثلج وهمك بنور فهمك، لعاينت نوراً مشرقاً به قامت الكائنات، وأضاءت الآيات.

● إذا نَسِيَ العبد ربه بتوالى الغفلة والسهو والاشتغال بغيره، عميت عين بصيرته، وأطفئت أنوار فكرته، فارتكب كبائر الرذائل وصغيرها من دناءات القبائح الحيوانية والإبليسية، وتحرى أن يأتى كل تلك الرذائل فى غيبة عن الناس. متيقنا أنه ليس وراء الناس وراء، فإذا قضى رذائله وتحقق أن أحداً من الخلق لم يطلع عليه فرح، وحصل له السرور، معتقداً أنه نال أملا بلا معاقبة عليه ولا سؤال، وذلك من ظلمة قلبه بسخائف الحظ والهوى. وما يدرى المسكين أن الجبار المتكبر المطلع على ما تخفى الأنفس، وما توسوس به الصدور، وعلى أخفى من ذلك، أحصى ذلك وكتبه عليه، وشهد به عليه أعضاؤه والمكان الذى فعل فيه، و يعجل له العقوبة فى الدنيا. فلو أن الإنسان تأمل بعين فكرته، ونظر ببصر العبرة، لعلم أن الذى أبدع الكائنات وصرف الرياح، وسخر السحاب، وأجرى الأنهار، وزين السموات بالشمس والقمر والنجوم، هو الذى أمر وحكم، وأن المعصية مخالفة لأمره وحكمه، وقد أوعد عليها بالعذاب والحساب. فعليك أيها الجاهل بأيام ربك، الغافل عن مآلك ومرجعك، أن تتوب إلى الله متابا، وترجع إليه سبحانه نادماً، وتسأله أن يقبل توبتك، و يوفقك للعمل الذى يرضاه منك، إنه يقبل التوبة عن عباده و يغفر الذنوب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يا فتاح يا عليم، يا معطى يا وهاب.

● طلب ما لابد منه عبادة، والاشتغال بما خلقت له سعادة.

● إن كان فراغ قلبك بادخار ما يكفيك فى غدك فالهمُّ به لا يقدح فى زهدك.

● تحذرك باليقظة من الوقوع فى فتن الخلق؛ لا ينافى تحققك بالصدق.

● تلذذك بالقربات مع الغفلة عن شهود الآيات ليس من المجاهدات، فقد تتلذذ النفس بما هو حظ فى صورة الطاعات.

● اتهام النفس مع ملازمة المعاصى المحظورات دليل على التهاون فى تزكيتها بالرياضات. واتهامها فى حال التوفيق للنوافل برهان على قبول العامل.

- ليس التنسك بلبس الحلل الخَلَقة ، إنما الناسك من طهر خُلُقه .
- لحظة فكر بيقين خير من عبادة سنين .
- نظر بفكر واعتبار خير من بكاء سنة من خوف النار .
- الخُلُقُ الحسن نسب للمرسلين ، والغرور بالعلم قرب من الشياطين .
- علامة القرب خوف مقام القريب .
- سمة الحب الثقة بإجابة المجيب .
- من جعل مولاه وسيلة لسواه ، كيف يراه ؟ أو كيف يحظى برضاه ؟ .
- من كانت الجنة مناه ، بعد عن مشاهدة مولاه .
- الأنس بالعاجل حرمان من الآجل ، إنما يفوز بالوصول المخلص .
- الرغبة فيه حجاب ، والرغبة عنه كفر . فمادمت راغباً فيه فالرغبة حجاب حتى تجذبك عوامل المحبة عن حول وقوة ، فيجذبك معه .
- من لم يترك كثيرا مما يشتهى وقع فى كثير مما يكره .
- يجب على الإنسان العاقل أن يكون مثل الأرض فى التواضع ، ومثل البحر فى الكرم ، ومثل الليل فى الستر ، ومثل الشمس فى المنفعة .
- قوم شغلهم بشئونه ، وما نظروا بعيونه .
- مدد الفضل بالفضل . والفضل فضلان : فضل مال ، وفضل خلق ، لقوله تعالى : « وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ » (١) .
- نَسَب إليك الأعمال ، عندما شهدت نفسك فى أوج الكمال ؛ وقيّدك بالتكاليف ، لتعلم أن هذا الشهود مخيف . زينك بجميل الصفات ، لتنكشف لك بها الآيات . أنبأك ببيناته ، لتتدبر فى أسرار آياته . وعدك وأوعدك ، ليقربك و يبعدك . جعلك خليفة فى الأرض ، لتحظى بخطابه يوم العرض . فتح لك باب الرحمة والقبول ، ليسهل عليك الوصول . وشدد عليك الحساب ، ليهديك إلى الصواب . فأنت مطلوب لحضرته ، ومقاد بعوامل حكمته . إنما يخفى عند شهودك وإثبات وجودك ؛ و يظهر عند فقدان أنيتك وانعدام غيريتك . جعلك أشد العوالم احتياجاً إليه ، ليدلك على التوكل عليه . أوجد لك فى معظم

---

(١) سورة التوبة آية ٤١ .

أعمالك غير مرادك ، لتعلم أنه المريد المختار لجميع ذلك ، ولينبهك إلى تفويض الأمور لإرادته ، وتسليم مالك لمشيئته . إنما حجبك عنه شهود أنك لست منه ، وأظهره لك تحققك بأصلك .

- أنت الحجاب وبموجبه وصل الأحباب .
- ليس بينك و بينه بَيْنٌ لأنه الظاهر ، ولو كشف عنك الرين لشاهدت حسنه الباهر .
- ليس للعقل كشف أسراره ، وكيف وقد حجب عن أقداره ؟! عجز العقل عن إدراك ما سيكون ، فكيف يدرك المكوِّن للكون ؟! .
- وهب لك نوراً تشهد آثاره التي بك أحاطت ، فكيف تشهد بك أسراره التي عنك غابت ؟ .

- إذا انكشفت لك حقيقتك ، رفعت بين العالم الأعلى مكانتك .
- لا تفتح على نفسك باب الشك والخلاف ، فتكون عرضت نفسك للإتلاف .
- أنب إلى ربك مؤمنا ، وأسلم له وجهك موقنا .
- إذا جهلت حكما من أحكامه فتضرع في إفهامه . أوْكِلْه إلى جهلك الأول حتى يعلِّمَك الأول .

- الإسلام نهاية الاستسلام ، وبه القبول والسلام .
- ليس لك من عملك إلاَّ ما أخلصت النية فيه ، وقليله للعامل يغنيه .
- إذا أنست من نفسك الخشية من الله ، فتحقق بحظوته ورضاه ، وإذا استأنست نفسك بالحق وإن كان ثقيلا ، واستوحشت من الباطل وإن كان لها جميلا ، فاعلم أنه اصطفاك لمشاهدته ، واجتباك لخصوصيته ، وإلاَّ فجاهد نفسك وهواك .
- ليس الواصل من تصرف في الكائنات ، إنما الواصل من لم تشغله عن الله روضات الجنات .

- العبد حظه رضا مولاه ، وهواه أنه سبحانه بدوام الإقبال عليه يتولاه ، فكن عبداً لله ، تكن مَلِكاً على ما سواه .
- صفاء القلب بدوام مراقبة الرب ، وإنما تكون المراقبة عن وجد صادق ؛ إذا كنت بعد العلم بجمالات الحق عاشقا .

- قلب الواجد يقلب فى الجلال والجمال ، بعد كشف حقيقة الحرام والحلال ، فيكون القلب محفوظا من الوسواس ، والجسد مطهرا من الأدناس .
- اليقين حال من الشهود ، والرضا فضل من الودود .
- إذا جملك بالوجد إليه ، وحلاك بالتوكل عليه ، فقد وافتك هدايته ، وطلبتك عنايته .
- اليقين نور من أسرار المشاهدة ،وسر من أنوارِ المعرفة ، ومقامٌ من مقامات الزلفى ، به يحصل التحقيق و يدوم الحضور مع الحق .
- القلب وعاء الأسرار الإلهية ، فلا تشغله بالآمال الكونية .
- صَفِّ قلبك بمراقبة الجبروت ؛ تتوالى عليك لطائف اللاهوت .
- إنما يسلم بالاعتقاد من أُهِّلَ للوداد ، و يشك بعد التسليم من أبعده عن شهوده العدل الحكيم ، ينقدح الشك فى قلوب عن الحق محجوبة ، و ينقدح النور فى قلوب للقرب مطلوبة .
- من أراد الوصول إلى حضرة المشاهدة ، فليسلم للّطائف الواردة .
- بوادر النفس تنبيء عن مقاماتها ، وسوابق العزائم تبشر بنهاياتها ، فمن كان الحظ بادرة حاله ، فالصدود عاقبة مآله .
- النفوس ألواح آيات الأنوار إذا تزكت ، وقرارات الأقدار إذا صدأت .
- الحق غنى عن الخلق والكل إلى فضله مفتقرون ، فلا يشاهد أسراره إلا الموقنون .
- لا تخفى على الله خافية ، فأخلص لذاته العلية الباطن والعلانية.
- حَدَّ الشرعُ حدوداً لتزكية النفوس ، فلا تحم حول الحمى لتشرق فى قلبك الشموس .
- إذا تزكت نفسك بالسير على الصراط المستقيم ، وصلت بفضل الله تعالى إلى النعيم المقيم .
- تعرض إلى منازل نظراته حتى يراك حيث يحب ، ولديها يمنحك بفضله فوق ما تحب .
- الحب باب للشهود ، فإذا أحببت فقد صح الورود .



الباب الثانى

فى مصادر الشريعة الإسلامية ورجالها والدعوة والدعاة

الفصل الأول

مصادر الشريعة الإسلامية ورجالها

مصادر الشريعة الإسلامية

أولا : القرآن الشريف :

النجاة من الهول فى الدنيا والآخرة ، والحظوة بالحسنى فى الدنيا والآخرة ، والقرب من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة أن تُحِلّ حلال القرآن قولاً وعملاً ، وأن تحرم حرامه قولاً وعملاً . فهو الإمام الحق ، الذى لا تشوبه ظلمة ، وحبل الله تعالى الذى هو ممسوك بيمينه ، من تمسك به وصله الله . بَيَّنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله وحاله أسرار القرآن ، وكشف أنواره ، ووضح مناهجه .

القرآن القرآن ، إخوانى موتوا به واحيوا به ، واعملوا به ، وأطيعوا به ربكم سبحانه وتعالى ، وكلوا به ، واشربوا به ، وناموا به ، وتاجروا به ، وازرعوا به ، أى لا تعملوا عملا حتى يظهر لكم من القرآن الشريف حكمه ، فإن أحلّ فاعملوا ، وإن حظر فامتنعوا .

القرآن الشريف : حجة الله تعالى وحجة خلقه ، فمن كان القرآن حجة له رضى الله عنه وأرضاه ، ومن كان حجة عليه سخط عليه وأقصاه .

القرآن ، اقرءوه بلسان الفكر وعين العبرة وهمة الاتباع وعزيمة العمل به . القرآن ، نجا به من فهمه عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهلك من فهمه بعلومه العقلية ، وأفكاره الدنيوية ، وحظوظه النفسانية .

القرآن : كلام الله تعالى ، ووصفه ، وأخلاقه ، وكمالاته ، وجمالاته ، وجلاله .

القرآن ذات وأحكام ، وأوصاف وأسماء ، وعبرة وتنزل ، ورموز وأسرار ، ومحكم ومتشابه . اقرءوا القرآن لله تعالى . « ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ » (١) .

وصلى الله وسلم على من كان خلقه القرآن ، ومعجزته القرآن ، وآياته القرآن ، وعمله القرآن ، وحاله القرآن ، ومقامه القرآن ، وعلى آله وورثته والتابعين آمين .

ثانيا : السنة المحمدية :

حصن الله الحصين ، الذى وهبه لأهل خصوصيته ، ومنحه لأحبابه . والسنة المحمدية : لسان الحق المبين لكلامه الموضح لسبيله : « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ » (٢) . أثبتت المعجزة والآية أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه متجمل بأكمل الأوصاف التى يحبها الله تعالى من عباده ، وأجمل الأعمال التى يريدها الله من أحبابه ، وأتم الأخلاق التى هى أخلاق الله ، نطق على لسانه صلى الله عليه وسلم بكلامه القديم ، وهدانا صلى الله عليه وسلم للإيمان والتوحيد ، فهو الحجة البالغة ، والآية الظاهرة ، به يهتدى المهتدون ، وباتباعه يتقرب المتقربون ، فمن رغب عن سننه — ولو عمل بكل الكتاب — فهو هالك . ومن أقام سنته واهتدى بهديه وتابعه نجا ، وحظى بحظوة الشهود .

فالسنةَ السُّنةَ إخوانى اعملوا بها ولو فى آخر نفس من الحياة ، احيوها تحيوا ، وانصروها تنصروا .

الحلال بيّن والحرام بيّن ، اللهم احفظنا بالسنة فى قولنا وعملنا وحالنا ، واجعلنا ناصرين لها فى أنفسنا وأهلنا وإخواننا يارب العالمين .

اللهم احفظنا من البدعة والمخالفة ، ومتابعة الحظ والهوى ، والغرور بالدنيا وبعلومها يارب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة الرحمن آية ١ — ٢.

(٢) سورة آل عمران آية ٣١.

الرجــال

أولاً : السلف الصالح :

قوم نصروا الله ورسوله ، بذلوا أموالهم وأولادهم وأنفسهم وديارهم ، وتركوا دنياهم فى حب الله تعالى وحب رسوله وحب دينه ، ورضيهم الله أنصارا لنبيه ، وحملة لدينه ، وأئمة للمخلصين من عباده ، مدحهم فى كتابه ، ورضى عنهم ، وأخبر برضوانه عنهم فى الذكر الحكيم . بهم قام الدين وانتشر ، وعضد النبى صلى الله عليه وسلم وانتصر . هلك من خالفهم أو نقصهم أو نقدهم ، خصوصا أولو العزائم منهم ، الأئمة المرشدون ، والخلفاء الراشدون ، المشهود لهم بالجنة من الصادق الأمين .

أول من أسلم من الصبيان عَلِيٌّ كرم الله وجهه ، ومن النساء خديجة الكبرى عليها السلام ، ومن الرجال الصديق المخصوص بأكمل الخصوصية أبو بكر رضى الله عنه ، ومن الموالى بلال وحارثة وولده زيد . والسيدة البارة النقية الطاهرة بضعة النبوة الزهراء عليها السلام . و بقية الصحابة من السابقين الأولين والذين اتبعوهم بإحسان .

اللهَ اللهَ إخوانى فى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأنصاره ومن تبعهم بإحسان من سلف المؤمنين ، فهم الأئمة ، من اهتدى بهديهم نجا ، ومن سلك مسلكهم هدى . رضوان الله عليهم أجمعين .

ثانياً : المعاصرون

المعاصرون إخوانكم فى الدين وأصدقاؤكم ، (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) (١) ليكن الكبير كالوالد والمساوى أخاً والصغير ولداً بجميع شروطهم . لا تفرقوا بين بينكم ، ولا تحتقروا مسلما ، فإن الله تعالى ما رضيه للإسلام إلاَّ وهو عنده عظيم « محمد ماضى » برىء ممن يفرق بين مسلم و بين نفسه لسبب « محمد ماضى » .

إخوانى إنى أعتقد أن كل مسلم خير منى ــ ولو ارتكب أكبر الكبائر غير الشرك ــ لأن

(١) سورة الحجرات آية ١٠ .

الله سبحانه له سر بينه و بين من رضى لهم الإسلام دينا يخفى على البصيرة ، ويسترهم ستور لتخفى مراتبهم .

((محمد ماضى)) ، لا يرى مسلماً مرتكباً كبيرة إلاَّ نظر له بعين الشرع رحمة له ، ويعظه بالحسنى نيابة عن صاحب الشريعة ، ونظر له بعين الحق فأوّلَ حالّه قائلا : لعله من أهل الخصوصية الإلهية ، وستره الله تعالى بفضله ، فإنى أعتقد أن القضاء لا يمنع الإعطاء من فضل الله تعالى ، فأعظمه فى قلبى ، وأخافه فى نفسى ، تعظيما لسر الله الذى ورد على قلبى ، لأن الله تعالى لا يعطى فضله لعلة عمل ، ونصحتُه بلسانى حُبًّا له ، وتعظيما للشرع ، فأكون معظما الله تعالى فى الحالتين .

إخوانى ، اتقوا الله فى عباده ، وعليكم أنفسكم ، فاجلوا مرآة قلوبكم بعمل القلوب ، واشتغلوا بذنوبكم ، فإنكم محاسبون عليها لا على ذنوب غيركم ، وارحموا عباد الله تعالى ، ذكروهم بالحسنى ، عظوهم باللين ، أعينوهم بفضل أموالكم وجميل كلامكم ، وأحبوا لهم ما أحببتم لأنفسكم ، والله ولى المؤمنين ، وصلى الله على سيدنا محمد الرءوف الرحيم وعلى آله وصحبه وسلم .

كيف الوصول ؟

الوصول بحفظ الأصول :

تحقق أن الأعمال البدنية لم يقم بها العبد عبثا ، بل بوازع قلبى ، وهمة دعته للقيام بها ، والهمة التى توجه كُمَّلَ الرجال لغايتها من التربية ،والإشارة هى الهمة فى تطهير قلب السالك من الحظوظ التى تخالط العزيمة الباعثة على العمل ، فإن الأعمال البدنية نتائج تلك المقاصد القلبية ، ولا يكون لله منه إلاَّ ما كان خالصا لوجهه ، لأنه سبحانه علىٌّ عظيمٌ غنىٌّ قادرٌ، لا يحتاج إلى عمل الأبدان ولا عمل القلوب ، ولكنه يحب من عبده الإخلاص لذاته سبحانه ، لأنه هو الذى منح العبد كل خير، وأمده بكل نعمة ، فالإخلاص لذاته سبحانه يكون كشكرٍ للمنعم الحقيقى ، وامتزاج الأعمال البدنية بتلك الحظوظ والأهواء من الرياء ؛ وحب الشهرة ؛ وحب مدح الخلق ؛ ونوال العرض الفانى ؛ وأن يقول الناس : فلان مجاهد ؛ أو : حاج ؛ أو:صالح ؛أو : عالم ؛يعدكشكرٍ لغير المنعم ، وعمل غير خالص للمقصود به ، فَيُحْرَمُ العامل بسبب نيته هذه رضا المنعم الحقيقى ، وربما عوقب فى الدنيا ولم ينفعه عمله ، لأنه صدر عن عزم لغير الله تعالى ، ونيته فى غير وجهه الكريم .

مع أن هذا العامل لو ذاق حلاوة الإيمان ، وتحقق كمال التحقق بما يناله ـ لأخلص لهذا الرب الكريم ـ من إسباغ النعم ، وتوالى المنن ، والرضوان الأكبر، والفوز فى الدنيا والآخرة ، ولبخل بنفَس يتنفسه لغير الله ، ولعد نفسه مشركا عندما يحدث أمراً من صغير الأمور وكبيرها بغير نية صادقة ، ووجهة صادقة لوجه الله تعالى ، فكيف يكون حال عامل يعمل بنيته لغير الله تعالى من نوايا الحظوظ والشهوات الخفية؟ أترك هذا الحكم للبصير المتدبر فالسالك طالب الوصول والقرب من الله تعالى لا يتنفس نفساً ، ولا يتحرك حركة إلا وله نية صادقة فى الله تعالى ، حتى يكون حَاضراً معه سبحانه ، لا يغيب جسداً ولا عزماً ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم . «أكثرُ شهداءُ أمتيِ أصحابُ الفُرُشِ ، ورُبَّ قتيل بين الصفين لا أَجْرَ لَهُ ، لأنه قاتَل لا لإعلاءِ كلمةِ الله تعالى ، بل لِيُقالَ ، أو لِيَغْتَنِمَ ».

فتدبر أيها السالك ، واحفظ أنفاسك ولحظاتك وأعمالك ، وكن حاضر القلب مع الله تعالى مخلصاً فى النية فإنها أصل الأصول ، ومتى سلم الأصل قبل الفرع وسلم . والله

سبحانه وتعالى يمنحنا القبول والإقبال ، ويحسن سريرتنا ، ويجمل حالنا ، ويحسن مآلنا ، أنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مشاهد الروح :

الروح مشهدها الملكوت ، فإذا صفت فشهدها حضرة العزة ، فإذا تجملت بنفخة القدس فشهدها الجبروت ، ولكل مشهد أنوار وأسرار وأحوال . والقلب بيت التجلى وعرش المتجلى . والنفس إذا زكت أشرفت على غيب التنزلات ، وكوشفت بالمنازلات . والإنسان الكامل سره مشرق بأنوار الإطلاق ، وعلنه مستنير بنور الحصون من سر (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ) (١) .

إنما يقوم الدين باليقين :

الإنسان وما أدراك ما الإنسان ، هو ذلك الحيوان الناطق المفكر ، فبحيوانيته المطلقة يلتحق بكل نوع من الحيوانات جبنا وافتراسا وإقداما وانقياداً . وإنما تؤثر عليه بواعث النفس المكتسبة من مشاهدات الحوادث ، وأخبارها المتبادرة على سمعه تارة بحقيقة وآونة بخديعة ، حتى يحصل له من مؤثرات تلك الأسباب والاتصاف بالنوع المناسب لها ، إقدام أو إحجام . هذا هو الإنسان .

فإذا أشرق على قلبه نور اليقين الحق ، وباشر سره وأثر فيه حسن الاعتقاد الجازم بأن الكون له مكون مدبر قادر مريد فاعل مختار ، وأنه هو النافع الضار القوى المتين ، وتحقق أنه عبد لهذا السيد الكبير المتعال ، مكلف بأن يقوم بما أوجبه عليه ابتغاء مرضاته ونوال الحظوة لديه ، انبعث فيه روح الإقدام ، واثقا بنوال النجاح ، مطيعا فى تأدية ما كلفه به سبحانه وتعالى ، إما بالنجاح فى الدنيا والآخرة ، أو بالنجاح فى الآخرة ، وهو المقصد الذى تتشوق إليه أرواح أولى العزم من الكُمَّل ، المتيقنين أن الدار الدنيا لا بقاء لها ، وأن الآخرة دار القرار ، وبهذا اليقين الحق يقوم المسلم ناصراً لله سبحانه وتعالى ، مدافعا عن حقوق دينه وإخوانه ووطنه ، مدافعة بلا حظ فيها القيام لله تعالى من دون حرص على حظ ، ولا أمل

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

فاصر على عاجل ، وغير متيقن كمال نجاحه فى أمر الدنيا ، بل يفعل ذلك قياماً بالواجب للحق سبحانه ، وإرضاء له جلت قدرته ، والأمر مفوض لجنابه الأعظم (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ)(١) .

كل ذلك نتائج اليقين ، على أنَّا لو ثبت اليقين فى قلوبنا ، وكمل الإخلاص عندنا ، وقنا على هذا الوجه محافظين على كل ما يلزم له من تطرق دسائس الشيطان ، وخفايا الحظ والهوى ، لحكمنا أن الله سبحانه منجز ما وعد « إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ » (٢) . « إن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (٣) ولكن داعية النصر متوقفة على أن يكون العزم والقصد نصرة الله تعالى ، وإحياء دينه فى أنفسنا وفى غيرنا ، حتى تطمئن قلوبنا بما وعدنا ربنا سبحانه وتعالى .

فعلى كل فرد تنورت بنور الإيمان بصيرته ، وباشر اليقين الحق قلبه أن يجاهد نفسه لتُذَلّ وتنقاد ، موقنة بأن الله سبحانه قادر على كل شيء ينصر من يشاء ، ويؤيد من يشاء ، بجماعة وغير جماعة (وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِن عِندِ ٱللَّهِ) (٤) .

الجهاد الموصل :

تَعَلُّقُ النفس بعالم الكون بحسب فطرتها العنصرية ، لأن الأجسام أصلها من صلصال من حمإٍ مسنون ، وقد ركبت بحكمة بديعة اقتضى تركيبها امتزاج الأخلاط المتنافرة بنسبة تحفظ كيان الجسد لزمن ما ، بحيث لا يكمل نعيمه فى هذا الكون إلاَّ بحفظ تلك النسبة ، وتعادل الأخلاط ، فينشأ عن كل نوع خلق خاص ، ينبعث عن خواصه اللازمة له بحسب التركيب ، فقد يحيط بالنفس عدة تأثيرات منبعثة عن تلك الأخلاط ، فتكون بحسب قوة الداعى ، ويصدر عن النفس أقواها ولذلك كان الإنسان فى كل أفراده لا يمكن أن يجتمع اثنان على مبدأ واحد من كل جهاته ، وإن اتحدت الأعمال بحسب المقتضيات ، فقد يعمل الإنسان العمل مكرها وهو ينوى غيره ، أو يمهد به لغيره ، ولا تكاد ترى القوى الباطنة إلاَّ مفكرة فى أمور تغاير أعمال الأبدان ، سواء كان ذلك فى عمل الأبدان أو راحتها . فالقوى

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ٩ .

(٣) سورة محمد آية ٧ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٢٦ .

الباطنة دائمة الدأب فى كل أفراد الإنسان ، ولكن تتفاوت المقاصد وتختلف المطالب ، حكمة بالغة ، وأسرار خفية .

فمن أفراد الإنسان من يقهره عامل فكره ، فينجز كل باعث انبعث عن نفسه ، ويظهر كل هم هجس بضميره ، غير متدبر ولا متفكر فى عواقبه ، لأنه جاش بخلده وحسّنَه له الخيال أو الوهم ، بعدة بواعث فى حظ أو لذة أو أمل أو طمع فى خلود ، أو حب سيادة وشهرة وسمعة ، أو مناظرة لنظير ، أو حسد لقرين ، فيعمل العمل بإقدام بلا روية ولا اعتبار بالحوادث ، بل يُهَوِّنُ عليه كلَّ صعب حظُّه الخفى ، وهواه المتبع ، حتى تنكبه الكوارث ، وتنوبه الخطوب ، فيحدث عنده ألم الندم على الإقدام ، ويتمنى أنه لم يفعل ، و يفتح عليه باب (لو) آمالا وأوهاماً ، تجعله فى حضيض الغفلة .

هذا شأن الإنسان وتعلقه بالعمل ، فإذا كانت القوى الباطنة قابلة للعبرة والذكرى ؛ درست من تلك الحوادث فى نفسها أو غيرها درس الأخلاق التى بها تحسن عيشتها فى تلك الحياة الدنيا ، ووقفت عن الإقدام حتى يتبين الرشد من الغى .

وإذا أُهِّلت النفس للتزكية واستعدت للصفا تكون فى النفس قوى حاكمة قابلة للفكر وسماع الموعظة ، فحاكمت كل هم انبعث عن تلك العناصر المختلفة إلى الحق ، وغالبت تلك الهمم الداعية ، حتى تقهر الشهوات ، وتتوسط فى المجاملة بالبحث عن أحوال السابقين ، وأعمال المقربين ، وتقابل أعمال أهل الغى التى توجب النفور ، وتثير نيران البلايا النفسانية ، بحكمة وتودد وتثبت ، فما رأته لا يضر فى الدين ولا فى البدن صبرت عليه أو رضيت به ، بحسب مكانتها من تلقى القدر . وما رأته يضر بالدين أو بالبدن وأمكنها زواله بطريق يرضى الله ورسوله استعانت بحول الله وقوته على دفعه بالحيلة ، أو العمل ، أو بمحو موجبه من نفسها ـــ إن كان له موجب ـــ وما لا قبل لها به ابتهلت إلى الله سبحانه فى صرفه ، متفكرة فى الحيلة التى تدفعه عنها .

وعلى ذلك ، فعلى المجاهد أن يعد القوة والحصون ، التى يدفع بها النازلة من العدو ، ويقى بها نفسه ، ومن القوة عمل كل حيلة ، وإعداد كل مساعد ، وهذا من الإيمان ، وليس عليه أن يهمل العَدَدَ والعُدَدَ ويتسالم تسالم الجماد أو النبات ، لأن الله أودع فى كل رتبة من رتب الوجود قوى إلهية تحفظه وتعينه ، وبهذا يكون الجهاد موصلا ، وهو مبدأ الجهاد الأكبر .

عمل لا قول :

نعم ، ثبت بالشرع الشريف أن الأعمال نتائج العلم ، والعلم نتائج العقيدة ، والعقيدة نتائج السابقية ، وينتج عن كل ذلك « الأحوال » والأحوال نتائج الملاحظة ، والملاحظة نتائج الحضور ، والحضور نتائج الذكر ، والذكر نتائج الحب ، وليس لقلب ذاق حلاوة الحب أن يلتفت لقول يصرف به الوقت لشدة محافظته على العمل النافع الذى يقربه لنوال منزلة لدى الحق سبحانه ، والفوز بالنعيم المقيم ، فى دار كرامة نعيم الفردوس الدائم الذى لا ينفد ، ولذة الشهود الباقى التى لا تزول ، وهو مراد أهل النفوس العالية ، التى باشر اليقين الحق قلوبهم ، وتحققوا من زوال هذه الدار الدنيا ، وزوال ما فيها ، وعلموا أن ما فيها من النعيم لا ينال إلاَّ بالهمِّ أو بالسفاهة أو بمضرة الغير ـــ مع زواله ـــ فانقطعوا عنها بما تحققوا من بقائه سرمديا ، ونواله فضلاً وكرماً بدون طلب للعباد ، ولا تحمل مشاق ، ولا رضا بذل ومسكنة .

نصر الله الحقيقى :

قال تعالى : « إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (١) . المجاهد الذى يتحقق النصر من الله تعالى ، ويتيقن بأن الله سبحانه وتعالى يثبت قدم مجاهد جاهد نفسه الحيوانية عن ميلها الشهوانى والعدوانى ، وحفظها من الطمع والشهوة ، والنفس الإبليسية من الاتصاف بالصفات الخبيثة من الكبر والحقد والغرور والفخر والزهو والعلو فى الأرض والأثرة والمزاحمة ، ونفسه الإنسانية من الأمل والحرص والمنافسة وحب الذات ، حتى يطهر من جميع الدسائس الحاجبة للروح عن التحلى بمقام الإخلاص والصدق ، وفهم خفايا النفوس ، وكشف أسرار النوايا والمقاصد ، حتى يكون على يقين حق من علم خفيات الحظوظ والأهواء ، ودسائس النفوس .

فإذا قام مجاهداً علم كيف يقوى ، وتبين له طريق الرشد فى سيره وعزمه ، وصح توجهه إلى مولاه ، وصدقه فى قصده ، ولدى ظهور سبيل الخير ووضوح منار الحق ، يتحقق بالنصر والظفر من الله تعالى ، ويكون كالقلب للعالم الإسلامى ، لأن نيته وقصده وإخلاصه يعم الجميع ، فينظر الله سبحانه إليهم من قلبه ، فيكون الجميع كقلب واحد فى النية والوجهة .

---

(١) سورة محمد آية ٧ .

وإذا تحقق نصر الله لعبد نصر، ولو قابلته الجن والإنس بكل قوة وعدة، لأن الأسباب الكونية والعادات العقلية والعدد القوية منمحقة فى جانب قدرة مَن « أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » (١) وهو سبحانه ما وعد بالنصر من قام ينصر نفسه، أو يدافع عن ملكه، أو يظهر عظمة، أو ينتقم من عدوه، لأنه سبحانه لا ينظر إلاّ إلى القلب وهمه ووجهته، ولا يتمكن عبدٌ من العباد أن يتحلى بحلة الصدق والإخلاص وحسن القصد قبل أن يجاهد نفسه.

فعلينا ــ إذا أردنا يقينا أن ينصرنا الله سبحانه وتعالى (وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِن عِندِ ٱللَّهِ)(٢) سبحانه ــ أن نعتمد على جنابه العظيم، ونستعين بقدرته وقوته ومعونته وتوفيقه فى مجاهدة أنفسنا، وتطهير أخلاقنا.

ومتى تحلينا بجميع الأخلاق فى ذاتنا أولاً، غير ناظرين إلى شيء آخر ائتلفت قلوبنا وحسنت سريرتنا، وتعين علينا بعد ذلك الجهاد الاصفر، فنا متيقنين بالنصر الحقيقى أو بالخلود فى دار الفردوس. وإذا بقى أحدٌ بقى ناشراً للسنة، عاملاً بالدين، منفذاً لأحكام الله تعالى، وهى سعادة الدارين، وهذا هو النصر الحقيقى، ولو صدقنا فيه لأعزنا الله سبحانه وأذل الكافرين كما أعزّ حزبه وجنده، وهو الحى القادر الفاعل المختار.

(١) سورة يس آية ٨٢.

(٢) سورة آل عمران آية ١٢٦.

السعـــادة

تفاوت حقيقة السعادة :

تتفاوت حقيقة السعادة بالنسبة للنفوس واستعدادها ، وإن كانت النفوس لا تقنع بالعاجل فى كل مراتبها ، لأن الحظ لا يكون حقيقيا إلاَّ إذا تعسر نواله ، وبالاستحواذ عليه تنبسط له النفس برهة ، ثم تشتاق إلى غيره مما يتولد من حظوظها ، لأن النفس ليست من الماديات المركبة ، ولكنها مجردة تميل إلى العوالم الروحانية ، وإنما يدعوها إلى الرغبة فى الحظوظ الكونية حكمُ الجسم عليها ، وميله لما به سروره بنوال مشتهياته ، ولذلك فإنك ترى كل حى يزهد فيما يملك ، ومعنى أنه يزهد فيه : أن تشتد رغبته إلى غيره وإن حرص عليه ، وما ذلك إلاَّ لأن النفس لا تقنع بما يملك . وقد يبذل ما كان يتشوق إليه بعد ملكه لنوال غيره ، إذ لا تنال شهوة إلاَّ ببذل ما يُشتهى ، وكل ما يُبذل لا يكون حظا ولا مرغوبا فيه ،

وعلى هذا فلا يمكن لمتدبر أن يحكم على السعادة بأنها كذا ، لأنك ترى ما يراه الفرد سعادة فى آن ، يبذله بسهولة لنوال مايراه سعادة فى آن آخر ، وما من حظ من الحظوظ يناله حَتّى إلاَّ سلب حظا آخر من حظوظه ، أوسلب حظوظ غيره ، وهذه من الضروريات للمشاهدة .

وبقى علينا أن نشرح السعادة على أهل المعرفة ، وإن كان السير فى نوالها لا يكون إلاَّ كالسير فى نوال الحظوظ .

السعادة الحقيقية :

هى نوال خير لا يعقبه شر ، وقد يتفاوت هذا الخير بحسب سير الطالب ، لأن السعادة الحقيقية فى عينه تكون بحسب منزلته من علمه بربه ، فقد تكون الخير ، أو الأعمال الخيرية . أما حقيقة السعادة عند الواصل فهى أن يبذل كل حظوظه وشهواته فى نوال رضا ربه ، متبعا سنة السيد المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى يتحقق بعلم نفسه بالنسبة لخالقه سبحانه ، ولديها يكون عبدا صادقا عالما بربه ، مشاهداً لجلاله وجماله ، قائما بما يجب على العبد بالنسبة للسيد ، مِنَ التحقق بأنه به سبحانه وإليه جل جلاله ، وأنه معه تعالى ، وبهذا ينال حقيقة السعادة ، ويفوز بالفردوس الأعلى .

وفـي هـذه الدار لا يتيقن حقيقة السعادة ، فسهل عليه أن يفارق طبعه وهواه وحظه ، بل جمل فـي عينه ما يخالف مراده من الآلام والأسقام والفقر والجوع والعرى والبلاء ، لأن الحظ الحـقـيـقـى لا ينال إلا ببـــذل الحظوظ النفسانية كما تقدم فى حظوظ الكون ، وكان المتحقق بـالـسـعـادة الحقيقية متمتعا بها ، لتيقنه من إدراكها وتحسين ذلك فى قلبه : « صَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيـمَـانَ وَزَ يَّـنَـهُ فِـى قُلُوبِكُمْ) (١) والله سبحانه يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

الأسرار الخفية:

إذا انـكـشـف لـلـمـطـلـوب ستائر حجبه ، فلحظ بنور فكرته غيب : « وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَ مَا كُنتُمْ » (٢) أشرقت شمس المعانى القدسية ، على أرجاء تلك المعانى الحسية ، ونطقت تلك الآثـار ، مـعـبرة بلسان حالها ، عما فيها من درر جمالها ، فيتلذذ ذلك المطلوب بنور سمعه بتلك الـنـغـمـات الجـلـيـة ، ويتنعم ببصره بشهود تلك الآيات العلية ، وترفع ستائر ناسوته ، وتقوى لطيفة لاهوته ، حتى تنجلى زجاجة هيكله ، وتنفذ أنوار أشعة ما فيه من زيت « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى » (٣) فيقوى عامل الاستحضار ، بانبلاج صبح الأنوار ، وإسفار شمس الأسرار ، وطُـلـوع أنهـار الـتـجـلـيات ، واندكاك طور الكائنات ، فتظهر وجه المظاهر منبئة عن غيبها ، ومـادة الـكـون ممحوقة ببروق كوكب درر مكونها ، ثم تغشى تلك السدرة العلية ، بسبحات الكمـالات الـواحـديـة ، فـتـنـسلب سحب الشهود الاستحضارى ، والقرب الاعتبارى ، بمحو الـغين من الـبين وانمحاق البين عن العين ، فتنفذ أشعة أنوار الشمس العلية ، على كل وجه آيـات الـتـجـلـيـات الـصـفـاتية ، فيسطع النور على النور ، وهو عندها نور على نور ، وما ثمَّ إلاَّ الـوجـه تـلألأت أنواره ، وأشرقت شمسه على أفق تطهر مِن سواه ، فأضاء بغير ظل لمن يراه ، بواد يتحقق مَنْ به بمقام : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ » (٤) .

---

(١) سورة الحجرات آية ٧ .

(٢) سورة الحديد آية ٤ .

(٣) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٤) سورة البقرة آية ١١٥ .

الإشراف على الملأ الأعلى :

الإشراف على الملأ الأعلى ، والتمتع بشهود آياته الظاهرة بلا حجب تمنع عن التحقق بجمالاتها ، يكون بعين نظرت بحدقة قلب تمكن اليقين الحق منه ، و باشرسو يداءه حتى كشفت له الآيات في تلك الكائنات ، وعلم أسرارها الظاهرة ، وأنوارها المنبئة عن مكنون ما فيها من سر القيوم ، وآيات الودود ، ثم لاحت له أسرار مافيه من الآيات المعلنة بحقيقته ، و بذلك يتمكن مِنْ علم مَنْ هو عين اليقين ويذوق بعلمه شراب اليقين الحق ، بمشهد ما ظهر في الملكوت الأعلى في عالمه ونفسه ولديها تتشوق الروح إلى الإطلاع على الأسرار الحقية في كل العوالم ، مشتاقة بما هي عليه من الفطرة النورانية و الاستعداد الملكوتى ، إلى ذلك المشهد الأعلى ، وكلما لمحت لمحة قرب بساعة صفو ، جذبتها العناصر الحيوانية فيها بحكم الهيكل إلى رتبة القيد ، ومقام التنزيه ، فإذا كانت لوامح وُدِّ السابقية وسوانح يَدِ العناية متوالية ، قوى داعى الروح فشغل الجسد عن لوازمه ودواعيه ، فيطمئن القلب بنفثات القدس ، وتنبعث أنوار اليقين ، والطمأنينة على الجوارح ، فينقاد لسبيل الرشاد ، ويسلك طريق الهدى ، ويزداد وارد اللطائف على القلب ، فيتجرد من داعيات الهوى والشح والرأى ، و بصلاحه يصلح جميع الجسد . ولديها يشرف السالك على الملكوت الأعلى ، بعد أن حُفِظَت جميع جوارحه وقلبه ، بحفظ الوليّ الذى تولاه ، فيخرجه من ظلمات كل رتبة إلى نور الإطلاق والمشاهدة ، ويكون عبداً مراداً للقرب ، مطلوباً للرب .

أما من لم تسبق له العناية ، ولم تدركه يد المعونة ، فإنه كلما لمعت عليه لا معة نور قدس من مقتضى ظهوره بحال فقر ، أوحادث ألجأه إلى الله تعالى ، ومالت إليه نفسه ، وهمَّ أن يتحلى بحلل الأخلاق الطاهرة ، ويسارع إلى نيل مراتب القرب ، أخلده هواه إلى أرض طبعه وقعد به حظه إلى سافل فطرته ، فنفر إلى اتباع هواه ، وزين له الركون إلى زهرة العاجلة ، ونوال السعادة فيها ، فلا يمكنه حتى يعاوده المقتضى ، فيرجع إلى وارد الحق ، ويندم على ركونه إلى غيره ، وهكذا لا يزال بين مطمئن للدنيا وزينتها ، مادام الجد مقبلا ، وإذا اعتراه ما هو فوق قوته مما لا حول له على دفعه إلاَّ بالله ، مال إلى الله ميل الراغبين فى

سَد خلته ، وقضاء مصلحته ، فإذا نال قصده رجع على عقبيه ، وذلك لأنه لم يشم طيب الإيمان ، ولم يذق حلاوة اليقين (دَعَوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ) (١) .

فالعبد الصادق : مَن الحق مراده ، وافق هواه أوخالف مراده .

(١) سورة يونس أية ٢٢ .

الفصل الثانى

الدعوة والدعاة

أنواع الدعاة إلى الله تعالى

أولا : المرشد الكامل

الحق تنزه ، إنما تظهر تجلياته للأرواح التى صفت أجسامها عن التعلق بالأغيار ، وهو سبحانه قد ظهر لها مظهراً مطلقاً عن التقييدات ، باسم له الحيطة على جميع آثار الأسماء وصفاتها فى مقام (أَلَسْتُ) (١) ، ثم قيد هذا المظهر المطلق بما تجملت به حضرة العوالم الناسوتية ، من معانى ما أفاضه عليها ، فمالت الأرواح المجردة إلى شهود ما تجلى لها فى هذا المشهد العام المطلق ، وعند هبوطها من أوج الرفعة إلى حضيض السجن الآدمى ، عرجت بالميل الشديد إلى هذا الجمال ، فتقيدت بما مال إليه هذا السجن وهيأه لها ، وأيقنت أن هذا هو عين ما شهدت ، وغفلت عن عهود الارتباطات المظهرية التى أخذت عليها منها عند التلذذ بسماع الحقيقة السرية ينادى : « أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ » (٢) .

ولما أن تجلى الحق سبحانه بصفات الجمال الإلَهى ، الذى نشأ عن دائرة : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » (٣) نبه تلك الأرواح تنبيهاً مقيداً بنداء : « وَرَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِى » (٤) برمز خفىٍّ فى الظاهر ، مكشوف بالباطن ، تسطع أنواره على الأرواح ، فتكاد من شدة الميل إلى هذا المشهد أن تمزق هذا السجن ، ولما كان ولابد لشهود الحقائق المجلوة عن الذات المقدسة بتجليات الأسماء والصفات فى آثارها ، كان للناسوت سر يتوقف عليه الكمال الكونى ، ليثبت ما تقرر فى الذكر الحكيم : «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » (٥)مفسراً بما وضح من : « كُنتُ كَنزاً مَخْفِياً فَأَحْبَبْتُ أَن أُعْرَفَ فخلقتُ

(١ ، ٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ . (٣) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

(٤) أورد السيوطى هذا الحديث بلفظ (سبقت رحمتى غضبى) .

(٥) سورة الذاريات آية ٥٦ .

الخلقَ فِبِى عَرَفُونى » تنزل جلّ جلاله تنزلاً حنانياً ودادياً ، فجمل أولى العزم بكشف ما تجمل به هذا النوع الكامل فى الجنس لدى حضرة المجلى الذاتى ، فمَلّك جميع عوالم ناسوتهم لعالم لاهوتهم ، فأداروا تلك العوالم الناسوتية ، على طبق ما تعلقت به حضرة تجليات الأسماء والصفات عن الحكم السرية ، ليرى و يسمع و يذوق ويحس من مال عن تذكر حضرة سماع الخطاب فى مقام : (أَلَسْتُ) وتظهر تلك الأوصاف الجمالية والأنوار الملكوتية عن الميل إلى غير ما هى له ، فتتحول تلك الأوصاف عن نسبتها إلى القائمة به ، وتثبت للمفاضة منه ، ولديها تحن الروح وتتشوق إلى أصلها وتميل إلى تلقى الأسرار بشوق شديد ، وعزم أكيد ، فيكشف هذا الكامل عند شروق شمس تقوى اللاهوتية على الميول الناسوتية بما مالت إليه ، و يبث الحقائق و يزيل الحجب .

ولذلك فإنه لم يأت نبى ولم يبعث رسول إلاَّ و يبتدىء دعوته بتطهير القوى الناسوتية من الخصال الوحشية ، وأخلاق البهائم ، و بعد ذلك يفك طلاسم الأقفال عن شموس الحقائق ، وهذا هو السر الذى تنتظم به الكون . ولما كانت الأنوار المحمدية قَبْلاً وَ بَعْداً نَسخت كُلَّ شريعة بارتفاع مشرعها ، لأنهم نواب عن حضرته ، منتظرون لظهور أنواره ، ولو ثبتت شرائعهم لم تتحقق النيابة المطلقة ، ولم يظهر سر: « فَقَبَضْتُ قبضةً مِن نُورى » ولا انجلت دقائق العهود المأخوذة على المرشدين قبل تلون الذات عندما عاهدهم : « وإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ » (١) .

ومثبوت أن النيابة قبل ظهور شمس عوالم ناسوت هذا الأصل الأعظم ، يلزم أن تكون بنور الوحى الإلهى ، كلٌّ بحسب ما اغترفه من هذاالبحر النورانى ، وما شربه من هذا الشراب المحمدى ، فكان الأمر كذلك بالوحى ، ولما أن تجلت شموس المسرات على جميع العوالم بأسرها بظهور هذا الناسوت ، أفيضت الكمالات الإلهية على جميع عوالم المادة من رحيق : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (٢) ومكثت تلك الأنوار تلمع من هذا الأفق

---

(١) سورة ال عمران آية ٨١ .
(٢) سورة آل عمران آية ١١٠ .

العظيم ، والأسرار تفاض من هذا البحر العميم ، على النجائب الروحانية ، المعززة بالفتح المحمدى ، المحفوظة بالإلهام الإلهى ، على قلوب نواب حضرته ، فكانوا فى الحقيقة كنوابه السابقين بحقيقة (العلماء ورثة الأنبياء) (١) .

ولما كانت الدعوة به كان المرشد الكامل النائب عنه بعده ثابت القدم فى دائرة : « مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ » (٢) مرفوع الرتبة بحكم الوراثة الأكملية ، فلا يكون المرشد كاملاً إلاَّ بعد تحققه بهذه الوراثة ، وهذا هو سر الدعوة إلى الله تعالى ، فافهم وتأمل ، والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ثانيا : الإمام الذى يهدى بأمر الله

فرد زكت نفسه ، وتطهرت من صفات الحيوانات وأخلاق الشياطين نعوته ، حتى تحقق حق اليقين بعلم مراتب الوجود ، ومكانة كل مرتبة ، وكيف تتصل بما فوقها من المراتب العالية ، وكيف تتخلى عما هو من سجيتها من دنيء الحظ ، وغلاف الهوى ، وسجن الغفلة .

وتجلى عليه الحق سبحانه بوسعة الرحمة ، وجمله بلسان الحكمة ، وورثه فضلا منه صفات الدعوة المحمدية ، حتى يتمكن من اليقين والصبر على تحمل أعباء الدعوة ومخالقة الناس على قدر عقولهم ، والسكون إلى الله فى كل أحواله ، والفرح بالله تعالى عند إقبال عباده عليه وحزن الرحمة عليهم مع الدعاء الصالح لمن أقبل والبشرى له ، والدعاء بالهداية للمستهدين ، والعطف عليهم ، والدعاء على المنافقين اقتداء بالعمل المحمدى ، مع الصبر على تحمل أذاهم ، وانتظار المعونة والنصر من الله تعالى ، ولزوم السكينة والدعوة إلى الله تعالى ، حتى

---

(١) هذا جزء من حديث أورده السيوطى وتمامه : (العلماء ورثة الأنبياء تحبهم أهل السماء ، وتستغفر لهم الحيتان فى البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة) رواه ابن النجار عن أنس . الجامع الصغير جـ٢ ص١٥٣ ، ورواه أحمد عن أبى الدرداء مرفوعاً بلفظ : (العلماء ورثة الانبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولادرهما إنما ورثوا العلم) .

(٢) سورة الفتح آية ٢٩ .

ينظر الله تعالى إليه نظر الولاية ، فيراه صابراً مجاهداً ، فيجعله إماماً يهدى بأمره . وهو الإمام الهادى بأمر الله ، المبشر بالنجاة من الله تعالى والنصرة .

وقد يحصل للداعى من خروج الخلق حزن يؤدى إلى شك ، فيورثه انزعاجاً وعدم صبر ، لولا أن يثبته الله تعالى ، فيتحقق أن الظالمين ماكذبوه ، ولكن كذبوا آيات الله ، فيطمئن قلبه .

وقد يحصل للداعى بإقبال الخلق عليه بعض سكون إليهم ، فيؤدبه الله بما يشاء حتى يرجع إليه سبحانه . وهكذا كل داع بأمر الله لا يسلم من أهل الغرور والمنافقين ، فعليه بالصبر والعزيمة والإخلاص لله رب العالمين ، والإقبال عليه بكليته ، والاجتهاد فى نوال مرضاته ، رضى الخلق أم سخطوا ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ثالثا : الداعون إلى الخير

العالم الإنسانى محوط بالحظوظ ، ممزوج بالهوى ، مركب فى عنصره صفات الحيوانات بحسب أنواعها ، ونعوت الشياطين بنسبة تباينها ، وكل تلك المعانى محسوسة لهذا النوع حسًّا ظاهراً مشهوداً ، لا يغيب عن أعضائه المؤثرة على قلبه نَفَسا ولا أقل ولا أكثر فى كل أدوار حياته ، فى نومه ، أويقظته ، أوشبابه ، أوهرمه . والمعانى المطلوبة منه غيب عنه ، ليس فى أعضائه الإنسانية موصل لها إلاَّ ما كان عن سكون قلب ، أويقين يباشره فينبهه إلى الحسن والقبيح عاجلا وآجلا ، ولا يدوم هذا الباعث الإلهى إلاَّ ريثما يشعر بأعضائه بما يحول هذا القلب عما أشرق فيه من نور معانى اليقين .

ولما كان الداعى إلى العاجلة من فطرة الإنسان ، ومن قوام بدنه ، وكان الكل كذلك ، فلا تكاد تجد ذا بصيرة أشرقت بنور اليقين ؛ وسريرة استنارت بمشاهدة آيات رب العالمين ؛ إلاَّ وهو غريب بين اهله وجيرانه ، ومنظور بعين الاحتقار من أهل عصره ، حتى قد يقوى عامل العتو على هؤلاء فيرمونه بالأذية والمحاربة ، فإن كان معانا من لدى المعطى الوهاب ؛ مطلوبا لهذا ؛ لا يزداد إلاَّ يقينا وتثبيتاً ، وجهاداً له على تحمل الأذية ، والدفع بالتى هى أحسن من المداراة والحكمة ، والعفو عمن ظلمه ، والدعاء لهم بالهداية ، ولديها ينصره العلى

الكبير، ويرفع شأنه ، ويعلى قدره ، ويذل له أهل الجهالة الحمقى ؛ ذلا يكون به إحياء الحق وإماتة الباطل ، وهكذا شأنهم .

ومن لم يكن معانا استوحش من حاله ، وساءه عمل الناس ، ومل الدعوة ، ورجع عنها مما ناله من أذية الناس ، والله سبحانه لا يضيع عمله ، ولا يحرمه أجره .

فالدعاة إلى الخير إذا تحققوا علما بما عليه أنواع الخلق ؛ وما فطروا عليه ، وماأريد بهم ، علموا كيف يدعون . لأن الداعى لا يدعو ليهتدى جميع الخلق ، إنما يدعو ليظهر الحق فيتبعه أهله ، وينكره أعداؤه ، فتكون السعادة لمن اهتدى ، والشقاوة لمن اعتدى ، وهذه سنة الله فى خلقه . ولكن يلزمه أن يضع الدعوة فى مواضعها لكل فرد بما يناسبه من أنواع العلوم والدعوة ، حتى لا يكون سببا فى تفرقة كلمة الناس ، وتنفيرهم عن الحق ، وميلهم إلى الباطل . فإذا دعا إلى الله سبحانه بهذه الحالة ؛ كان قد قام بالواجب ، وأدى ما أمر به ، وما عليه ممن أقبل ولا مما أنكر ؟ لأنه إنما يدعو ليرضى الله تعالى ، وحيث اطمأن قلبه بالله تعالى سكن إليه تعالى ، وإن كانت الدعوة تستوجب حزن الداعى إذا لم ير إقبالا من أهلها عليه ، ولكن هذا الحزن — إذا تذكر أنه أدى الأمر على وجهه المشروع — يزول عنه غمه ، وينشرح صدره بالنصرة و بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، والله ولىُّ المتقين .

من واجبات الدعاة إلى الخير :

إن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف منهج تميل إليه كل النفوس بدون استثناء ، سواء كانت من النفوس الطاهرة أو غيرها ، لأنه مقام من مقامات العزة ، ومنزل من منازل العلو ، حتى قد يكون الإنسان مرتكبا قبائح الكبائر وهو يدعو إلى الخير مع تلبسه بالمعصية ، غافلا عن الواجب عليه لنفسه ، قبل أن يقوم لغيره .

ولذلك فإن سبيل الحق خفيت معالمه ، وكادت أن تندثر آثاره ، لأن الداعين إما علماء بمبادئ الشريعة يجهلون مراتب النفوس ، وما به السير فى طريق الحق . أو جهلاء بالمبادئ الشرعية ، انبثت فيهم روح الأعمال بدون تمكن من علم الأصول الدينية ، وعند اشتغالهم بالقربات تلوح عليهم حال تشهدهم أن جميع من سواهم فى درجة منحطة ، فيحصل بين

الطائفتين نزاع ينتج الانتقاد من أهل البطالة ، والزهو والغرور من أهل الأعمال ، وتحصل التفرقة بينهم والشقاق .

ولو تأمل الداعى فيما يجب عليه لدعا نفسه ، ولو تأمل المدعو وتفكر، لأعان أخاه على الحق ، وساعده على البر، فيلزم أن يكون الدعاة إلى الله تعالى ممن زكت نفوسهم ، وتطهرت أخلاقهم ، وتحلوا بحلل التمسك بالشرع الشريف ، حتى لا يخالفوا فى كبيرة ولا صغيرة عن قصد وعزم ، وإذا حصل منهم ما يخالف وجب عليهم التوبة ، إمَّا علنا أو سرًّا ـــ بحسب ارتكاب الذنب ـــ لئلا تقتدى بهم العامة .

أما أهل الوجد أو الحال المحرق الذين فى فناء عن أنفسهم ، الصادقين فى وجدهم المخلصين فى وجهتهم ، الذين لهم شهود للعالم الأعلى ، إذا لم يكن لهم من حصون الشريعة ما يحفظهم من كشف أسرار الغيب أمام غير أهلها فليسوا دعاة للحق ، حتى يرجعوا إلى البقاء بعد الفناء ، والأولى لهم العزلة عن الخلق ، لئلا يكون اجتماع الخلق عليهم موجبا لفساد أحوالهم بميلهم إليهم ، واحتجابهم عن شهود المقام العلى والله ولىُّ المؤمنين .

أما الدعاة إلى الله تعالى ؛ فقد تقدم الكلام عليهم فى كتابنا الأول فراجعه إن شئت[1]

---

(١) راجع كتاب أساس الطريق ص ١١ .

سبيل الدعوة إلى الله تعالى

مداراة النفوس :

الدعاة إلى الله تعالى هم حكماء النفوس ، الذين علموا أمراضها ودسائسها ورعوناتها ، وعلموا أسباب تلك الأمراض وموجباتها ، وعلموا طرق دوائها ، كل نفس بحسبها . والنفوس إما شريرة سجل عليها القضاء بالخلود فى نار جهنم ، ومداواتها مداراتها ولو كانت ناطقة بالشهادتين ، فإنما هو تقليد للوالدين ، والخاتمة عليها المعول .

ومداراة تلك النفوس تكون بأمور :

إما بالتودد مظاهرة ، و بالإحسان خلقا أوعملا ، والتباعد عن التنديد عليها ، والتعريض بها ، إذْ لو علم الله فيها خيراً لجعلها قابلة للدعوة ، مقبلة على الله تعالى .

وليس للمرشد همة علية تخرق أسوار الأقدار ، فتجعل من يسجل الله عليه الغضب والشقاء سعيداً ، بل ولا للرسل عليهم الصلاة والسلام ، فما بقى إلاَّ المداراة عند الضعف ، حتى يأتى الله بأمره .

ومن المداراة أيضاً الإمساك عن ذكر معتقداتهم بسوء ، أو محبوباتهم ، أوعوائدهم ، بل على الداعى أن يصرف أنفاسه وأوقاته بطاعة ، أوتعليم ، أوإرشاد .

أما النفوس التى سبقت لها الحسنى ــ بحسب مراتبها ــ فلا تفارقها رعونات تدعوها إلى الإنكار، أووساوس شيطانية تمنعها عن الإقبال ، أوحظوظ خفية تحجبها عن اليقين ، أوآمال نفسانية تصم آذانها عن التلقى .

فعلى الداعى عند ذلك أن يدارى تلك النفوس بالتآلف والتحابب ، ومخاطبتها بما يناسبها من العلم والعمل والحال بقدر مراتبها ، ويخفى عنها مالا قوة لها على تلقيه ، ولا طاقة لها على تحمله ، حتى لو جلس الداعى بين ألف من أهل مقام الإحسان وواحد ممن لقست نفوسهم ، يلزم الداعى أن يؤلفه ويؤانسه ويمازحه ، ويتكلم معه بما يناسبه ، حتى تزول رعونات نفسه ، ويحصل له الأنس ،ولديها يدعوه بقدره ، بحيث لا يبيح سرًّا ، ولا يشرح

حالاً ، ولا يبين مقاماً لرجل من العارفين أمامه ، ولوضيع لأجله ليلة كاملة ، فإنه بذلك يكون سد باب شر ، وجذب إليه أخا . أوسد باب شر ، ورد عنه شيطاناً . فيدوم صفوه ويطيب أنسه ، وتحفظ قلوب إخوانه من دسائس الشر وسعى الأشرار .

هذا ، وإن النفوس الزكية الطاهرة المطلوبة للحق بالحكمة والموعظة الحسنة قليلة جداً ، حتى لا يكاد يوجد فى مائة ألف واحد ، وإنما تنقاد النفوس لسوط سلطان قاهر ، أو لطمع فى فان عاجل ، فما بقى للداعى إلى الله تعالى إلا المداراة لتلك النفوس ، وعليه أن ينبه أهل خاصته الممنوحين لسان الحكمة وأحوال النبوة ؛ أن يجملوا ظاهرهم أمام جميع الخلق بالتمسك بالعبادات وحسن المعاملات ، وكتم الأسرار ، حتى لا يفتحوا على أنفسهم أبواب الشر ، ويطلقوا عليهم ألسنة السوء ، وقد بين القرآن الشريف سير الأنبياء وسير المرسلين ، وهم المؤيدون بالوحى والمعجزة ، المأمورون بالبيان كل البيان ، ووضح مانالهم من أهل الشر من الأذية والمضار ، حتى أيدهم الله بنصره ، وذلك لما كانوا عليه من كمالات اليقين .

أما الدعاة فإن يقينهم لم يبلغ هذا اليقين ، فربما أدت أعمال أهل الشر إذا فتحوها عليهم إلى سوء الظن بالله ، أو ضعف اليقين بوعده ، أو شك بعض الإخوان فيكون الشر أعم ، فالواجب على المرشد وخواصه أن يكونوا أعوانا على علاج النفوس من أمراضها المعضلة ، وتطهيرها من خبثها ، لا غونا على فسادها وعتوها ، وخروجها عن حد الأدب مع الله ورسوله وأوليائه .

فإذا دخل داع بلداً يلزمه أن يخفى أحواله ، واسم المرشد ، وأن يبتدىء بالترغيب إلى الله ورسوله ، وذكر ما يناسب أهل البلد من الحكمة والموعظة ، ثم يصبر معهم زمنا حتى يعلم أحوالهم وما هم عليه ، و يتحقق من أمراض نفوسهم ، فيبتدىء بعلاج تلك الأمراض ، مرغبا لهم فى نوال الخير والمثوبة من الله تعالى ، والمغفرة ، والجزاء الحسن عنده سبحانه ، كاشفاً لهم نعمه سبحانه ، مبينا فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، حتى إذا آنس منهم الإقبال ؛ يشرح مبادئ طريقه ، و يبين لهم مآخذها وسيرها وآساساتها ، بدون تكليف منه لهم بأخذها ، حتى إذا طلبوا منه الطريق لم يسرع إلى ذلك حتى تشتد الرغبة منهم ،

وإذا ذكروا مشايخهم أثنى وترضى عنهم ، حتى يكونوا هم المميزين بين المَسِيرَيْنِ ، المتحدثين بأقرب الطريقين ، وهو يخفى عنهم ذلك .

فإذا آنس منهم بذلك ؛ أخذ يشرح لهم علوم الرجل ، و بعض مواجيده سرًّا ، حتى إذا تمكن منهم الوجد مع السكينة والهدوء ، إما أن ينيب عنه أحدَ إخوانه ، أو أحدَهم ، و يتركهم بعد أن يجعلهم على حالة مرضية من القيام بالعبادات ، وحسن الأخلاق ، والتحابب ، والاشتغال بالعلم النافع ــ أى المذاكرة ــ وعلم النوافل كالذكر والتوادد والاجتماع لله . ثم يسأل عن أخبارهم وأحوالهم ، و إذا زاره أحد منهم يجمله بكمالات

الأخلاق ومحاسن الشيخ والتحبب فى إخوانه ، و يكون أمامهم نشيطا أو متكلفا فى الأعمال ، حتى يتشبهوا به ، فإنما هم مقلدون له فى سيره وعمله ، و يتباعد عن كل ما ينفر ، غاضا بصره عن عيوبهم ، مادحاً لهم على محاسنهم ، حتى يذوقوا حلاوة اليقين .

و بعد ذلك يبين لهم بعض المعايب عموميا فى مذاكرته ، ذاماً لكل قبيح ، بحيث لا يشعر أحدهم أنه مقصود بهذا الكلام ، إلاَّ بعد التمكن الأكمل وتزكية النفوس : فلا مانع من أن يواجه المسىء بالتعنيف والتأديب ، وله أن يهذبه بما يستحسنه بحسب مقامه .

الإخوان

الإخوان هم هياكل متعددة، سرت فيهم روح واحدة، كالجسد الواحد تعددت أعضاؤه ولكنه واحد، فإذا تألم عضو منه شعر بالألم كل الجسد، فكذلك الإخوان يتألمون جميعاً لألم أحدهم، غنيهم فقير لأنه يؤثر الفقير على نفسه، وفقيرهم غنى لكمال ثقته بربه، صفت قلوبهم فتجملت ظواهرهم، فإذا رأى الأخُ الأخَ كأنه أشرقت عليه أنوار، فانبسط وانشرح وصافح وفرح، فيزداد نوراً على نوره، وحالاً على حاله، وعلماً على علمه، يبذل كل أخ لأخيه ما يجد من وجد أو موجود، فيغذى الأخُ أخاه بعلمه، والآخر يغذيه بخبزه، فلا يقابل أخٌ أخاً إلاَّ وفتحت أبواب السماء بالبركات، وهطلت الأرزاق والفتوحات، نزع الله ما فى صدورهم من غل، وما فى قلوبهم من طمع، لأنه سبحانه هو المحبوب لهم فى أنفسهم وماتقولون فى أثنين تقابلا على شوق فى الله ومحبة فى الله وبذل فى ذات الله ؟ هذا يبذل لأخيه ما به سعادته الأبدية من علم وحال وخلق حسن، والآخر يبذل له نفيس طعامه وشرابه وماله، وما تقولون فيمن تحقق فيهم قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث القدسى عن الله تعالى : « المتحابُّونَ فِيَّ والمتباذِلونَ فِيَّ والمتزاوِرونَ فِيَّ على منابرَ من نورٍ يغبطُهُم الملائكةُ والأنبياءُ لقربِهم من اللهِ » (١) .

وليس هذا الوصف العلى موجوداً إلاَّ فى الصِّدِّيقين وأبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام، فكل أخ يعامل إخوانه بهذا فهو من الصِّدِّيقين، ومن أبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام .

مراتب الإخوان :

من سبقك ولو بيوم فى صحبة الشيخ فله عليك فضل السابقية، ثم تصلهم بقدر

---

(١) هذا حديث صحيح أورده السيوطى ورواه عبادة بن الصامت بلفظ : (قال الله تعالى : حقت محبتى للمتحابين فى، وحقت محبتى للمتواصلين فى، وحقت محبتى للمتناصحين فى، حقت محبتى للمتزاورين فى، وحقت محبتى للمتباذلين فى، المتحابون فى على منابر من نور يغبطهم النبيون والصديقون والشهداء) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢١ .

مجاهداتهم و بذلهم وموالاتهم وكمال اتباعهم وحسن أخلاقهم وصدق تسليمهم ، فقد يفضل الواحد على الألف لما اختص به من الفضائل والكمالات ، وهذا الفضل يجب على الإخوان أن يتناسوه فيما بينهم ، بمعنى أن الأخ الفاضل الذى ميزه الله بأكبر خصال الخير لا يشهد لنفسه فضلا على إخوانه ، إنما ذلك أمر تشهد به الإخوان له ، فلا يغتر به ، بل يزداد فى تواضعه ، وفى رغبته ، وفى إقباله وفى مجاهداته ، فإن الكمالات الإلهية لا نهاية لها ، والمواهب الربانية لا حصر لها ، فمن وقف عند حد منها رضى لنفسه بالنقص ، مع تيسير الكمال له .

وعلى الإخوان أن يعتقدوا الإحسان فى غيرهم ، والنقص فى أنفسهم ، وأن يغضوا عيون البحث عن عيوب بعضهم ، ويصموا آذان التنقيب عن نقائص بعضهم ، فإن المريد ليس رسولاً معصوماً ، ولا مَلكاً نورانياً مجرداً عن لوازم البشرية . وعلى كل أخ أن يشتغل بتطهير نفسه ، وتزكيتها من عيوبها ، وأن ينظر لنفسه بالانتقاد أو البحث عن دسائسها ومساوئها ، وينظر لكمالات إخوانه ليتكمل بها ، ومحاسنهم ليتجمل بها ، وهذا سبيل السلف الصالح من أهل الحب والصدق والإخلاص .

نصيحة للإخوان :

أخى ، تباعد عن أخلاق إبليس وهى : الحسد ، والكبر ، والطمع ، وحب الشهرة والسمعة ، وأذية الخلق ، والغيبة ، والنميمة ، والكذب والزور ، وإشاعة الفاحشة فى إخوانك المؤمنين ، وأحِبَّ لجميع إخوانك ما تحبه لنفسك ، ودع الفساد ، وتباعد عن أخلاق البهائم من الحرص ، والبخل ، والانتقام ، والحِيَل ، والمكر والخداع ، والتملق ، والزنا ، وشرب الخمر ، والتهاون بحقوق الناس . وتَخلق بأخلاق الملائكة بتأدية المأمورات ، والتباعد عن المنهيات ، واحفظ الرأس وما وعى من العينين والأذنين واللسان والأنف . والجسم وما حوى من اليدين والقلب والبطن والفرج والرجلين .

واحكم ياأخى أنك من أكابر الأولياء لله تعالى ، المحفوظين بعين عنايته ، لأن الله لا يوفق لهذه إلاَّ صفوته من أوليائه ، وهو الموفق الهادى سبحانه وتعالى ، وأدم الشكر على النعمة تعطى المزيد ، والله سبحانه ولىُّ المؤمنين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تهذيب الإخوان

أنواع التهذيب :

الأمر بصيام يوم الخميس والإثنين من كل جمعة . صلاة عشرين ركعة فأكثرليلا . صيام يوم وفطر يوم . الخروج من بعض ماله لإخوانه . تكليفه بالحج نافلة . تكليفه بسقى الماء لإخوانه ، ثم للعامة فى الجُمع والصلوات الخمس . هذا للسالكين من أهل اليسار .

أما أهل الأحوال والوجد فتكلفهم بخدمة النعال ، فحرمانهم شهود مجالس المذاكرة أو الخلوات ، ووقوفهم خارج الباب ، أونزولهم عن مراتبهم ، أو الحكم عليهم بالخدم المحتقرة كالكنس والرش ، أو الحكم عليهم بالاشتغال بالأسباب بعد التجريد ، أو التنبيه على الإخوان بأن لا يتكلموا معهم إلا بالواجب شرعاً ، حتى إذا زكت نفوسهم عادوا إلى ما كانوا عليه . هذا كله فيمن أتى تائباً معترفاً .

ومن هذه التهذيبات يجب على الإخوان أن لا يتكلموا فى شىء من هذا فيما بينهم – ولا للأجانب – حفظا لأخيهم من رعونات نفسه من ذم للطريق وأهله ، ومن نسبة النقائص إلى بعض أهله ، بل يكون هذا من المرشد أونائبه مباشرة للأخ ، فإذا انتهى من المجلس كأنه لم يكن يسمع للإخوان ، ولم يعلم لهم ، وعلى الأخ إذا أمر بشىء من ذلك السمع والطاعة ، مالم يؤمر بمعصية .

تهذيب المرتد عن الطريق :

يهذب بالتأليف والمساهلة معه ، وعدم الخوض فى عيوبه بألسنة الإخوان ، وعدم قطيعته منهم ، بل يترددون عليه بالحكمة مستأنسين بدون ذكر عيوبه ، حتى إن قهروا شيطانه وفاء إلى الحق قُبِلَ ، ودعوا له بالخير ، حتى إذا اعترف بذنبه وطلب تكليفه بأمر يمحو عنه عيوبه ، كلفوه بما يليق به .

البيان الشافى فى التهذيب :

البيـان تفـصيل مجمل لمؤهل ، وكشف خفى لولى ، وكشف حجاب لأواب ، ومراتبه متبـاينـة بالنسبة للطالبين . فينبغى للعارف أن يسير على قدر الضعفاء فى المجالس العامة ، وعلـى قـدر الأكثرية فـى الخاصـة ، فـإنَّه إن بيَّن لأهل رتبه سرًّا لم يكونوا أهلا له ، إما أن ينـكـروه أو يهـمـلـوه . ثم لا يبين ركـنـا من أركان الإيمان ، ولا خصوصية من خصوصيات الإحسـان ، إلاَّ لـطالب برغبة وشوق وحرص على ما يتلقاه ، وعمل به . فإذا لاحظ الداعى تلـك المـلاحـظـات ؛ حـفـظ مـن أهل الإنكار ، وأمن جانب أهل الاعتراض ، ونفع العامة والخاصة . .

وطـريـق البيان إمـا بـالقول أو بالعمل أو بالحال ، فالبيان بالقول : للتأليف ، والبيان بـالـعـمـل : لـتزكية النفوس وتخليتها عن الرذائل ، والبيان بالحال : لتحلية النفوس و وصولها إلـى مـقـامـات الـقـرب والمشاهدات . وقد روينا فى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « الشريـعةُ أقوالى والطريقةُ أعمالى والحقيقةُ أحوالى » .

فـالأولـى البيان أولاً بالقول بقدر السامع فى العامة ،ثم العمل فى الخاصة ، ثم بالحال فى خـاصـة الخـاصـة . فـليس من البيان أن يتخطى الداعى بالسالكين مقاديرهم ، فيفوتهم من العلم بالله تعالى بقدر ما تركوه بدون بيان .

وإذا صحت الحال من أهله أمام من تجملوا بالتأهل له ؛ بلغوا مبلغاً من الرقى لا يزالون فى مزيد منه ، لم يكونوا يبلغوه بدون الحال ولو عملوا أو قالوا ألف سنة .

والحـال قـد يـنـقـل أهـل الـبـدايـة إلـى مـشاهدات أهل التوحيد ، ولكن لا يحصل لهم التمكين ، فيحتاجون إلى دوام تجدد أحوالهم . أما من ارتقوا على سلم السير بسماع قول فعمل فـحـال مـن عـارف مـتـمـكـن ، فإنهم لا ينقص حالهم ، ويدوم فى مزيد ، ولا يحتاجون إلى تجـدد .

فـعـلـى الـداعـى إذا دعـا بالحال أن يجعل القول والعمل حصناً للمدعوين ، حتى يمتزج

شرابهم بقول وعمل وحال ، ويكون الداعى أنشطهم فيها كلها ليقتدوا به فتتوازن قواهم ، وبذلك يدوم بسطهم ، ويزول قبضهم . ثم يتوالى عليهم الجمال بما علموا وما عملوا وما به تحلوا ، فإذا غاب عنهم الأنس بالجمال أُونِسُوا بالعمل ، وإذا غاب عنهم الأنس بالعمل والحال أُونِسُوا بما علموا ، فدام إقبالهم ، وتوالت أنوارهم ، وأشرقت عليهم أنوار الوصل ، ودارت عليهم أقداح الكشف فطابوا ، وعن الآثار غابوا ، ولا يزالون فى الرقى ؛ حتى يكون أنسهم بالوجه العلى .

مداراة الناس :

مداراة الناس من أخلاق سيد المرسلين ، ومن أكمل فضائل الدين ، بشرط أن لا توقع فى محرم ، ولا تؤدى إلى ترك الواجب ، أو إقرار على كبيرة . وإنما تكون المداراة كاملة بمعانيها من حكيم محب لخير الخلق ، حتى يضع المداراة فى مواضعها التى يحفظ الناس بها من الوقوع فى الفتن وفتح أبواب الجدل ، ومن وقوعهم فى ذاته ، فيستر عنهم من الحال مالا يطيقون ، ومن العلم ما لا يفهمون ، ومن العمل مالا يتعودون ، حتى تحصل لهم الألفة والسكون إلى ما يحب .

ولما كان للمقبلين على الله المتجردين عن الدنيا وملابساتها ؛ المجاهدين هواهم فى ذات الله ؛ صفاء يحصل به الأنس مع الله تعالى ، حتى يكون الله معهم وهم معه سبحانه وتعالى ، فتكون المعية حصوناً لهم واقية من الوقوع فيما لا يحب بدوام المراقبة ، فيحصل لأهل هذا الحال مواجيد صادقة ، تؤدى بهم إلى أعمال لا ينكشف للعقل سببها ، كما يحصل لبعض الرجال من ترك الأكل مدة ، والصمت زمنا ، وعدم التأثر بالبرد والحر ، والتلذذ بالابتذال والخشونة ، والفرار من الخلق فى الصحارى والغابات ، والسكون فى المقابر ، وترك بعض الواجبات ، والخروج من ماله وأهله ووطنه ، والجلوس فى مواطن الغفلة ، ومظان المعاصى والفسوق بدون مبالاة ولا اكتراث ولا حياء من الخلق ، ولا خجل من الخروج عن الاعتدال ، وكان سبب ذلك كله يخفى على العقل المكتسب لجهله بقدرة الله تعالى ، وإلاَّ فالقادر على أن يحفظ الجسم الإنسانى فى النار ويجعلها له برداً وسلاماً ، والقادر على أن يحفظ قوماً ثلثمائة سنة وتسعاً بدون أكل ولا شرب ولم يموتوا ، قادر على أن

يحفظ العبد من الموت مع جوعه شهوراً ، ويجعل له الماء جليدا يمشي عليه ، ويطعمه ويسقيه وهو فى الغابات والصحارى ، ويحفظه من المعصية ولو كثرت أسبابها .

ولكن مع هذا كله ؛ فالأكمل أن يخفى أهل الأحوال والمواجيد أسرارهم ومشاهداتهم العلمية عن المبعودين عن الله ، الجاهلين بقدرته ومشيئته ، الذين لم يكاشفوا بغريب تصريف أسرار المعية ، خشية على المبعودين من الجحود لقدرة الله فيقعون فى الكفر ، وغيرة على أسرار الله وأسرار رسله وأوليائه . فكانت المداراة من أجمل ما يتجمل به السالك والواصل والمرشد والكامل ، ولو غلبه وجده وحاله ، وقهره مشهده ووقته ، فإن الصبر فى تلك المواطن من الجهاد الأكبر . وإن كثيراً من الأئمة المرشدين والهداة الكاملين خرجوا عن حد الاعتدال ، ولم يبالوا بأهل اللوم والجدال معاملة لله وحده ، وعدم مبالاة لمن سواه ، والله سبحانه وتعالى يجملنا بالأخلاق المحمدية .

الوسعة تقتضى التفاوت :

معلوم أن السير إلى الله سبحانه وتعالى هو سفر بمعناه الحقيقى ، لأنه انتقال من حال إلى حال ، ومن معتقد إلى معتقد ، ومن شهود إلى شهود ، ومن وجود إلى وجود ، ومن قيود إلى إطلاق ، ومن الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة إلى نفسك ، ومن نفسك إلى الله .

ولما كان قطع تلك المسافات قد يكون على منهاج موصل إلى الأكمل من المقاصد ، حتى يصل إلى الله تعالى ، أو على سبيل يوصل لغاية محدودة ونهاية مقيدة ، وكان السالكون يتفاوتون بحسب استعدادهم ومقام إمامهم ، وما سبق لهم فى المشيئة ، فإن كان الإمام من أهل التمكين العالمين بمراتب الوجود ، المتمكنين من سبل الوصول ، المتناولين من شراب الغيب والشهادة ، تفاوت السالكون حالاً ومشهداً ومقاماً وعملاً ، وتباينت مواجيدهم وإن اتحدوا على حسن المقصد والمبدأ . وتباينهم بحسب مراتبهم ومعارجهم ، لأن المعارج لا تتناهى عدا وذلك لمقتضى الوسعة ، فترى بعضهم أنس بالعمل البدنى ، والآخر بالعمل القلبى ، والآخر بالحال ، وغيره بالمواجيد ، والآخر بلسان الحكمة ، والآخر بملازمة خدمة الإخوان والقيام لهم بالواجب ، والآخر بالعزلة والوحشة من الناس ، وغيره بالبسط

والأغانى . كل ذلك من وسعة المعارج فسبحان رب المعارج ، وكثرة الوجْهِ الموصلة إلى الوَجْه : « وَمَامِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » (١) .

والمرشد الكامل يسره تلك الوسعة ، مالم تؤد إلى فساد فى خُلق ، أوتفريق لمجتمع ، أو اشتغال بجدل .

والمريد الصادق العالم بوسعة مشارب المرشد الكامل وكثرة المعارج وتفاوت المشارب والكل تؤدى إلى الواحد ، إذا سكن قلبه إلى معراج منها ، ووجهة من تلك الوجه ، لزمه غير معارض من خالفه ، ولا ملتفت إليه ، خشية وقوفه وقطيعته ، متحققاً أن الكل على خيروفى خير، عالماً أنه مسئول عن نفسه حتى يصل إلى المقام الذى به يطالب بغيره .

وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكل رجل منهم مشهد ومشرب أنس به وسكن إليه ، ولزمه وداوم عليه . فنهم التارك للأسباب ، ومنهم الواقف عندها ، ومنهم مَن عمَلُه الفكر، ومنهم مَن شُغله الذكر، ومنهم مَن أنسه بتلقى الحكمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من كاد الخوف والمجاهدة فى الله أن تميته ، ومنهم من كان آنسا بالله حاضراً معه ، ومنهم من أنس بالدعوة إلى الله ، وتبليغ ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يعارض أحدهم الآخر، ولا يرى نفسه أنه خيرمنه ، بل كل رجل منهم أنس بما أقامه الله فيه ، ناظرا لبقية إخوانه بعين المحبة والعطف والتجلة والتعظيم .

وهكذا ، إذا ظهرت تلك الأنوار المحمدية فى أى زمان من الأزمنة ؛ تفاوتت المشارب ، وتباينت المعارج ، وصار لكل رجل أنس مخصوص وبهجة خاصة ، فإذا حفظهم الله من معارضة بعضهم لبعض ، ومن ذم بعضهم لبعض ، بلغوا مراقى الصديقين ، وارتفعوا على معارج المقربين ، وصفا حالهم ، وطاب أنسهم . وإذا حصلت بينهم النفرة لاختلاف مشاربهم ، وحسَّن كل واحد منهم حاله ، وقبّح حال أخيه ، كان ذلك داعية إلى وقوفهم عن السير، واحتجابهم بتلك الأهواء والحظوظ .

وعمل الصحابة عليهم رضوان الله هو الحجة البالغة والمحجة الواضحة .

---

(١) سورة الصافات آية ١٦٤ .

ووسعة المرشد تقتضى باختلاف مشارب السالكين ، وتفاوت مقاماتهم وأحوالهم ، وكلهم على خير ما كانوا رحماء بينهم ، فإذا فقدت الرحمة من بينهم وجب عليهم التوبة والإنابة والاستغفار. ومقتضى الوسعة يوجب الشكر والثناء على الله الذى أفاض على العوالم تلك الأنوار، وقربهم إليه من معارج أسمائه وصفاته ، وكل واحد منهم بحسب ما تجلى له من معانى الأسماء. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا رحماء بيننا ، وأن يحفظنا من الجدل ومن المعارضة ، وأن يحببنا فى بعضنا له ، وينزع ما فى صدورنا من غل إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

معارج القرب :

عكوف البدن فى البداية على عمل الصالحات . كمال التسليم للحكم والآيات . صفاء القلب حتى تكون له لوامع أنس عند نوم العينين . الرؤ ية الصالحة . الحب الخالص للرجل فى الله بجميع لوازمه من إطاعة وانقياد و بذل . صفاء السريرة عند التأثر بالحظوظ والأهواء . عكوف السر على الجناب العلى . التوجه بالكلية إلى حضرة الألوهية بحسن اليقين وكمال التمكين على سنن مرشد كامل . مواجهة معانى الصفات بسر صفا تجعله متحققا بمعانى الصفات فيكون لوحا محفوظا ، منازلة من مقامات الجمال والجلال تجعل المواجهة بين الرهبة والرغبة ، ثم التمكن فى المقام والرهبة من المواجهة : (سِيمَاهُم فِى وُجُوهِهِم مِّن أَثَرِ ٱلسُّجُودِ) (١) وهو مقام يواجه الله فيه أصحابه ، وهم من عظمة المقام يغضون أبصارهم ، لأن الله قد امتحن قلوبهم للتقوى ، وهو مقام الخلة الذين اصطفاهم بعد أن اجتباهم ، والله عندهم وهم العبيد ، و بعد هذا لا معراج ولا رتبة ولا مقام ، وهو سر: « لِى سَاعَةٌ لاَيَسَعُنِى فِيهَا إلاَّ رَبِّى »

غَيْبٌ عَنِ الأَمْلاَكِ وَالمَلَكُوتِ ... خَافٍ عَنِ الأَنْوَارِ وَاللاَّهُوتِ
مَحْوٌ لِكُلِّ مَرَاتِبِ الأَسْمَاء قد ... يَخْفَى بِهِ غَيْبِى وَنورُ نُعُوتِى
غَيْبٌ بِمَعْنَاهُ العلِىِّ مُقَدَّسٌ ... فِى كَنْزِ بَاطِنِه عَنِ الجَبَرُوتِ
أَوَّاهُ لاَيَبْدُو لِرُوحٍ قُدِّسَتْ ... إلاَّ بِمَحْقِ المَحْقِ عَنْ مَثْبُوتِ

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

مَالِي أَبُوحُ بِمَا بِهِ أَنَا ظَاهِرٌ ... هَلاَّ أَبَحْتُ بِمَا بِهِ تَشْتِيتِي

غَيْبٌ عَنِ الأَسْمَاءِ فِي كَنْزِ الخَفَا ... لَمْ يَظْهَرَنْ إِلاَّ لَدَى العَظَمُوتِ

سَلَبَتْ مَكَانَتُهُ النُعُوتَ وَأَشْرَقَتْ ... شَمْسُ الصفَاتِ بِسِرِّهَا التَّثْبِيتِ

عِنْدَ التَّجلِّي فَالمكَانَةُ فِي الخَفَا ... والإِسْمُ يَظْهَرُ مُنْبِئًا بِنُعُوتِ

دَعْنِي وَحَالِي فَالمَقَامُ بِهِ الخَفَا ... عَنِّي وَحَالِي كَشْفُهُ تَلْفِيتِي



الباب الثالث

المشاهدات والمنح الربانية ومايجب على السالك

الفصل الأول

المشاهدات والمنح الربانية

أولاً : المشاهدات

أتكلم عن أهل الخصوصية ، صارفا النظر عن أهل التقليد الذين يعملون العمل مجردًا عن روح المشاهدات القلبية ، فإنهم إنما يحاكون الحركات والسكنات ، الرتبة التى اشترك الإنسان مع بعض أنواع الحيوانات فيها ، فإن كثيرًا من أنواع الحيوانات يحاكى أعمال الإنسان ، وقد تبلغ المحاكاة به إلى أن يتقن فنا من الفنون أوحرفة من الحرف أوخدمة خاصة .

إذا تقرر ذلك ، فالمشاهدات بدايتها الخوف من عقوبة على فعل قبيح ، أوالطمع فى جزاء على فعل حسن ، فيكون العامل متمثلا الجزاء عند العمل ، فيتلذذ بالعمل ويأنس فيه لحسن يقينه بنوال هذا الجزاء ، فيداوم على العمل برغبة ونشاط ، ثم يتمثل ألم العقوبة وضعفه عن تحملها ، فينفر من القبيح وتمتنع نفسه عن إتيانه ، فهذا حال المريد فى بدايته . ولكنه عن يقين بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر.

ثم يترقى إلى مشاهدة السالكين ، وهى أن اعمال البر والقربات والصبر عليها ، وترك المعاصى والصبر على تركها ، مما يزيد فى ملاذه ونعيمه فى الدار الآخرة . فيكون متمثلا تلك الملاذ وهذا النعيم الذى يناله بقدر المسارعة إلى العمل ، فيكون نشاطه أقوى وأنسه أكمل عند الأعمال ، ولذته أعم ، ويكون فرحه بعمل الحسنات لا يقدر ، وحزنه على حصول الهفوات لا يوصف ، لما هو ممثل له بفكره عن علم اليقين .

ثم يكاشف بمشاهدات أخرى يذوق منها لذة العامل بإتقان عمله ، والقيام بما أمر به ، مشاهداً حِكم الأحكام وسر الأوامر ، حتى يأنس من كل حُكم بحِكمته ، ومن كل أمر بمقتضاه ، فتشرق عليه أنوار المعية ، فيذوق حلاوة الأنس بالحاكم والآمر ، وهى مشاهدة الأبرار .

ثم إذا قوى حاله عن علم اليقين حتى بلغ به عين اليقين ؛ كانت مشاهداته فى معاملته تلذذه بالأعمال لأنها خير ، ولأنها بأمر الله ، فيعمل العمل لفضيلته ، ولأنه مأمور به ، صادقا فى عمله لله تعالى ، متحققاً أنه بعض ما يجب لهذا المقام العظيم ، وواهب الفضل العميم . و يقوى هذا الحال حتى تظهر له أنوار مشاهداته ، فيرى عجزه وقصوره عن القيام لمولاه بحسن المعاملة . ثم ينمو حاله حتى يتحقق بوحدة الأفعال ، فنكشف له أسرار معية الحق له ، و يكون مع الحق والحق معه ، وهى مشاهدات أهل اليمين عن عين اليقين . ثم يحصل له التمكين فى مقامه ، فتكون مشاهداته عن التوحيد ، فيكون مشهده كا شفاً له حقيقة أنه لا إله الاَّ الله ، وبها كل الأسماء ، لا معطى إلا الله ، لا وهاب إلا الله ، إلى آخر الأسماء كلها ، بيقين وتمكين ، فيكون الحق أقرب إليه من كل شىء ، فلا يشهد سواه ، ولا يأنس بغيره ، ولا يخشى أحدا إلاَّ الله ، ولا يحب ولا يرغب ولا يطمع ولا يشتاق ولا يعتمد ولا يثق ولا يسأل ولا ينادى إلاَّ الله ، حتى إذا جاع طلب منه أكله لكمال مشاهدته ، وحسن ثقته . وهذه مشاهدات المقربين .

أما مشاهدات المحبوبين وأهل مقامات حق اليقين ، فليس للعبارة فيها مجال ، ولا للسان فيها مقال ، لعلوِّ مشاهداتهم عن أن تكشف بعبارة ، أوتبين بإشارة ، وقد تقدم الإيماء إليها فى بعض مواجيدى نظما ونثرا ، والله سبحانه ذو الفضل العظيم .

النسب الإلهى :

نسب به يقبل عليك ، ونسب به تقبل عليه ، فإذا تجمل بهما الإنسان كان مع الله وكان الله معه ، وصار محبوباً لله مراداً لذاته ، وأى شرف أعظم وأكمل من اتصال نسب العبد بالله تعالى ؟ .

١ ـ النسب الذى يقبل به عليك :

النسب الذى يقبل به عليك إقبال إمداد وإحسان ووداد وامتنان وشفقة ورحمة ورأفة ، حتى يمنحك منه ما تشاء ، أويكون لك عنده ما تشاء ، هو تحققك بحقيقتك ، وانكشاف معانيك لك حتى لا تنسى من أنت نَفَسا ولا طرفة ، فتكون بهذا الانكشاف دائم الاضطرار والتوكل عليه ، والتفويض لجنابه العلى ، والفقر لذاته الأحدية ، فإذا تحققت بهذا النسب الذى هو حقيقتك ، أقبل عليك بمعانى الربوبية ، وقابلك بواسع الإحسان والعطية ، فكنت ممتعا بالجنة العاجلة التى يعجلها لأوليائه ، لأنك باتصالك بنسبه العلى استحققت الولاية الخاصة ، وخصصت بالكرامة والعناية ، وهذا النسب الإلهى إذا انكشف لك فأدم شكر الله عليه ، وأدم صلته بما به يكون متصلا ، و بره بما به يكون دائما ، فإن المتحققين به قليلون ، والمتجملون به أفراد لله مرادون ، والتفصيل سهل فهمه عليك .

٢ ـ النسب الذى تقبل به عليه سبحانه :

النسب الذى تقبل به عليه سبحانه ، لا يتحقق إلاَّ بعد أن تصل النسب الأول به سبحانه ، فإذا تجملت بنسبه الذى يقبل به عليك ؛ سهل عليك أن تتحلى بنسبه الذى تقبل به عليه سبحانه ، وهو التخلق بأخلاقه الإلهية فى المضايق التى تدفعك بقوة إلى التخلق بأخلاقك الحيوانية ، أو الأخلاق الإبليسية ، عند ذلك تجاهد نفسك فى ذات الله ، وتتخلق بخلقه الكريم عند مقتضى ذلك ، مقبلا به عليه سبحانه ، لأنه سبحانه يحب صفاته ، ويحب أخلاقه ، خصوصا إذا ظهرت فى شخص يمكنه أن ينفذ مراده السيء ، وموجب خُلقه القبيح ، بدون أن يحصل له من ذلك مضرة ، فيكون تخلقه بخلق ربه فى هذا الموطن رفرف أعلى للدخول على حضرته العلية بدون حاجب ولا مانع ، ولم يترق مقرب على سلم أقرب من هذا النسب ، فإن نَفَسا واحداً يتنفسه الرجل متخلقاً بخلق من أخلاقه سبحانه وتعالى بمقتضاه ، يكشف عنه جميع الحجب حتى يتشرف بالمواجهة والشهود. والتخلق بأخلاق الله تعالى لا يتحقق إلاَّ عند مقتضياتها مع الزهد والورع والإخلاص والصدق ، حتى تحصل المشابهة فى تخلقه ، فيكون عفوه عن قدرة ، وإحسانه ولو إلى المسيء ، وصلته ولو للقاطعين ، وإكرامه ولو للمهين ، والتفصيل يعلمه أُولو الألباب والمثل والشواهد لا تخفى ، وقد سبق تفصيل لبعضها .

النظر وعين اليقين :

إذا كان الناظر باحثا عن شك اعتراه ، وريب خالج قلبه ليرجح أحد الطرفين ، فهذا سالك فى أخوف المسالك ، وسائر فى غير أمن . أما إذا كان الناظر بعد كمال اليقين بأركان الدين وإنما نظر مفكراً ، و بحث متدبراً ، فهو على مزيد من اليقين ، و يدوم مزيده حتى يطمئن قلبه بعين اليقين ، وهو سبيل لعروج أهل الخلة ، المطلوبين للجناب العلى ، الذين كوشفوا بملكوت السموات والأرض ، بعد العبرة والفكرة والتدبر فى كل شيء ، حتى بلغوا مقام اليقين بنور التمكين ، و بداية هذا المقام اعتقاد بما وصل إليه علما بتسليم ، ثم تبين له فى الآفاق الآيات ، فيذوق بوجد حلاوة قوة الحجة على ما اعتقد ، حتى يزداد يقينه بمشاهدة تلك الآيات الظاهرة فى الأرض والسموات ، ثم ينتقل إلى نفسه فينكشف له فيها من معانى الصفات ، وجمال الهبات ، ما به يكمل يقينه حتى كأنه يرى ويسمع ، إلى حال يتحقق بالمعية عن عين اليقين ، فيشهد فيه وفى الآفاق أسرار بديع خلاق قريب رزاق قدير عليم ، فلا يقع نظره بعد ذلك إلاّ على معانى الأسماء ؛ ظاهرة فى الآلاء ، و يسبح الله تعالى ويحمده و يكبره و ينزهه ، و يدوم عروجه ، و يستمر رقيه إلى أن يفنى عن مقام المعية ، فتلوح له فيه معانى بارئه ، فيسمع به ، و يبصر به ، و يتكلم به ، و يبطش به . بمشاهدات عن يقين حق بعد التمكين فى مقامات التوحيد ، وأسرار التشريع ، وفقه حِكم الأحكام ، وإدراك مراتب الوجود من تدل وصعود ، ثم يترقى إلى محو المراتب والمقامات ، باتصاله بالنسب الحقّى من مقام حق اليقين ، فيكون العبد بأكمل معانيه قائما لسيده بسيده ، عاملا له به ، كملت معانيه ، وتجملت مبانيه ، وخفيت عن الأرواح مشاهده ، وعن العقول رقائقه «وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً» (١) والله ذو الفضل العظيم .

مشاهدات الموحدين :

تتفاوت مقامات الموحدين بالنسبة لطمأنينة القلب ، وانكشاف أسرار تعلق الأسماء والصفات بمقتضياتها . والمشاهد إما أن يكون فى مقام تمكين ، أو مقام تلوين . أما أهل مقام التلوين فتكون مواجيدهم داعية إلى محو السبب ، لأنهم مجذوبون للحضرة بجال التجريد والتخلية ، وتنزعج نفوسهم إذا ظهر السبب لانصبابهم بكليتهم إلى المسبب الأول

(١) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

سبحانه ، ومجاهدتهم أنفسهم لذوق حلاوة التوحيد ، وكشف أسرار الواحد ، حتى تراهم ــ لما انبلج فى قلوبهم من نور المحبة والشوق فى بدايتهم ــ يكادون يحجبون الكونَ عن عيون بصائرهم ، وتشير معانيه لهم لما فيه ، حتى يتسع أمامهم ميدان الفكر ، فتجول عقولهم الموهوبة لهم فى أقطار السموات والأرض ، مشاهدة لمعانى الاسم الظاهر آنسة بما ظهر فيها من آيات الأسماء ، وربما دعاهم هذا الحال القوى إلى ترك الأسباب الضرورية فراراً مِن الشرك لنظر السبب ، وهو حال عن توحيد وتلوين وفقه للحكمة وصدق تلقين ، وبهذا الحال تزكو النفس ، ويتسع القلب ، فيجهل السالك معارفه ، وينكر أقاربه ، ويكره عوائده ، ويستوحش من أحبابه ومألوفاته .

عجبا !! ولم تسبق له رياضة ولا سياحة ولا عبادة ، ولكنه فرَّ من مفهوماته ومعلوماته وعوائده ومألوفاته وأخلاقه وصفاته وصار عالَماً آخر . ومشاهدات أهل هذا المقام قاصرة على الأنس لاستحضار معانى الحكمة فى عالم الخيال ، واشتغال قوة الفكر فى الآيات الظاهرات والمعانى الخفيات ، وتشرق عليه أنوار يرى منها بعين بصيرته قدر المقصد عزة وعظمة ، ومقام المطلوب كبرياء وكمالا ، فتعظم فى عين قلبه الوسيلة ويأنس بها ، حتى ينخطف قلبه إليها ، لما يأنس به من وجوده مع الوسيلة من استحضار أنه أدرك بها المقصد ، حتى كأنه مشاهد للمقصد ، وفى هذا المقام يكون المريد السالك بقدر بدايته حبا واصطلاماً وفناء وغراما ، وبقدر فراغ قلبه مما سوى المقصود الأعظم ، وسلوه لمن سواه ، وإقباله عليه بكليته ، فإذا صححت تلك المعانى ، وتجملت بها منه المبانى ، ووجه مواجهة محبوب أو مواجهة محب ، ولكل منهما مقام معلوم ، فإذا حصلت المواجهة صحَّت المنازلة ، فيقف العبد فى مقام المنازلة وقفة حيرة ، فيشتاق لطمأنينة قلبه ، ناظراً بعينه ، وبينهما بون بعيد فعين تشهد السبب ، وعين أشرقت عليها أنوار المسبب .

ومشاهد التوحيد تمحو الأسباب وتخفى النسب ، ومقام العبد يثبت الوسائط ويشهدها ، ليتمكن من مشاهدة معانى الأسماء والصفات ، فإذا انبلجت عن مشاهد التوحيد نورَ إيجاد أو إمداد ولم ينكشف له كيف انبلجت ، ولم يتضح له سبب انبلاجه ؛ وهو مقام العبودية بانكشاف السبب ليطمئن القلب ويشهد تنزلات الرب ، فإن معانى الأسماء القائمة بالآثار لا تنبلج أسرارها إلاَّ لمن علموا كيف تعلقت ، ولذلك فأهل التمكين الأكبر من

أولى العزم كانت مواجيدهم القلبية وأحوالهم القدسية داعية لطلب المزيد من كشف الكيفية ، أومن تمكين الرؤ ية ، أوإظهار آية للطمأنينة عند الإخبار بما عُدم سببه . ولم يكن ذلك منهم صلوات الله عليهم لضعف إيمان ، ولكن لمزيد الإيقان . ولذلك فأهل مشاهدات التوحيد ــ عند انكشاف مشهد من المشاهد القلبية القدسية ــ تتشوق روحهم القدسية إلى كشف السبب بالكيف أو الرؤ ية بانزعاج شديد وخوف وخشية ، حتى لا يكون لهم مشهد إلا وقد اطمأنت به قلوبهم ، وسكنت إليه أرواحهم ، وتحققوا فيه بمشاهدة معانى الأسماء ، وكيفية قيام الآثار بها ، وهذا مقام التمكين .

هذا الكليم صلوات الله عليه ، لما رأى عصاه كأنها جان ولى مدبراً ، وهو فى مقام أمين ، لأنه لم يشهد سببا واقياً لَهُ محسوساً بعينه ، فكان هذا المشهد التوحيدى الذى هو الحفظ بلا سبب من أضرضار مزعج ، حتى اطمأن بظهور السر فى ذلك . وهكذا لكل مشهد من مشاهد التوحيد فى مقام التمكين من الحيرة والاندهاش والانزعاج مالا يوصف ولا يعبر عنه . ومشاهدات الرسل عليهم الصلاة والسلام فى القرآن الشريف ، خمر لأهل هذا المقام ، ونور يبين هذا السبيل . فإذا كان أهل هذه المقامات العلية ــ مع كمال تمكينهم ــ يتشوقون إلى شهود الكيف ، ويطمئنون بالوسط فيما لم ينجل سببه ولم يظهر كيفه ــ وهم أهل هذا المشهد ــ فكيف يباح هذا المشهد لغيرهم ممن انطمست بصائرهم أو احتجبت سرائرهم ؟ ولأهل هذه المشاهدة مشهد ، تفنى الآثار فى أعينهم ، والآيات فى أنفسهم ، والأسماء والصفات فى معانيهم ، ثم يفنون هم فيحتجب بفنائهم كل اسم وكل صفة ، حتى يكونوا فى مشهد لم يكن فيه إلاَّ « كَانَ » نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنحنا ما به تطمئن قلوبنا ، وتسكن إليه نفوسنا ، من مزيد العلم وانكشاف الأسرار ومشاهدة الأنوار ، ويحفظنا من شواغل تحجبنا أوتَسَلٍّ يقطعنا ، ويحصننا بحصون حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، آمين

مقاصد القلوب وهممها :

قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ لا يَقْبلُ على كلِّ كلام الحكيم ، ولكن يُقبلُ على همِّهِ وهواهُ » الحديث . لما كان القلب محل نظر الحق سبحانه وتعالى ، ومنه تنبعث الأوامر للأعضاء فيصرفها حيث شاء ، وقد ينبعث منه الأمر بالخير وهو يقصد الشر كما يفعل

المنافق أو المتملق أو المخادع أو المخاتل ، فإن جوارحه تتكيف بكيفية حسنة تعين على مراده ، ولكن القلب مخفى فيه غير ذلك ، وقد تتكيف الأعضاء بصورة تنفر الناظر وتخيفه وتغضبه ، والقلب مخفى فيه كل خير ، ومكنون فيه الرأفة والحنانة ، كما يحصل من الوالد الشفيق أو الأخ الرفيق عند نصحه ولده أو صديقه ، أو نهيه عن قبيح حصل منه ، فإن بواعث الشفقة والرحمة إذا اندفعت من القلب قضت على الجوارح بالشدة والقسوة ،

فالحكيم قد يهتم قلبه بعمل لله خالص ، ويميل هواه إلى مراد الله ، ولكن يدعوه مقتضى الوقت أن يعمل هذا العمل بحالة ربما ظن منه الجاهل بها أنه منافق أو مراء ، أو مخالف للشرع ، وحكم عليه بذلك .

وهو فى عمله هذا من المقربين إلى الله المحبوبين لله ، وإن كان ظاهر عمله يومىء إلى مخالفة باطنه ، فإن الحكماء قضت عليهم أنوار الحكمة أن ينشروا الخير بين الناس ، ويظهروا الفضيلة ويدلوا الناس على مناهج البر وموارد الوصول ، بالأساليب التى يرون نجاحها ، مادامت مباحة شرعا ولو كانت مبتذلة عرفا ، غير مبالين بما يلم بهم من لائمة الخلق ؛ مادامت مقاصد القلوب وهممها إعلاء كلمة الله ، والمحافظة على حدوده . وهو مسلك من المسالك التى ينبغى لكل مرشد أن يتجمل به ، بحيث أنه يراقب قلبه سرًّا وعلناً ، ويحاسب نفسه فى أصغر الصغائر وأكبر الكبائر ، ويجاهد هواه فى ذات الله تعالى ، مجاهدة تجعل قلبه لا يهم إلاَّ لله ، ولا يهوى إلاَّ لله ، مستصغراً كل حظ لغيره ، مستهينا بكل هوى لغيره ، وعليه — مع هذا الصفاء الذى يحصل لقلبه — أن يكون حكيما فى صفائه ، فيحتاط من الناس بظاهره ، خشية من حصول الوحشة بينهم بسوء ظن أو بسوء عمل .

وتلك الحيطة تكون بظاهر الأعضاء ، مع سلامة القلب من الأحقاد ، وحفظه من الغلول ، وتطهيره من المنافسة فيما لا بقاء له من العرض الزائل ، فيجعل أخاه كنفسه إلاَّ أنه شخص آخر ، يحب له ما يحب لنفسه ، باذلاً له ما يحبه من ماله ، زاهداً فى جميع مامعه وماعنده ، محافظة على إخائه ، حتى يتحقق هو لك بمثل ما تحققت به ، فإذا تحقق بذلك قبلت منه ما تشرح صدره بقبوله منه ، و بذلت له ما يشرح صدره بقبوله ، ملاحظا فى ذلك الحيطة بالمحافظة على إخائه ، فلا تسلك معه مسلك ظنَّة ،ولا تمكنه منك فى حالة ربما أدت إلى سوء ظنك به ، حتى يدوم الإخاء فى الله تعالى ، ولا يكون ذلك خالصاً لله تعالى إلا إذا

بذلت له كل ذلك للقرب إلى الله ، ونوال فضل الله ورضوانه سبحانه ، لا لغرض آخر، فإن الأخ إذا صفا لك وصفوت له لله تعالى ؛ كنت به في معية الله تعالى ، و بلغت به منازل المقربين بما تبذله لله ، وما تقدمه لله في ذاته ، والله أعلم .

إن الذكرى تنفع المؤمنين :

أيها الإنسان : إن الله الذى خلق لك ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وسخر لك كل مخلوق خلقه ، شهدتَ ذلك بعينى رأسك ، وعاينته بنور فكرتك ، والحمد لله قد ذقت حلاوة الإيمان بانفراد مولاك بعمل كل شيء ، إذْ لا شريك له في ملكه ، وتحققتَ أنه سبحانه فاعل مختار « لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ » (١) وتحققتَ أنه سبحانه قدّر عليك وقضى لك قبل وجودك فى هذه الدار الدنيا كل ما هو لك من عمر ورزق وعلم وعمل وجاه وشرف وإيمان ، وغير ذلك مما يلائمك ومالا يلائمك ، و بيّن لك سبحانه ما هو مطلوب منك مما أوجبه عليك من الإيمان به سبحانه إيمانا خالصا لا يشوبه شك ولا شرك ، والعبادات التى بينها سبحانه ، والمعاملات التى أمر بها ، والأخلاق التى حث على التجمل بها . وكلفك سبحانه بأن تثق بما عنده أكثر من وثوقك مما تملك بقوله تعالى : « مَا عِندَكُم يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاق » (٢) .

كل ذلك دعاك إليه سبحانه ، وشهدت أن كل شيء يزول ويفنى ، وعاينت أن كل شيء اعتمد عليه الإنسان ورتبه ووثق به ؛ كثيراً ما يخلف ظنه ، ويكون مآله على غير مايريده المدبر المرتب ، وقد جربت هذا الأمر كثيراً وشاهدته من كثير من إخوانك . حتى صار كل شيء يحكم به الإنسان قد لا ينتج النتيجة المقصودة ، فتحقق الناس أن كل ذلك ظن وزعم إلاّ ما دلك عليه ربك سبحانه ، فإنه كائن لا محالة ومحقق الحصول .

فما بالك أيها الإنسان تنبهك الدنيا بغرورها وتلفتك إلى مكرها وخداعها ، وتتزين لك فتشتاقها ، وتنسى كمالاتك وفضيلتك وشرف نفسك ورتبتك بين العالم .

الخلق جميعا عبيد مثلك ، لايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ، فكيف يملكون

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٢) سورة النحل أية ٩٦ .

لغيرهم ؟ تطمع فيما لوملكته لكان ضرره عليك أعظم من نفعه لك ، تسعى فى نوال حظ عاجل يعقبه الحسرة والندامة ، يسرك أنك ذو مال وذو جاه وعلو فى الأرض ، وكل هذا يزيدك غرورا وطمعا وفسادا وتجافيا عن الحق وأهله ، واشتغالا بالباطل وأهله ، وكل ذلك تزول لذته ، وتبقى حسرته وندامته يوم القيامة .

وأنت أيها الإنسان تعلم ذلك علم اليقين مما تشاهده بعينى رأسك كل يوم فى الوجود ، من الحوادث التى توقظ الغافل وتنبه الساهى ، فهل جهلت أوتجاهلت ؟؟.

فعليك أيها الإنسان بالقيام بحقوق ربك ، والمحافظة على أوامره ، والسعى فيما يرضيه بكل جهد ، غير ملتفت إلى الحظ العاجل واللذة الفانية ، واعتبر بما تشهده من الآيات وتعلمه من الآثار ، وتدارك نفسك قبل فوات الوقت ، فالإنسان لا يعلم أجله ولأن تتمسك بالحق ويطول عمرك فى عمل البر؛ خيرمن الأمل والغرور بأنك تتمهل وتتوب بعد فما تدرى لعل الأجل قريب ، وها هو كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وضحت وبينت .. والمغرور الذى يتباعد عن النصيحة كأن فى أذنيه وقراً .. والمطلوب من إذا نبه تنبه ، وأقبل بقلبه ولسانه وجوارحه على الحق حتى يصل إلى الله تعالى .

واعلم ياأخى أن لذة التقوى وحلاوة الإيمان متى باشرت قلبا نورته نوراً ينشرح له الصدر، ويزول به الكرب ، وتطيب به الحياة ، وتأنس به النفس الطيبة ، وتطمئن به القلوب الصادقة . فجرب ياأخى وذق معى لذة الإخلاص لمولاك جل جلاله ، وحلاوة الإقبال عليه ، تجد من لذة الأنس وحلاوة اليقين ما يجعلك مَلِكا من الملوك فى نفسك بالنسبة للخلق من جهة اليقين والطمأنينة ، وتتوارد عليك الكمالات والعزة ، حتى تتمكن فى مقامات العبودية ، فتكون عبداً صرفا لذات الله ، خالصا من العبودية لغيره ، وتكون مَلِكا مطلقا بالنسبة لغيره ، ولديها تحمد الله تعالى ، متحققا بمقام الحامدين ، واصلاً إلى رب العالمين ، ومن كان عبداً حقاً لله سبحانه دخل فى حصون العناية ، وتولاه ربه بعين العناية ، حتى صار من أولياء الله تعالى المحفوظين من الشيطان الرجيم لقوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »(١) جعلنا الله تعالى من الذين تولاهم الله سبحانه بولايته الخاصة إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) سورة الحجر آية ٤٢ .

الحضور والغيبة

١ — الحضور:

الحاضر من علم بنور فطرته مبادىء الدين ، وذاق بلطيف فكرته حلاوة التسليم ، فآمن بالغيب وتيقن بالحق ، ومال لأهل التقوى ، وسار على العروة الوثقى ، وانتظم فى عقد الموحدين ، وفى معية المخلصين ، وعامل مولاه سرًّا وعلنا ، وراقبه مراقبة من شاهد ، واستحضر عظمته استحضار مكاشف متحقق ، فرغب ورهب ، وأيقظت قلبه الحوادث الكونية الدالة على فناء ما سوى الحق ، ورقّقت لطيفته الآيات الظاهرة فى الآثار: « إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ » (١) وتعاقب الأدوار ، حتى ثبت يقينه ولم يغتر بزهرة العاجلة ، ولا بمقدمات خيالاته الفاسدة ، وأوهامه الضالة ، ولم يقهره عامل مقتضيات شهوته ، ولا باعث حظه ، ولاداعى أمله ، بل تجردت نفسه من أدرانها ، وتخلت من أوحالها ، بما توالى عليها من العبر ، وما اطلعت عليه فى السير ، وأشرق نور الإيمان فى أفق قلبه ، وسر الإيقان فى فؤاده ، فآب إلى مولاه ، وعادى من عاداه ، فراراً من الكفر بنعمة المنعم ، والجحود بالحق البيّن ، وحاسب نفسه وهواه ، وجاهدها فى ذات الله ، فقرب قرب الولاية الربانية ، لأهل الصفوة من خيرة البرية ، وكوشف من نفسه بأسرارها ، وفتحت له كنوزها عن غيب آمن به تسليماً ، وسر سلّم به مطمئنا ، فكمل يقينه ، وتحقق تحقق من شهد العين بعد الأثر ، وتيقن بعلم مكانته من مبدعها ، ونسبة نفسه إلى موجدها ، حتى تحقق بالحضرتين ، وتناول من الشرابين ، وتولاه مولاه سبحانه وتعالى بولاية التخصيص ، وأخرجه من الظلمات إلى النور ، نور التنزيه عن الإدراك ، نور التحقيق بالعجز عن التحديد والكيف ، نور اليقين والاطمئنان لديها زال اللبس ، وانمحى الوهم ، وكوشف بالملكوت ، ولوحظ بعين العناية ، ويد المعونة ، فحضر حضوراً لا غيبة بعده ، وقرب قرباً دون إدراكه عجزت العقول الكاملة ، فهو الوليُّ لله سبحانه ، والله سبحانه هو الوليُّ له .

٢ — الغَيْبَةُ :

متى ظهر لذى لب يفقه مقام الحضور ، ورفعت ستور الحظ الحاجبة للنور ، رقت لطيفة

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

مطلوب ، وهامت روح محبوب ، وغاب عن القيود مريد ، وسبح فى الملكوت الأعلى مراد بعامل الحسنى السابقة ، و يد المعونة المقدرة « إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » (١) .

أما الذين شقوا فهم فى سجن شهواتهم يعمهون ، وفى حجب غيهم ساهون ، طالت عليهم الشُّقة ، وحجبت عنهم المحجة ، أخلدوا إلى أرض طبعهم ، وأذلتهم أهواؤهم ، فعميت عيون أفكارهم ، وانطمست بصائر مداركهم ، حتى أظلم فى وجههم طريق الرشاد ، وكسفت فى أعينهم شمس التحقيق ، فخبطوا فى بيداء الوهم خبط عشواء ، وتخبطهم الشيطان من المس فهم لا يعقلون ، قبحت محاسن الأخلاق لديهم ، وتجهمت معالم العبادات عندهم ، فاستحسنوا ماناسب حظهم العاجل ، وركنوا إلى الحياة الدنيا واطمأنوا بها حتى كان الموت لا يخطر لهم على بال ، ولا الآيات الظاهرة فى الآثار تنبه منهم غفلات ، ولا الحوادث المتوالية فى كل نفس تلفتهم إلى الحق فيرجعون إليه ويتوبون ، يزيدهم الإمهال غروراً وطغيانا ، والانتقام فى تلك الدار الدنيا يأساً وقنوطا ، ققلت عن الحق قلوبهم ، وصُمّت عن العظة آذانهم ، ورمدت عن شهود الآيات أبصارهم « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » (٢) وقفوا عند عقول قادها الضلال فاعتقلوا بها ، لا بالغيب يؤمنون ، ولا بأنوار الشريعة يهتدون ، إذا ذُكِّروا هزوا رؤوسهم ، ولووا أعناقهم ، وقالوا : العقل أولى أن يتبع . ولو أنهم ذاقوا حلاوة الأنس بالعقل الكامل ووزنوا أنفسهم ؛ لتحققوا أنهم كالحيوان أو أضل ، غابوا عن نور الإيمان ، و بعدوا عن لذة التسليم ،

والله سبحانه وتعالى يمنحنا وإياهم الهداية لسبيل الهدى ، ويدلنا على الحق دلالة يكمل بها اليقين إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تطهير القلب :

إذا طهر القلب من الأغيار ؛ صار بيتا معموراً بالأنوار ، تطهر القلب قد يتحقق عند قوم فى آنات مخصوصة ، حتى لا يشك المشاهد لهم فى أنهم أهل مقام مع الحق سبحانه ، حتى إذا فتنوا بالخير أو بالشر انكشفت حقيقتهم لخاصة الناس ، وهؤلاء ليسوا أهل صفاء ولا أهلا

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠١ .

(٢) سورة الكهف آية ١٠٤

للإقبال على الحق ، لأن أهل الإقبال على الحق من صفاتهم أنهم عند الابتلاء بالخير أوبالشر يسكنون إلى الله تعالى ، كسكونهم إليه سبحانه في غيرتلك الأحوال أو أعظم ، تارة بالصبر لأهله ، وآناً بالرضا لأهله ، ومرة بالشكر ، لأن أهل الاجتباء حاضرون بمعية مولاهم ، فلا يغيب عنهم جماله وجلاله ، ولا تنفك قلوبهم عن مشاهدة كماله سبحانه وتعالى في جميع تجلياته ، مشاهدة تجعلهم لا يتأثرون بتغيرات الآثار ، ولا بتعاقب الأحوال ، إذن فأعمالهم برهان على طهارة قلوبهم مما سوى الحق سبحانه ، حتى صار القلب بيتاً معموراً بالحق ، ومن لم يبرهن بأعماله على ماتكنه سريرته فهو مدع مغرور بنفسه ، يحسب أنه يحسن وهو مسيء .

فطهارة القلب عما سواه مقام من المقامات العالية التي ينتج عنها التوكل ببدايته ونهايته ، والرضا عن الله سبحانه بأجلى حقيقته ، حتى يكون بمواقع البلايا أعظم سروراً ، لتحققه أن الفاعل هو الله سبحانه ، فيخشى أن يكره عملا من أعمال سيده ومولاه ، أويسخط قضاء قضاه خالقه و بارئه ، إلا أنه في مثل هذا الحال يخاف عظمة العظيم أن يتلقى جلاله بفرح وسرور،فيغضب الحق سبحانه ، فيتلقاه متبتلا بتبتل وتضرع وتذلل ومسكنة ، وفزع إليه سبحانه ، واستعاذ به جَلَّ جلاله في دفع هذا البلاء ، معتقداً أنه سبحانه هو الفاعل ، وهو سبحانه المغيث الحفيظ ، فلا يهلع ويلوذ بالخلق ، ولا ينسى عقيدته ويقينه بالله سبحانه ، وإذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بنعمة من العلم أوالكرامة أوالجاه أوالدنيا فإنه يرى ذلك بلاء من الله تعالى ، فعليه أن يلازم الشكر والمحافظة على مقام العبد ، ويعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو الذى تفضل عليه بمحض فضله ، وأنعم عليه بإحسانه ، و بذلك تدوم النعمة عليه و تتوالى أيادى الفضل إليه .

الأمر الجامع والأمر الخاص للإخوان .

الأمر الجامع ما استوى عليه عامة المسلمين وخاصتهم ، والأمر الخاص ما كان خاصا بخصوصية الإنسان من تواجد وغيره ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له خصوصية مفهومة ، ومعه فلان وفلان من الصحابة ، وكل منهم له خصوصية هذا بتواجد ، وهذا بذوق ، وهذا مفكر، وهذا بذكر، وكل منهم على قدر ماعنده « وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ

مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلفَضْلِ ٱلعَظِيمِ » (١) وفى الأمر الجامع يجتمع كل رتبة من المراتب ، فكل طبقة بطبقتها تجتمع بالأمر الجامع ، و بعد فراغهم من ذلك الجامع يتفرقون عن بعضهم ، لكل أناس بحسب مشربهم ، وكل خاصة بخاصتها من فكر ووجد ، فأحوال الشريعة تجتمع فى الأمر الجامع ، وأحوال النبوة تظهر فى الخصوصية ، لأن لهم خصوصية معلومة لهم بحسب وارداتهم وتواجدهم وغيره« وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » .

الوجهة :

الأعمال البدنية مشهد الخلق ، والأعمال القلبية مشهد الحق ، فكل عمل بدنى لا يخلو من دسيسة يتأولها من يراها من الخلق ، ويزنها من يفهم الباعث عليها فتحل محل القبول من الكاملين أو محل الرفض منهم ، لأن أهل الغرة بالله تعالى لا يقبل منهم حكم على أحد فى دين ولا دنيا لأنهم يميلون مع شهواتهم ، ولأنهم يكرهون الأعمال الصالحة ويكرهون الموفق لها ، لأن كل عامل يحب أن يشابهه العاملون ، كما أن أهل التقوى يكرهون السىء من الأعمال ، ويكرهون مرتكبها ، ويحبون التودد إليهم ليقتدوا بهم دعوة لله تعالى ، فالمعتبر عندهم حكم أهل التقوى ، فكل عامل ببدنه لا يخلو من شبهة فى عمله ، إلاَّ إذا صدقه قلبه ، وساعده سره ، وأخلص فى عمله لسيده ابتغاء مرضاته ، لأنه سبحانه لا يقبل على عمل البدن ، ولا ينظر إليه إذا تجرد عن الصدق والإخلاص وحسن الا تباع للشرع المحدود ، بدون مخالفة لصغيرة ولا لكبيرة .

وعلى هذا فالعامل يلزمه العلم بكيفية العمل ، علما صح سنده ، وتواتر نقله ، واتفق على صحته المقتدى بهم من أئمة السلف ، ويلزمه العلم بمكانة المعمول له ، ومكانة العامل منه سبحانه ، ومكانة التكليف بالعمل ، ليكون حاضر القلب عند العمل ، مستحضراً وجود الحق معه عند العمل ، إما بعلم اليقين أنه يسمعه سبحانه ويراه سبحانه ، أوبعين اليقين من (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)(٢) شهوداً منزها عن حدقة الباصرة ، مشبها لنور البصيرة ، ذائقا حلاوة الألفاظ الواجبة ، والحركات اللازمة ، مما يعين مكانته لقلبه تارة بالذل للعظمة والعزة ، وتارة بالابتهال عند الحاجة للمنعم المتفضل ، وتارة قياماً بالأمر للملك

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٥ .

(٢) سورة النحل آية ١٢٨ .

المطلق ، وآونة بالأنس بنسبة أن العامل عبدٌ واقف أمام سيده يناجيه ، ويكلمه بكلامه من مقامات اليقين ، ومراتب القرب ، ومنازل الحسنى وزيادة .

هذه هى الوجهة التى يكون بها العمل حيا لصدوره عن الحىِّ بالحىِّ ، قائما لتحقق العامل بقيومية الموفق لعبادته ، وهذا العابد هو العبد المتمكن فى مقامات العبودية ، الملحوظ بعين العناية ، المخصوص بالحظوة ، الفرد للأحد .

أما أعمال الأبدان المجردة عن تلك الأسرار يقال لها : التكلف والتواجد ، ليجد هذا إذا لم يسبقها باعث لشهوة أو غرض من الحظوظ النفسانية والأهواء الكونية ، وإلاَّ بهذا تكون لغير الله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً » (١) كل هذا لأن العامل لم يوفق لصحبة أهل اليقين . وقد يحصل لكثير من العمال الغفلة عن ملاحظة الأسرار التى تضمنتها أجسام العبادات ، وعبارات التكليف ، مع سبق علمهم بها بالتعليم ، ولكن لما لم يباشر اليقين قلوبهم كما باشرها الهوى والحظ ، صرفوا تلك العلوم فى جلب الدنيا وطلبها وفتح أبواب العاجل منها ، وحب الجاه والشهرة والسمعة ، غفلةً عن الدار الآخرة ، ونسيانا لأيام الله تعالى ، ولذلك فالعلم لا يبعث على التوفيق إلاَّ إذا وافق توفيقا من الله تعالى ، ومعونة منه سبحانه ، بتلقيه ممن سبقت أنوارهم أقوالهم ، وعزائمهم أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم ، فيكون تلقى العمل قبل العلم ، واليقين قبل الجدل ، والشهود قبل الشك . فى الأثر : (الجدلُ علامةُ سَخَطِ اللهِ تعالى) « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » (٢) وفى الحديث (مَن يترك المِراءَ وهو مُحِقٌّ بُنِيَ له بيتٌ فى أعلى الجنةِ ، ومن تركه وهو مبطلٌ بُنِيَ له بيت فى وسطِ الجنة) .

فالوجهة هى الحالة التى يعمل العمل لأجلها وإليها ، وتكون الباعث عليه ، وبحسبها يكون مقام العامل ونزله ومكانته عند الله تعالى ، لأن الله سبحانه وتعالى لا ينظر إلاَّ إلى القلوب ووجهتها وحضورها كائنا ما كان العمل ، نسأله سبحانه وتعالى أن يطهر قلوبنا ، ويجملها بمعرفة المعرفة المُشْرَبة بكمال استحضاره وكمال عنايته بنا ، وحفظنا من الخلل والخطل والزلل والبهتان والغفلة والنسيان ، وأن يمنحنا مراقبة تصحبها مكاشفة ، ورغبة

(١) سورة الفرقان آية ٢٣ .

(٢) سورة الزخرف آية ٥٨ .

يصحبها قبول ، ورهبة تصحبها ألطاف ، وحنانة ورأفة إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله وسلم على مفيض المعارف الإلٓهية ، وغيث اللطائف الربانية ، و باب الوصول إلى حظيرة القدس الأعلى ، وعلى آله وصحبه وسلم .

صفات الرجل :

إن الأسرار الحقيقية والأنوار القدسية هبات إلهية ، ومزايا ربانية ، يختص الله بها من يشاء ممن أهلهم لسابقة الحسنى ، وفطرهم على الإحسان ، حتى أنه سبحانه حصنهم بحصون العناية عن الميل إلى مقتضى البشرية ، ولو إلى مالابد منه لقوام الهيكل الإنسانى ، مما يلاحظهم به من مواجهتهم بأنوار جمالا ته ، فيكون الرجل لشدة حضوره الفطرى قبل الكشف أقرب الناس إلى مكارم الأخلاق ، وجميل الصفات التى هى من شيم العبد الكامل ، بدون وازع ولا باعث إلاَّ أنوار الفطرة المودعة فى جبلته ، المجبولة على الخيربسابقة الحسنى ، وتراه ممزوجا من صغره بالرحمة والشفقة والحنانة بجميع الخلق ، وخصوصا لأقار به وذوى رحمه ، مسالما للناس ، يكره ما يؤذى الخلق كما يكره أن يؤذيه الخلق ، لاوجهة له فى ذلك إلاَّ سجية وعاطفة إلهية .

حتى إذا كشف له عن عوالم أسرار الملكوت ، وغيب مشاهد الجبروت ، كان على أكمل خلق وأتم وصف ، لا يمنعه خلق إبليسى ولا وصف بهيمى عن تمتعه بمظاهر الأسرار الربانية ، فيكون كامل الرياضة ، مستوفى المزايا ، فيترقى إلى مكانات الأبدال الذين بدل الله سبحانه معالمهم بمعالمه ، ومشاهدهم المقيدة بمشاهداته المقدسة ، حتى تنجلى تلك الصفات الكاملة فى المرآة الكاملة ، فتترقى إلى مقامات الأفراد الذين أفردهم الحق لذاته ، بدون خطور أقل خاطر لسواه على قلوبهم ، ولا شهود كائن ما غيره . ويترقى إلى مقامات وراثة الرسالة «إن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُم فُرْقَاناً» (١)

والمتمكن فى هذا المقام هو ميزاب الرحمة ، و باب الهداية ، ومفتاح الأسرار، وهو الذى يسميه الأبدال بالغوث الفرد ، الذى يغيث الله سبحانه به عباده المؤمنين ، ليبين لهم غيوب العلم المكنون الذى هو العلم بالله تعالى ، ويكشف لهم عن أسرار الآيات والأحاديث ،

(١) سورة الأنفال آية ٢٩.

ويومى لهم إلى أسرار الكون وآياته الظاهرة ، وما يشير إليه باطنه ، وهذا هو الرجل الصديق الأكبر الممنوح الهداية والتوفيق ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١) .

الزمن :

الزمن هو حظ المؤمن الذى يَجِدُّ فيه ليتحصل على نوال السعادة الباقية ، فالنفس الواحد عنده أغلى من النفيس ، وأعظم من النفْس ، فهو يجود بما سواه ، ويبخل به أن ينفقه فى غير فائدة تناسبه ، من قربة أو مكرمة أو مبرة أو عمل صالح أو ذكر أو فكر أو علم أو إصلاح أو مساعدة أو صلة رحم ، لأنه يعلم قدر الوقت ، ويعلم أن كل ما يملكه لا يحاسب عليه إذا أنفقه فى صلاح . ولكن الزمن هو لوح الأعمال التى تطويها الأنفاس ، وكل شىء ذهب يعود جوازاً إلاَّ الزمن ، فإنه متى ذهب استحال عقلا رجوعه ، فهو الصحف التى تنشر يوم القيامة ، إن خيراً أو شراً .

فالمؤمن أحرص الناس على زمنه ، وأحزن الناس إذا اذَّكر نفسا خرج بدون أن يربح فيه قربة أو فضيلة ، أو يشهد فيه آية توقظ قلبه ، وتحرك فكره ، وتنبه خاطره ، وتذكره ربه فهو على عدد الآنات يترقى رتبا سماوية ، ويشهد مشاهد ملكوتية لا ينقضى زمن بأسراره إلاَّ أقبل عليه آخر بأنواره ، فهو المُنَعَّمُ ليلاً ونهاراً الحَاضِرُ القلب ، اليقظ الفكر ، روحه فى فترة الأعضاء سابحة فى الملكوت ، آيبة بمكاشفات الآيات ، وفى يقظة الجسد قائدة لجميع الأعضاء العاملة للخير ، فتذوق من كل مشهد أو عمل سرا خفيا فيه ، وآية اندمجت فيه ، فهى متلذذة سرا وعلناً ، والأعضاء مصائد لها لا تخرج عن طاعتها لأن الأعضاء تطهرت من الحظوظ النفسانية ، وانقادت لقوى النفس الملكية . وهذا هو العبد الحاضر المنعم بجنة الشهود .

فاحفظوا الزمن وقوموا بحقوقه ، وأنفقوه فيما به تكون سعادتكم ، ولا تضيعوه فى لهو ولعب أو مباهاة أو مجادلة أو قبيح من القول والعمل ، فينصرم العمر وتطوى صحفه مسودة ، وتنشر يوم القيامة بعدد الأنفاس واللحظات ، ويزول هذا الحظ واللذة والأنس ، ويعقبه الحساب والعذاب : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (٢) .

---

(١) سورة هود آية ٨٨.
(٢) سورة المؤمنون آية ١١٥.

الزمن مطية الوصول ، ومعراج القرب ، وسراج الهداية ، الزمن عرفه من عرف ، وجهله من جهل ، الأنفاس معدودة ، واللحظات محسوبة ، والحاكم هوالله تعالى ، والشاهد عليك أعضاؤك ، والنبى صلى الله عليه وسلم ، والصحف منشورة ، والأعمال ممثلة للعين ، والندم لا يفيد ، فادّكر وتنبه تحظ بالسعادة الباقية ، نسأل الله تعالى أن يمنحنا جميعاً رضوانه الأكبر ، وإحسانه الأعم ، وفضله الواسع ، وإخواننا والمسلمين آمين .

الحظوظ والشهوة الخفية :

الإنسان بحسب فطرته الآدمية ــ قبل أن تسرى فيه نار العامل الإبليسى التى توقر فى الأذان ، وتحجب القلوب بما يحيط بها من دخان الأخلاق والأهواء الإبليسية ــ هيكل نورانى ، سهل الميل ، قريب الوصول ، لا مبدأ له ينهج عليه لغاية يقصدها أو مزية يطلبها ، بل هو مسجى فى تيار التقلب فى نهر المشاهدات ، لا يؤاخذ بجريمة ولا يكافأ بفضيلة ، لأنه منقاد لما يشهد ، ومنفعل بما ينظر ، بدون أقل تدبر أو شعور بنتيجة عمله ، فإذا نما هذا الهيكل وقوى عامل الإنسانية فيه على غير أساس سماوى نشأ كالحيوانات المفترسة ، خلقه بهيمى ، وعمله جنى ، يقوده الحظ ، ويحكمه الهوى ، لا يردعه عن ذلك إلاَّ سوط القصاص ، ورادع السلطة ، فإذا حجب عن ناموس السماء ، ولم يردعه قانون النظام لأسباب اقتضت ذلك ، كان أضر على نفسه من النار ، وعلى الناس من الشيطان : « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ » (١) حِكم دبرها الحق سبحانه ، وأمور قدرها ليكمل النظام ، « فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ » (٢) . « إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » (٣) .

ومن تدبر فى حكمة بعثة الرسل وانتشار الدين ، تارة بالمعجزات الباهرة ، وآونة بالسيف ، وأخرى بالآيات ، وتأمل فى وضع الشرائع ووجوب القصاص ، لعلم حق العلم أن الإنسان ركب من جبلة الميل إلى المفاسد والشهوات ، وانبثت فى جسمه نار الهوى التى حجب دخانها أنوار لطيفته الحقية ، عن شهود الأسرار الربانية ، وعلم يقين مكانته العبدية : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ » (٤) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٥ .
(٢) سورة هود آية ١٠٥ .
(٣) سورة القمر آية ٤٩ .
(٤) سورة سبأ آية ١٣ .

هذا هو الباعث القوى على بعد الذين شقوا وتولوا عن سماع الهداية وقبول الإيمان ، وأبعدهم الحق عن حضرة القرب ومقام التسليم والإسلام .

أما من أسلم وآمن فهو الذى تطهرت صفاته ، وتبدلت سيئاته ، وأشرقت فى باطنه أنوار المعرفة بمكانته ، ومقامات الربوبية ، فرغب فى جمال الحق ، ورهب من جلاله وعظمته ، فهداه بتوفيقه ومعونته إلى الصراط المستقيم ، والمنهج القويم ، فسلك بحوله سبحانه وقوته مسلك أهل الصفاء ، حتى تحقق بالوفاء ، وتفضل الحق سبحانه فمنحه سوابغ الإحسان الأخروى ، على جميل ما منحه من الإحسان الدنيوى « أولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ »(١)

أما من بقى فى باطنه فحمة جمر نيران الحظ ، وخامد نيران الشهوة ، فهو الغافل عن شهود مرتبته ، الذى دفعته نار الملاذ وقوة الشهوة إلى ارتكاب المعاصى ، وساعده على ذلك الجدة والعافية ، وإخوان السوء ، وهو القريب الودود الصافى لو نصح ، فإن وفق الله مثل هذا ورده بنصوح صادق ، وأمده بميل وهوى موافقين ، فحلَّ النصح قلبا خاليا ، وأذنا صاغية ، فارتدع وارعوى ، وحل الخوف فى قلبه والوجل ، ودفعه الحياء والخجل ، فرجع بتوفيق ربه إليه ، ووصل بعنايته لحضرته ، فاهتدى السبيل ووفق لخير العمل : « إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً »

---

(١) سورة القصص آية ٥٤ .

سورة الفرقان آية ٧٠ .

ثانيا : المنح الربانية

١ ـ الإيمان :

يقين عن تسليم يباشر القلب ، فيتسع له تجويفه حتى يمتلىء اعتقادا بما ورد به القرآن الكريم ، وقررته السنة المطهرة من عقائد تزيل الشرك والشك، ويطمئن به طمأنينة تبعث من كمال يقينه انشراحا يعم كل الأعضاء ، فيكون المؤمن على بينة من ربه ، ويقوى هذا الانشراح بقوة الإيمان فتلين جميع الأعضاء للقيام بحسب الاستطاعة عن توفيق الموفق سبحانه للقيام بجميع الأوامر الشرعية بسرور ولذة وحبور، لا يشوب ذلك ملل ولا تهاون ، لما يلاحظه عند القيام بالطاعات من علم الإيمان ، وفهم الأركان ، وبهذا يزيد إيمانه حتى يكمل الإيمان ظاهراً باتباع الأوامر ، والقيام بالواجب ، وباطنا بحسن اليقين والتصديق .

وعلى ذلك فليس المؤمن من اعتقد الحق حقا وخالفه فى أمر مع استطاعته ، سواء كان الأمر صغيراً أو كبيراً ، لأن الإيمان اعتقاد بانفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية ، بدون شريك ولا نظير ولا ند ولا شبيه ولا والد ولا ولد ، مع تنزيهه سبحانه عن الاحتياج إلى مخلوق ، وغنائه عن كل من سواه ، وأنه سبحانه هو الخالق لجميع الخلق ، ولأعمالهم ، بدون مساعدة منهم ، ولا معين من غيرهم ، وأنه سبحانه خلقهم لا لحاجة إليهم ، بل لحكمة اقتضتها كمالاته الذاتية ، وصفاته الربانية ، ليكونوا عباداً متجملين بأخلاقه ، قائمين لجنابه العلى بالعبادة بتوفيقه ومعونته سبحانه . وسَنَّ سبحانه لهم سننا وشرائع أمرهم باتباعها لينالوا الخير فى دار الدنيا والآخرة ، فإن الشرائع جمعت للسعادتين .

هذا القرآن الكريم ، جمع مابين سعادة الدنيا العاجلة والآجلة ، فمن اعتقد ولم يتجمل بما أمر الله به سبحانه من الأخلاق والأعمال والمعاملات ، نقص إيمانه بقدر ماتساهل فيه ، حتى يتوب ويعمل الصالح ، ولا يذوق لذة القرب ناقص الإيمان ، ومن أكمل أدلة الإيمان الإخلاص لله سبحانه ، ظاهراً وباطناً فى كل قول وعمل ونية . ومن علامة الإيمان اشتغال العبد بعيوب نفسه ، ودوام مراقبتها فى سرها وعلنها ، حتى لا يهم إلاَّ بما هو لله سبحانه خالصاً .

٢ ـ التوفيق :

قال صلى الله عليه وسلم : « قَلِيلُ التوفيقِ خيرٌ مِنْ كثيرِ العلم » (١) والتوفيق عند الصوفية هو العمل بما علمه الإنسان ، بحيث لا يترك علما علمه بدون أن يعمل به عند مقتضياته ، ولو دعا ذلك إلى ذهاب المال والنفس، وزوال الجاه والشرف ، أونفور الخلق ، لأنه على يقين أن عمله بما علم رضاء لله تعالى ونوال لثوابه ، ومن رغب عن رضاء الله تعالى وحسن ثوابه بحفظ نفس ، أوبخل بمال ، أوحفظ لمنزلة ، أورغبة فى شرف ، فقد هلك ونقص إيمانه ، ومتى عمل بعلمه راغباً فيما عند الله تعالى ، زاهداً فيما فى الدنيا ، نال الحظ الأوفر، وثبته الله تعالى بالقول الثابت ، وكشف له من أسرار العلوم الربانية والمعرفة بالله تعالى ، مالا يتحصل عليه بمزاولة العلوم ومدارستها أحقابا عديدة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن عَمِلَ بما عَلِمَ ورَّثَهُ اللهُ علمَ مالم يعلم » (٢) .

وليس المراد بالعمل بالعلم أن يتعرض الإنسان ليعمل بعلمه فى الفتاوى والقضاء ، وإجابة العامة فى أحوالهم الشخصية ، بل المراد بالعمل بالعلم العمل بعلم العقيدة ، من الثقة ،والتوكل ، والاعتماد على الله تعالى ، والصدق فى معاملته سبحانه ، والإقبال عليه ، وتعظيم شعائره ، والقيام بحقوقه التى أوجبها على الإنسان بهمة ووجهة صادقة وعزيمة ، فإنه بهذا يكون مجاهداً ، قال الله تعالى : « وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (٣) والعمل بأوامره ، فإن العلم علمان : علم بالله تعالى ، وعلم بأوامره ، فالعلم بالله تعالى تقدم الكلام عليه ، والعلم بأوامره علم العبادات والمعاملات والأخلاق ، فالعمل بها تأدية العبادات بأكمل أركانها وآدابها فى أوقاتها متابعا للسنة والكتاب والإجماع . والمعاملات أن يعامل الخلق بما يحب أن يعامله الخلق به ، ويطالب نفسه بالواجب لهم عليه ، غافلا عما يجب عليهم له ، ابتغاء مرضاة الله تعالى . والأخلاق أن يجعل نصب عينيه أصله ، وأنه من المنى ، ومآله إلى التراب وهو فيما بين ذلك حيوان محتاج إلى الهواء والماء ، لا غنى له عن ذرة من ذرات الكون ، فكيف يكون غنيا عن بنى نوعه والأنواع الحية ؟ فيعاملها بما تقتضيه منزلته من

---

(١) هذا الحديث أورده السيوطى بلفظ العقل بدل العلم ، ورواه الإحياء ، اه وذكره الغزالى فى الأحياء ، وله رواية أخرى عن ابن عمرو بلفظ : (قليل الفقه خير من كثير العبادة) كشف الخفا جـ٢ ص١٤٦ .

(٢) هذا الحديث رواه أبو نعيم عن أنس . كشف الخفا ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

التواضع والذل والاحتياج ، حتى يتقرب إليهم بمصالحهم الخاصة بهم ، ويتقرب إلى من أنشأه من العدم في مصالحه الخاصة به ، فيحبه الناس لزهده فيما في أيديهم ، ويحبه الله تعالى لدوام توجهه إليه ومراقبته ، والإلحاح في دعائه سبحانه ، لأنه يحب العبد المقبل عليه ، وهذا هو التوفيق في رتبة الإيمان .

والتوفيق في رتبة اليقين ، جَذْبُ العبد بعناية الحق لا باختياره ، بل بأن يملأ قلبه يقينا يباشر القلب فيعم جوارحه ، وتشرق أنواره على جميع وجه العبد ، فيذوق لذة العبودية للذات الأقدس ، ويمنح مشاهدة عين اليقين من حضرة التجلي العام بمعنى الأسماء والصفات ، فتنمحي كل الآثار بشدة نور المؤثر سبحانه ، فيكون جل جلال معالِمَ لهذا المراد ، لا يغيب عنه ، فتشتد مراقبته للرقيب الحسيب ، فيعطي بمعونته كل زمان ومكان حقه الواجب شرعا لشدة الشهود ، وهم المحفوظون بحفظ «أولئكَ لَهُمُ ٱلأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ» (1) .

وهذا هو العبد حقا ، الموفَّق صدقا ، والتوفيق في هذا المقام هو التوفيق حقا .

٣ ـ الصدق :

الصدق نور من نور مقامات الإحسان ، يذهب ظلمة الشك والريب من قلب السالك ، فلا يتحقق بالصدق سالك له أقل ميل في سيره لغير الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن علامة غير الصادقين نقصان الثقة عند الحوادث ، وكمال الثقة عند توالي النعم ، ومثله كما قال الله تعالى : «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ» (2) الآية . فكذلك السالك قليل الصدق ، أي الذي يعمل ويضل لعلة خفية ، وغرض نفساني ربما خفي عليه . تراه متردداً في أمره ، لا يثبت على حال من الأحوال ، إن أصابه إقبال من الخلق ، وتوالي نعم منهم أو علي من يتبعه زاد نشاطه ، وإلا تكاسل وانقلب على وجهه . فعلامة الصدق إقبال بقلب لوجه الله تعالى ، وتوجه إليه سبحانه ، لا يساوي بإقباله على الله تعالى منة ولا نعيما مقيما ، ولا دنيا ، ولا شهرة ، ولا سمعة ، بل لم يجعل لله كُفُواً أحداً .

(1) سورة الأنعام أية ٨٢ .

(2) سورة الحج آية ١١ .

هذا هو الصادق حقا ، الذى يرتقي ليتحقق بمقامات اليقين الكامل والإخلاص ، ويذوق حلاوة الأنس بالله تعالى ، وحلاوة التسليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتلذذ بحقيقة الرضا عن الله تعالى ، كما يتحلي بنعمة الرضا من الله تعالى عنه ، وغير الصادق كالحجر الذى لو رفعته انحط إلى الأرض ، وأخلد إليها ، وأتبعه الشيطان . والمرشد الكامل ــ وإن علم كذب المريد ، وتيقن إقباله لعلة وغرض ، وتحقق عدم قبوله ــ فليس له أن يهجره ، ويصد عنه ، بل يلزمه أن يلاحظه بمكارم الأخلاق ، وأن يدوم معه على الإقبال ، فربما مات على الإقبال فنجا من الشرك ، ولا ينبغى للمرشد الكامل أن يتحقق صدق مريده تحققاً جازماً ، حتى يبيح له من المقامات عند ظنه بحسن عمله وإقباله ، فإن الفتن الكونية أشد إظهاراً لسرائر السالك فليصبر عليه ، ويمتحنه تارة بالشهرة ، وأخرى بالمدح والثناء ، وآونة بالمحنة ، حتى يتبين الصادق من غيره ، والله يتولانا بالولاية الخاصة آمين .

٤ ــ الاستقامة :

الاستقامة سر يتعلق بالصفات الحقية باطنا ، والصفات الخلقية ظاهراً ، بعد تطهير الصفات البشرية عن شهود المتابعة الإبليسية ، تطهيرا يصدر عن رياضة البشرية بحسن الأعمال والطاعات ، ويصدر عن رياضة روحانية ، وصحبة الكُمَّل من العارفين ، وتلقى الأسرار الإلّهية عنهم ، المزيلة لحجب النسب والعلل ، التى تنجلى بها مرآة عرش الرب ، حيث تظهر فيها صور الحقائق الرحمانية من أفق اتباع الشريعة ، فيكون عند ذلك ناظراً لله ، سامعاً من الله ، ساعياً إلى الله ، موجوداً حياً مرزوقاً كل ذلك بالله ، فلا يغفل طرفة عين ولا أقل عن شهود الحق ، وبذلك يفوز بالتوبة الخالصة ، ويحظى بمعية سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشرب من رحيق : « فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ » (١)

ولدى سماع هذا الخطاب المقدس يتوج بتاج الرهبة الجبروتية الجلالية العظموتية ، راغباً راهباً عبداً مستقيماً متحققاً بشهود من صار بمعيتهم : « لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (٢) وفى هذا المقام يفنون عن أحوالهم وخواطرهم وارداتهم ومقاماتهم بالتوبة والأوبة والإخلاص والصدق ، موصوفون هم ومن معهم ببشارة : « وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ » (٣) .

---

(١) سورة هود آية ١١٢ .
(٢) سورة التحريم آية ٦ .
(٣) سورة الحجر آية ٤٧-٤٨ .

وفى هذه المنزلة تفاض عليهم الكمالات الإلّهية ، بعد أن يفنوا عن الجمال والجلال ، وتكون عندها العقول قاصرة عن حصر ما يفاض عليهم من الكرم الربانى : « فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١) ويحصنون بحصن منيع محمدى صادر عن حيطة : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »(٢) وهؤلاء العبيد المستقيمون الذين « لَهُمُ ٱلْبُشْرَى فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » (٣) وليس لهم ذكر إلاّ قولهم : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ٱلَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » (٤) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المطلوب يُنَادَى من مكان قريب :

قال تعالى : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ » (٥) .

إن الله تعالى خلق الخلق إظهاراً لقدرته ، و برهانا على عليّ عظمته ، وتبيانا لجلاله وجمال أسمائه العلية ، فمنهم الذى ظهرت فيه أسماء التوفيق والهداية والدلالة ، ومنهم من ظهرت فيه أسماء جماله ، ولاحظته عيون الودود ، وأهّلَه لتلقى الأسرار ونيل الأنوار ، ونعّمه بالنظر إلى جمال غاب عن المحجوبين ، وظهر فى الكائنات . ومنهم المحجوب بحظه المبعود بحسه ، مظهر الضلالة ،ولسان الغواية ، منكر الحق ومعارض أهله ، إن سمع فتنة أجج نارها ، وأسعر شرارها ، وإن دعى إلى الحكمة نفر سمعه وشمخ أنفه ، وكان حربا لأهلها سلما لأعدائها : « اولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » (٦) ومنهم من يقبل بلسانه ويدبر بقلبه ، ولا يدوم إقباله إلاّ وقد انقلب على وجهه : « يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لاَيَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِم وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ »(٧) ومنهم المسلم الصادق سليم القلب ، تشرق الحكمة على أرجاء قلوبهم ، فيميلون مع الحق حيث كان .

---

(١) سورة السجدة آية ١٧ .
(٢) سورة الحجر آية ٤٢ .
(٣) سورة يونس آية ٦٤ .
(٤) سورة فاطر آية ٣٤ - ٣٥ .
(٥) سورة المائدة آية ٨٣ .
(٦) سورة فصلت آية ٤٤ .
(٧) سورة المائدة آية ٤١ .

فالمطلوب للحق من نودى من مكان قريب ، أى من سمع الحكمة وصادفت قلباً مستنيراً بنور الإيمان ، فقبلها كالأرض الخصبة التى تقبل الغيث فتهتز وتربو وتنبت الكلأ ، كما أخبر السيد الصادق صلى الله عليه وسلم ، فإذا قبلها اتسع القلب لها فنور واتصل بالعالم الأعلى ، فشهد بعيون قلبه أسرار الكون ونور المكوِّن ، فغلب عليه حاله ، وقوى باعث الشوق إلى هاتيك المنازل القدسية ، فلم يقو على حفظ وجده ، فباح واستراح وهو المطلوب ، ولا يزداد فى كل نفس إلاّ وجداً . ولم يكن المرشد إلاّ كمن يخبر عبداً لسيد منعم عظيم بما عليه سيده من الفضل والكرم والإحسان ، فيتنبه إن كان ساهيا ، ويقوى وجده إن كان حاضراً ، ويتوجه إلى سيده بصدق وإخلاص ، فيفيض عليه هذا السيد مزيد الإحسان ووابل الإكرام ، ويجدد توالى نعمه عليه ، وسوابغ إحسانه إليه فضلاً وكرماً .

أما الذى بَعُدَ عن السيد ولم يشهد تلك النعم منه ، وحجب بنعمته عن شهوده ، لا يلين قلبه ، ولا يتنور فؤاده ، بل يكون فى ظلمات بعده وحضيض جهله ، وللعاقل فى تاريخ الصديق رضى الله عنه وتاريخ أبى لهب تذكرة لمن تذكر فهذا دعى من مكان قريب ، وذاك دعى من مكان بعيد ، وكلاهما شهد آيات الإعجاز وأحوال النبوة ، ولكن : « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ » (١) .

فالمطلوب للحق لا يرى كفءاً لمطلوبه ، فالجنة ونعيمها والدنيا وزينتها دون مايريد من نوال الحظوة والرضا من الله سبحانه ، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبقدرما يكون الله سبحانه وتعالى منك أيها المريد بقدرما تكون منه سبحانه وتعالى ، نسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المقبولين المطلوبين لرضاه وإحسانه آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وورثته والتابعين آمين .

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٤ .

علم الغيب

الغيب إما كونيا مقضيا أو مقاما خفيا

١ ــ الغيب الكونى :

فالغيب الكونى هو بسر القدرة الذى هو كمال مقتضيات الأسماء والصفات الربانية ، من حيث ظهور تجلياتها بعوالم العلويات وغيرها ، سر كل اسم من الأسماء ، ومعنى كل صفة من الصفات ، وهو علم خفى على النفوس الإنسانية مهما أهلت واستعدت ، وإنما يخيل لذى العادة أنه يحكم على ما يكون بحسب مقدماته الكسبية من التخمين أو التجربة ، حكما يتوهم أنه يقين ، والحوادث الكونية إما إثبات أو نفى ، فقد يسبق القضاء بحقيقة ما توهمه تارة ، ولا يسبق تارة أخرى ، فيتحقق هذا المتوهم أنه علم الغيب الذى يكون ، مع أن الغيب لا يدرك بالحواس ، وهو أن يعلمه الله تعالى بوحى ، أو رؤ يا صالحة ، أو طمأنينة قلب ، أو وجد صادق يفنى به عن القيود الكونية ، حتى يلتحق حُكْماً بالعالم الأعلى ، ولا يظهر الغيب بحال صحو إلا لرسول أُمِر أن يخبر به من صَدّقَ من أهل الاصطفاء ، كما حصل من إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه بالفتن التى تكون بعده عن إعلام الله سبحانه له صلى الله عليه وسلم ، وإخفاء ما يكون عن الخلق لحكمة اقتضتها الإرادة الإلهية ، ليتم ما أراده سبحانه وتعالى على جميع خلقه .

٢ ــ غيب المقامات :

وغيبُ المقامات علوٌّ وسُمُوٌّ وعظمةٌ عن لطائف الأرواح الكاملة ، والنفوس العالية . غيبُ حَدٍّ وكمٍّ وكيف ، لا غيب يقين بنعوت وأسماء ، وهذا هو الغيب المصون وإن رفع قدراً عن الكشف والعيان ، فقد لاح جهراً لعيون البصائر حتى تحققت بمشاهدته تحقق يقين لا يشوبه شك ولا ريب ، تحققا فوق تحقق المشاهد برأسه ، لما باشر السريرة من نور اليقين الحق والإيمان الصادق ، ولا يزال يزداد صاحب هذا الشهود حتى يكمل يقينه ويتم نوره .

وغيب المقامات هو غيب مقامات الأسماء والصفات الإلهية عن الأحداق والمقل ، وغيب حضرة الذات الأحدية المقدسة عن إدراك حقيقتها للبصائر والأرواح المطهرة ، فهذا هو الغيب عن غيب الغيب : « وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ

وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِ » (١) ولكن قد يقوى عامل الوجد على العبد المراد حتى تفنى معالمه الكونية ، بشدة شهود أنوار المكوِّن ، فيغيب عن الكون غيبة مشاهدة للمكوِّن ، فتلوح له أنوار المقام من خلف حجب الجمال فى حال الشوق والرغبة ، فيرى الوَجْهَ فى الوجهِ ، ويلوح له النورُ فى النور ، والديهورُ فى الدهور ، وهو هو « لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ » (٢) « ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ العظيمِ (٣) يافتاح ياعليم يامعطى ياوهاب .

معاملة القلوب لعلام الغيوب :

الأعمال البدنية التى اعتادتها الأعضاء فى آنات مخصوصة بدون ملاحظة قلبية ، ولا استحضار لموجب بعث على عملها ، برهان على غفلة العامل ، حتى يتنبه القلب بما يرد عليه من نور العلم بسر مراد الآمر سبحانه وتعالى فى أحكامه ، ويباشر اليقين لطائف القلب مباشرة تجعله مشاهداً حكماً ، بحيث لو كشف الحجاب لما ازداد . ولديها يكون العمل عن وجد وحضور ويقظة قلب ، ويقين بمقتضى واجب الوقت ، وعندها لا يلتبس عليه عمل لصدور الأعمال عن القلب المتلقى عن الرب ، المنكشفة له معيته سبحانه وتعالى ، فلا ينبعث عن هذا القلب إلاَّ ما يرضيه جلت قدرته ، كان فى ذلك لذة العامل أو ألمه .

ولذلك نرى لأهل القلوب عند تمكنهم من هذا المقام أعمالا اقتضاها الوقت نتجت إما عن حال دعا إليه التمكن من مقام العبودية ، يخيل لمن رآه أنه مخالف للقيود الشرعية ، أو أصيب فى عقله مثل : خروج الرجال عن التسبب ، وميلهم إلى التجريد والتخوشن ، حتى يكون مبتذلاً فى أعين الخلق ، فيطيب وقته مع الله تعالى . وإما نتج عن خوف من غفلة يدعو إليها مقامه ، مثل من يخرج عن حد الاعتدال الشرعى والوسط أمام من عهدوا منه لكمال ، لينفر الخلق عنه خشية إدخال الغرور عليه ، وحرمانه من الود الإلهى ، فيقع فى الشر الذى يسهل الخروج منه ، خوفا من الوقوع فيما هو أشر منه ، الغفلة والغرور.

وهكذا ، لأهل القلوب ممن يقهرهم حالهم قبل تناول الشراب الطهور من الرب سبحانه شراب وراثة الرسل عليهم الصلاة والسلام . لهم ملاحظات فى أعمالهم ، يحفظون بها حالهم

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧ . (٢) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

(٣) سورة الجمعة آية ٤ .

مع مولاهم سبحانه وتعالى ، وإن كان فى ذلك محاربة للقوى البشرية لحبها للشهرة والسؤدد ، وحرصها على جمع الدنيا وهو أخفى الجهاد وأكبره ، أما الوارث فهو ــ لتمكنه من حاله ــ تراه دائما مجملا ظاهره بالحلل المحمدية ، مألوفا لأنه يخالق الخلق ويداريهم ، لأنه انكشفت له سيما الخلق فينازلهم على قدر عقولهم .

وأهل القلوب يحنون إلى النفَس الواحد يتنفسونه فى خلوة عن الناس ، بفكر أو ذكر أو عمل بر أو قربة ، فإذا اجتمع الخلق ستروا أعمالهم وأحوالهم إلاَّ ماوجب شرعا ، وربما توسعوا فى المباح ، وربما وربما مما به تنوير قلوبهم ، ودوام مشاهدتهم ، وليس ذلك بتكلف ، إذ المتكلف بعيد عن العلم ، فكيف يكون مشاهداً ؟ والمتكلف إما مرتكب كبيرة ، وهو الذى يتكلف أعمال الرجال ليقال إنه رجل ، أو هالك ملعون وهو الذى يتكلف أعمال الرجال التى تقرب إلى منازل الوصال ، ليجمع ما يزول من الأموال وتكون له السلطة والعلو فى الأرض بغير الحق .

إنما أهل القلوب من لم تقع أعين بصيرتهم إلاَّ على نور المكوِّن ، حتى ــ لشدة شروق نوره من عَليِّ عظمته وكبريائه ــ صغرت فى أعينهم الدنيا والآخرة ، وصار ما هو لذة لغيرهم ألماً لهم ، وما هو ألم لهم لذة لغيرهم ، فإن فتحت لهم كنوز السموات والأرض ، وتزينت لهم الفردوس الأعلى ، لبخلوا أن يلتفتوا لاستغراقهم فى شهود مولاهم ، اللهم إلا إذا ألفتهم إليها به فشهدوها بعده ، وشهدوه فيها ، فكيف يكون هذا تكلفاً ؟ أو باب شرِيَلِجُهُ أهل الغرور ؟ إنما هذا فضل الله يؤتيه من يشاء . فمن فتح الله له بابا من أبواب معاملة القلوب ؛ فليستيقظ ، فإنه على صراط أَحَدُّ من السيف ، وأدقُّ من الشعرة . وليحاسب نفسه محاسبةَ من يعتقد أنه لو غفل نفَسا لهلك أبداً ، وملاحظته لنفسه أن يبحث عن همه وهواه ، فإن كان فى مرضاة الله تعالى فبِها ، وإلا رجع لعمل الجوارح والاجتماع بالخلق وتزكية نفسه ، والله الموفق .

المعاملة :

المعاملة مراقبة تحث على استحضار نتائج الأعمال بالنسبة الصادرة له ومنه وبه ، حتى تتمثل النتائج قبل العمل ، فتدفع إليه أو عنه ، ويكون العمل مكسوا بحلل الكمال مع السرور والفرح به ، لا من حيث أنه صادر عن العامل ، بل لأنه محبوب للحق سبحانه ، منتج مرضاته ، ويكون الترك للعمل لكراهته وبغضه ، لا لأنه عمل ، بل لأنه منهى عنه مبغوض

للحق ، ويكون العامل فى أرقى مراتب المجاهدة ، وأسمى مقامات المشاهدة ، إذ لا تطيب المجاهدة إلاَّ لأهل المشاهدة .

ولما كانت المعاملات منها البيِّن فى الأمر أو النهى عنه ، والخفى الذى يدق عن إدراك المستبصرين من دقائق المعاملات ، وخفيات الأخلاق ، ودسائس الحظ والهوى ، وجب على العامل الذى يريد النجاة والسلامة ، أو الرضا والكرامة ، أن يكون متمكنا من معرفة الأحكام الشرعية ، التى لا غنى عنها له ، من حيث العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات ، ثم لابد له أن يتباعد عن عمل كل مالم يستبن له فيه وجه الحق ، من حظر أو إباحة . فإذا تزكت نفسه وصح حاله ، لزمه أن يتلقى عن قلبه بعد صحة القصد وإخلاص النية لله تعالى ، فيترك ما يريبه إلى مالا يريبه ، ولديها يعامل مولاه فى معاملته لنفسه وأهله ووالديه وأقاربه والناس أجمعين ، بل وفى كل حى ، فيخاف الله فى خلقه بما فيهم نفسه ، ويرضيه سبحانه فيهم ، ويتقرب إليه سبحانه فيهم ، بحسب ما تقتضيه حالة القربة ، من إكرام ، أو إقامة حد ، أو ما أشبهه . وهى المعاملة الكاملة التى يكون فيها العامل ربانيا ، وينال حظوة معية الله سبحانه له ، بعد تحققه بمعيته لله ، وهو القريب من القريب ، المجيب للمستجيب لله ، المخلَص .

ولما كانت خفيات النفوس ودقائق الحظ مبهمة على المستجدين ، لزم للسالك أن يصحب عارفا بالله تعالى ، عالما بالشُّبَه الخفية ورعونات النفس ، و ببواعث الحظ والهوى ، و بنفثات الشياطين ، حتى يتلقى عنه أسرار الحكمة ، ويستبين له به سبيل الرشاد ، حتى يحفظ فى سيره وسلوكه من مزعجات النفوس وحاجبات الأنوار عن القلوب ، ومن أوهام السوء الباعثة عن الأمل القاطع والحظ الحاجب المنصبغ بصورة الحق ، و بذلك يترقى فى معارج الوصول ، وينشل من أوحال التوحيد ، ومن الرياء فى العمل ، ومن البعد بالأمل ، حتى يكون عبداً صرفاً لذات الله ، عاملاً من عمال الله سبحانه وتعالى ، راغباً فيما عنده ، راهباً من عظموته وجلاله على صراطه المستقيم ومنهج شرعه القويم ، وسنة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

الرفيق فى الطريق :

أيها السالك مسالك الوصول ، الساعى بتوفيق الله تعالى إلى مقام الشهود ، عليك بالأخ

الصادق المخلص فى الطلب ، المجد المحافظ على الأدب ، واجعل سريرتك صافية من جهته ، وكن له كما تكون لشيخك ، فإن الشيخ أيها الإنسان يحجبك عنه هيبته ، وعزمه فى نصيحتك على الهفوات والصغائر من كماله وحسن أدبه . فكن فى سيرك الأول متوجها لأخ سبقك فى صحبة هذا الشيخ ، لعلمه بما يحبه منك وما يبغضه ، ولا تنتقد على هذا الصاحب فى عمل تراه ، خصوصا بالنسبة للشيخ ، فإنه أعلم منك بما يحبه الشيخ ، بل سلم له جميع ذلك ، وإياك أن تعاتبه أوتعاقبه ، أوترفع شكوى فيه للشيخ ، أو تخاصم أحداً من إخوانك ، أوتعادى منهم أحداً ، أو تفوه بإشهار عيب من عيوبهم — خصوصاً أمام الشيخ — وتكلف ستر عوراتهم ، وغض الطرف عن عيوبهم . وخذ منهم ما تراه من جميل الصفات وكامل الأخلاق ، وكلما قدّمك هذا الأخ أمام الشيخ ، فاحفظ أدبك معه ، واجعله أرفع منك مقاماً ، فللمشايخ أحوال يمتحنون بها أخلاق مريديهم ، و يفيضون المدد للمريد على قدر أخلاقه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثانى

مايجب على السالك
أولاً : ترك النفاق

النفاق داعية القطيعة ، ومطية البعد ، ورسول الغضب ، وعلامة السخط ، ومرض القلب ، وفساد العقيدة ، وسوء الخاتمة .

والنفاق علمى وعملى ، ووجوهه تدق خفاء على الكُمَّل من الرجال ، ويخفى ظاهره على السالكين من العلماء ، لأن مصدره القلب المنفعل بمشاهدة الحواس ، الممتلىء فسادًا من دسائس الحظوظ والأهواء وطلب العاجل من الكونيات .

١ ــ النفاق العلمى :

النفاق العلمى ــ أعاذنا الله تعالى منه ــ هو فساد يعترى العقيدة الحقة فيزلزلها ، ونورَ الإيمان فيطفئه ، وشمسَ اليقين فيكسفها ، وذلك غالبا يكون من تعلق القلب بالباطل ، وملئه من الضلال ، وازدحام أرجائه بالشبهات ، فيضيق عن قبول الهدى والحق ، ويكون صاحبه ـ والعياذ بالله ــ آفة على المؤمنين ، إن لم يكن مقهوراً على أمره مُخفيا لعقيدته .

ومن هؤلاء من كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من المنافقين الذين كانوا يخفون أمرهم خشية المؤمنين ، وهؤلاء لا يخلو منهم زمان ولا مكان ، فإن قويت شوكتهم أعلنوا ما أضمروا ، بأدلة وبراهين محلاة بالأباطيل ، ولهم أعوان وأخدان ، فإن قُهروا أسروا بأسرارهم إلى مرضى القلوب ، الذين لم يذوقوا نور الحكمة ، ولم يتمكنوا من علم اليقين بالحق سبحانه ، فتراهم يظهرون أمام أهل الحق بأنهم منهم ، ولكنهم يُعْرَفُون لأهل القلوب ، وَيُعْلَمُونَ بلحنهم وقولهم .

ودواؤهم صعب من أكمل مرشد ، إلاَّ أنهم لم يشتهروا بين الناس بأنهم منافقون وإن لم يعلنوا ذلك لأحد من خاصتهم ، إن لم يرجعوا عن عقائدهم ومعلوماتهم .

وينتج عن هذا النفاق العلمى أمور منها : الخروج على الخلفاء القائمين بإحياء سنة النبى صلى الله عليه وسلم وتنفير قلوب المؤمنين ، وتفرقة كلمتهم وجماعتهم ، والسعى بهم إلى أعدائهم ، والإنكار على أولياء الله تعالى أحياء وأمواتا ، وتنقيص مقامات الأنبياء ،

والعبث ببعض الأحاديث الواردة فى فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق ومدح العمال ، والميل إلى حب الجاه والسؤدد وضياع الوقت فى التشويش على العامة ، وزلزلة عقائدهم والمهانة بالسلف الصالح ، وتهزىء آرائهم ، وتقبيح اجتهادهم ، كل ذلك بعض ما يكون عليه المنافق علما . أعاذنا الله تعالى وإخواننا من شر أعمالهم ومعتقداتهم وأقوالهم وأحوالهم ، إنه مجيب الدعاء ، وهؤلاء لا يصلى عليهم المؤمنون ولا يقومون على قبورهم .

٢ ــ النفاق العملى :

النفاق العملى مرض يعترى الهمة العلية ، و يقود العزيمة الصادقةفيمنعهاعن القيام بواجب فرض أو مرغب فيه أو محبوب ، بشرط أن يكون التساهل ناشئا عن ميل القلب عن إطاعة الأوامر ، والتهاون بأمره ، وعدم العناية به ، شاعراً بذلك من نفسه ، منشرحاً بتساهله ، أو عاملا بغير ما أمره ، أو عاملا عملا آخر مطمئنا به منشرحا بعمله ، كل ذلك من النفاق العملى ، وصاحبه فى الحضيض الأسفل من المراتب ، يتلاعب به الشيطان ، وربما قوى عليه فجعله شيطانا إنسيا ، يقود الناس للضلالة والقطيعة ، كما كان يعمل المنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من التأخير عن الصلاة بالتجارة ، أو يحضرون الصلاة ومعهم الأصنام ، أو يتأخرون ليعملوا عمل اليهودية أو النصرانية ، وتمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق عليهم بيوتهم إذا تأخروا عن صلاة الصبح ، وربما نال المنافق ما به يكون وعاء للعلم غير عالم بأسراره ، فيدفعه هذا الحظ إلى النفاق كما فعل مسيلمة بعد أن أسلم وتعلم القرآن ، خرج وادعى النبوة ، وجعل له قرآنا ، وأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج ومعه قوم صدقوه .

وهكذا كل زمان به من المنافقين من العلم والعمل كثير، يخرجون على الخلفاء والأولياء والمخلصين من عباد الله تعالى ، وأضر نفاق عملى أن ترى نفسك خيراً من موجود ، أو تتحقق أنك نافع ، أو تزاحم أخا لك لتنال منزلة فى قلوب الناس ، أو منزلة من الدنيا ، أو تذم أخا لك على قبح لتنقصه فى أعين الخلق ، مع قدرتك أن تنصحه فى خلوة بالتى هى أحسن .

ومن أشد النفاق أن تدعى ماليس لك من الأموال والنسب والعلوم والأعمال ، لتظهر فى أعين الناس . ومن النفاق الموجب لسوء الخاتمة كفران نعمة المنعم من الوالدين والمعلمين والأمراء ، ومن له فضل عليك فى دين أو دنيا ، أو إرشاد للخير، أو سعى للخير

أو مساعدة.ومن النفاق القبيح أن تشيع الفاحشة أوتنشر ما ينقص مؤمنا ، أوتتعرض لإساءة مسلم بسؤاله ، أومعارضته وتكدير خاطره . ومن النفاق نقل الأخبار وإفشاء أسرار المجالس والسعى بين الخلق . ومن النفاق أن تظهر نفسك بحال ليس لك ، ولكنك اكتسبته من غيرك وله الفضل عليك ، فتخفى صاحب النعمة المباشر لك وتنكره ، ومن النفاق حب جمع المال والبخل ببذله لأنه يضعف اليقين . ومن النفاق تحقير أهل الحكمة فى غيبتهم وتعظيمهم فى مواجهتهم ، وهو سبب الحرمان . وأنواعه كثيرة تعلم لأهل القلوب المشرقة بنور المعرفة .

ثانيا : تزكية النفس

التوسط النوعى :

قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » (١) .

إنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق إظهاراً لعظمته ، وإشهاراً لقدرته ، لاعلى مثال سبق ولا مادة موجودة « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » (٢) على مقتضى الحكمة الإلهية ، وتخصيص الإرادة الصمدانية ، أبدع الخلق من العدم ، وبدأه على أكمل صورة وأجمل نظام ، نطق بقدرته ، وأشار بعظمته ، ونزه ذاته ، وأثبت صفاته ، وجعله مرتبطاً أعلاه بأسفله « فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ » (٣) فما من ذرة أو خردلة ،إلاَّ ولها خصوصية تكمل الوجود بها ، أومزية احتاج الكون إليها « ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ » (٤) حكمة حكمت ، وقدرة أبدعت ، وإرادة خصصت ، فسبحان من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

وجعل سبحانه تلك الأنواع الكونية مرتبة بمزايا ملكوتية ، تتفاوت بها عن غيرها ، حتى أن النوع المؤهل للكمالات ــ إذا قصر فى إدراكها بغير مانع معتبر شرعا ــ تنقص قيمته النوعية ، و يلحق بما دونه من الأنواع السافلة بالنسبة له « إِنْ هُمْ إِلاَّ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » (٥) وللفطرة فى ذلك عظيم تأثير. وليست الأنواع تتفاوت إلاَّ بالنسبة إلى غيرها من

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ . (٢) سورة يس آية ٨٢ .
(٣) سورة الملك آية ٣ . (٤) سورة الملك آية ٤ .
(٥) سورة الفرقان آية ٤٤ .

الأنواع ، فكلما كان الفرد اشبه بالأنواع التي هي أرقى منه ؛ امتاز عن نوعه واتصل حكما بما تشبه . كبعض الحيوانات التي تشبهت بالإنسان في الاستئناس والمنفعة والألفة ، فإنها ألحقت به حكما من العناية بها ، وتعظيمها والمحافظة عليها عند الإنسان نفسه . وهكذا هذا النوع الإنساني إنما يمتاز في نوعه عن نوعه ويلتحق بالنوع الأعلى إذا قهر قواه النوعية ، والتحق خلقاً وعملا ومنفعة بالعالم الأعلى ، فيكون منه حُكما . ولا يكون ذلك ممدوحًا كمال المدح ؛ إلاَّ إذا توسط الإنسان بين القوتين ، حتى سخر القوى الحيوانية لرغائب القوة الملكية ، مع مزاولته للأعمال الحيوانية ، وطلب لوازمه الضرورية بالوجه التي تطلب بها ، مستحسنا تلك القوة بباعث الأخرى . وإن كانت الرياضة لا بد منها في بداية الأمر ، لتتمرن القوى الحيوانية وتتذلل ، وتنقاد بسهولة لمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق ، حتى تنصبغ بالصبغة الإلهية ، وتتجمل النفوس بالأخلاق الملكوتية ، وتصير لها فطرة وسجية ، بدون جهاد غلبة الطبائع التي تحجب لطائف النفوس عن تلقي الأسرار الربانية ، وعن مشاهدات الآيات والأنوار من الحكمة والتبيان .

ولذلك كانت القيود الشرعية والتكاليف في البدايات ؛ رياضات ومجاهدات . وفي توسط السير وقرب طهارة النفوس وتزكيتها ؛ قربات وأوراد . وعند النهايات ؛ تعبداً ومشاهدات ومقامات . وتعرف الرجال بالخبرة في التمكن من عمل المكروه ، فترى المنتهى لا يعمله فطرة وسجيةً ، ولا يلاحظ أنه تركه لشهود الحق في كل شيء ، وتحققه من مراده عند كل شيء ، فهو الحق والحق معه . وغيره من أهل البدايات يدعوه داعيان : داع للحق ، وداع لغيره من قِبَل نفسه . فيجاهد نفسه في ترك الباطل ، ويتلذذ بقهره لنفسه ، ومافاته من المشاهدة القدسية حال اشتغاله بهذا الباعث أكبر حظا عند الله تعالى منه ، ولكن اقتضت الحكمة العلية « هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ ٱللَّهِ » (١) فالسالك إذا تعدى قوى تُؤثِر الحظ والهوى ، و بلغ مقام الصبغة الحقة ، ونهج مناهج الحفظ سالكا مسالك الصراط المستقيم بفطرة سليمة ومحجة واضحة ، يبلغ مقامات المقربين ، ويدرك منازل الصديقين .

التقوى والرهبة :

١ ــ التقوى خوف جبروتي ملأ القلب ، فسطعت أنواره على الأعضاء العاملة بقوة عامل المراقبة العلمية التي ذاق حلاوتها الواصل ، بعد العلم الحق والتحقق بأن الله سبحانه أمر

(١) سورة آل عمران آية ١٦٣ .

ونهى ، وفهم بنور اليقين عظمة الحق ، فخافه أن يراه فيما نهى عنه ، وأحب أن يراه فيما أمره ، فاتقى الله سبحانه وتعالى فى كل حركة وسكنة وكلمة ، وأكل وشرب ونوم ويقظة ، فهو فى كل أحواله مراقبٌ الله سبحانه وتعالى فتقرر أن التقوى عامة ، وأن قوله سبحانه وتعالى : «وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ» (١) عام ، أى : اتقون عند كل عمل قلبى أو بدنى باتباع أوامرى واجتناب النواهى ، وبهذا يكون العبد تقيا .

٢ ـ أما الرهبة فهى نتائج حق اليقين وهى خاصة ، وقوله تعالى : « وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ » (٢) خاص وهو سر التحقق بالعظمة الذاتية تحققا يفيد العلم بإطلاق تلك المكانة إطلاقا منزها عن الحكم والقيود العقلية ، إذ هذا المقام فوق العقول والإدراك والتصورات ، لا يقيد بعادة ولا بحكم ، إذْ أن الحق سبحانه هو الحاكم ، والحكم منه على غيره لا على ذاته ، فهو يحكم بما شاء أن يحكم به ، وينفذ ما شاء أن ينفذه من أحكامه ، أو يبدل ما حكم به . وليس مقتضى حكمه أنه مقيد بحكمه ، ومطالب بتنفيذه ـ تنزه الحق سبحانه وتعالى ـ وهذا سِرٌّ غامض لا يذوق حلاوته إلا من كشف الله سبحانه وتعالى له بصيرته ، وأطلعه على أسرار ملكوته الأعلى . وانظر أيها العارف سر قول سيدنا موسى : « إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَو أَن يَطْغَى » (٣) بعد أن سمع (لَا تَخَافَا) فلم يطمئن حتى أمنه بقوله:« إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى) (٤) فأمِنَ أمناً ثانياً من جهة الحق سبحانه بعد الأمن من جهة عدوه ، إذ خوف هذا السيد الذى هو من أولى العزم خوف رهبة من ذات الأحد سبحانه ، لا خوفا من فرعون وملئه ، وهذا الخوف هو الرهبة الذاتية .

ومن تجرد قلبه من التقوى والرهبة ؛ لم يتصف بلوازمهما من الخشوع والخشية والخوف والمراقبة والمحاسبة ، ومتى تجرد القلب منها تردد فى إيمانه وشك فى خاتمته ، نسأله الله سبحانه وتعالى أن يمنحنا التقوى ، ويجملنا بالرهبة والرغبة ، ويختم لنا بالسعادة إنه مجيب الدعاء .

---

(١) سورة البقرة آية ٤١ .
(٢) سورة البقرة آية ٤٠ .
(٣) سورة طه آية ٤٥ .
(٤) سورة طه آية ٦٨

الكبائر لأهل الغفلة :

قال الله تعالى : « إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (١) . الكبائر أصولها سبع عشرة كبيرة :

١ ــ أربعة من أعمال القلوب :

أ ــ الشرك . ب ــ الإصرار على المعصية .

جـ ــ القنوط من رحمة الله . د ــ أمن جانب الله تعالى .

٢ ــ أربعة في اللسان :

أ ــ شهادة الزور . ب ــ اليمين الغموس .

جـ ــ قذف المحصن المسلم البالغ . د ــ السحر .

٣ ــ ثلاثة في البطن :

أ ــ شرب الخمر وكل مسكر . ب ــ أكل مال اليتيم ظلما .

جـ ــ أكل الربا مع العلم .

٤ ــ اثنتان في الفرج :

أ ــ الزنا . ب ــ عمل قوم لوط .

٥ ــ اثنتان في اليدين :

أ ــ القتل . ب ــ السرقة .

٦ ــ واحدة في الرجلين :

الفرار يوم الزحف بغير وجه شرعي .

٧ ــ وواحدة في البدن كله وهي: عقوق الوالدين .

وهذه الكبائر لأهل الغفلة .

الكبائر لأهل الشهود :

أما أهل الشهود فلا صغيرة عندهم ، بل كل ما خالف ــ ولو مكروها ــ فهو كبيرة ، لحضورهم مع الملك سبحانه ، ومواجهته لهم سبحانه ، ومريد الحظوة لا يستصغر هفوة ، وراغب الرضوان لا ينسب لنفسه حسنة ، لعلمه بمقام من يتقرب إليه سبحانه ، فلا صغيرة

---

(١) سورة النساء آية ٣١ .

فى معصية ، ولا كبيرة فى طاعة . فأجل طاعة كبيع النفس والتقرب بها فى الجهاد صغيرة عند المشاهد ليقينه بمنزلة الحق ، وكل هفوة صغيرة من السهو كبيرة كالشرك عنده ، لكمال حضوره والوقوف عند المأمور به ، وترك المنهى عنه ، شأن الكسالى الذين لم يذوقوا حلاوة الأنس بشهود الحق ، ومن عرف المطلوب هان عليه الطلب « وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ » (١) . سبحانه دون رضاه كل حظوة فى روضات الفردوس الأعلى . ونفَس أو أقل أنساً بشهوده دونه كل نعيم مقيم ، سبحانه وتعالى ، إنما يفرح بالحسنة ويساء بالسيئة المؤمن . وإنما يفرح بالشهود ويساء بالحجاب المحسن ، وإنما يفرح بالله تعالى الموقن الذى نزه ذاته وقدس أسماءه حتى تحقق بعلم : « قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ » السورة . « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا » (٢) . « ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » (٣) . فمنهم ومنهم ومنهم ... نسأله سبحانه يقينا يباشر قلوبنا ، حتى نتمكن من علم : « قُلِ ٱللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » (٤) وإخلاصاً فى منزلة العبد لذاته الأحدية إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد شمس الهداية ومهبط البر والإحسان ، وعلى آله وصحبه وورثته والتابعين آمين .

إذا زكت النفوس فهى الشموس :

النفس قابلة للتنويع ، قد تنحط حتى تكون شيطانا ، وترتقى حتى تكون مَلَكا ، وهى التى لو أطلقت أفسدت ، أو قهرت كمنت حتى تتزكى ، فإذا تزكت كان إطلاقها أنساً بمعية الحق ، وتقييدها حفظا لمقام العبودية ، فتكون فى تقييدها مطلقة ، وفى إطلاقها مقيدة ، كل ذلك بعد تزكيتها . ولتزكيتها وسائل تخفى على كثير من أهل العلم ، وتدق على أكثر العُبَّاد والزهاد إلا الأعلى متمكن من معرفة النفوس وعلم تهذيبها ، ومعرفة معارج رقيها ومدارج بعدها ، ومقادير الرياضات التى تستعمل لها ، حتى يصل الطبيب إلى زوال الداء ، وتقوية المريض ، حتى يصل إلى مقام كمالاته وجمالات عافيته .

ولهذا كان الجهل بطرق تزكية النفوس سببا فى هلاك كثيرين ، ممن ترك الرقى على معارج القرب ، ولم يتوسط فى مجاهدة نفسه بإفراط أو تفريط ، فإن النفس إذا تزكت

(١) سورة الإخلاص آية ٤ .
(٢) سورة البقرة آية ١٤٨ .
(٣) سورة فاطر آية ٣٢ .
(٤) سورة الأنعام آية ٩١ .

صارت شمساً تدور حولها جميع العلويات والسفليات ، وتستمد منها الإضاءة . وإذا بقيت في سجن ظلمتها وحضيض سفلها يأتيها وقت تتمنى فيه أن تكون تراباً .

أنواع التزكية :

١ ــ النوع الأول : و به تكمل تزكية النفس المشاهدة عن علم التوحيد وهو تزكية للمقربين ، فإن من ذاق حلاوة التوحيد فى الأفعال والصفات والذات ؛ كان من الأفراد الكاملين ، وكان فى أعلى مراتب المهذبين ، لأن اليقين الحق حَفِظ نفسه من هوى يعميها ، وطمع يذلها ، وأمل يغويها ، وعمل يغرها ، لمشاهدته أن الكل من الله و بالله وإلى الله ، وهذه المشاهدة مطالب بها كل مؤمن ، بحيث لا يكون مؤمناً كامل الإيمان إلا بقدر كمالها .

٢ ــ النوع الثانى:وهو أرقى مراتب التهذيب لسماع القرآن الشريف بألحان العرب ، من حسن الصوت ، وسماع الحكمة المطهرة للأخلاق ، وسماع الخطب والمواعظ من معتقد فيه كامل ، ومن قراءة سير الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وخلفائهم وورثتهم ، والعلماء بالله ، حتى تنطبع تلك الحقائق فى خياله ، فتصدر عنها أعماله وأحواله وأطواره موزونة بميزانه ، وأهم هذا النوع صحبة أهل النفوس القدسية ، والمرشدين العلماء العاملين فقد يكتفى الرجل بمجلس معهم لتزكية نفسه ، ومن المعين عليها سماع الأغانى خصوصا إذا كانت فى معانى التوحيد وصفات الربوبية .

٣ ــ النوع الثالث : قمع النفس بزواجر ترك المألوف ، وحبسها فى سجن الزهد عن كل شهواته وحظوظها ، والصبر على ذلك ، والميل بها إلى الوعر والخشونة حتى تذل ، وتدوم على ذلك حتى تعتاد وتألف .

ومن هذا النوع ، أن يترك بعض المباح له ، ويكثر من القربات والنوافل ، ،وأن يستعمل ثياب المهانة ، وأكلها وعملها . وهذا النوع يكون كالكى للنفس من أدواء توقع فى الكبائر .

وهذه الأنواع الثلاثة ينبغى أن يكون استعمالها على يد طبيب ماهر، لأن لكل منها مضار نفسانية ربما أوقعت السالك فى مهاوى القطيعة بهدم الأسوار، أو بالتشبيه فى مقام

التنزيه ، أو التنزيه في فقام التشبيه ، أو الغرور بالعمل والمجاهدات المهلكات كما يستعمل المريض الدواء بدون إشارة الحكيم و بدون علمه ، فيكون مهلكا له .

٤ ـــ النوع الرابع : تزكية النفس على تزكيتها ليدوم أنسها بربها ، ولا يكون إلاَّ لأهل الشوق المزعج والغرام المحرق ، ولهم فيه أساليب تدق على أهل المقامات .

فقد يفعل ذلك : المرشد في تمكينه ، والمكاشف في شهوده ، والسالك في مسلكه ، والواصل في نهايته ، وهم درجات عند ربهم . فقد يخرج من التجريد إلى السبب ، أو من السبب إلى التجريد ، أو من نفع الخلق بالعلم إلى الفرار في الصحارى والقفار ، أو من الأنس بالخلق إلى الوحشة منهم والخلوة ، أو بالأعمال التي لا يعملها إلا السوقة والبطالون ، يتكلفون ذلك ليدوم أنسهم بربهم و إقبالهم عليه ، وهذا النوع قد يتلقى عن القلب ، أو يتلقى عن الرجل .

فإذا كنت مع الإمام فقف معه بالاستسلام ، و إذا لم تكن معه وخشيت على نفسك الوحشة من الله ، والبعد عن جماله العلي ، ففر وتكلف ما به أنسك ، ولو كان فيه نقصك ، مع حسن النية والقصد ، والوقوف عند الأدب حال الطلب ، وترك المراء والعناد إذا قيل لك أسأت أو أخطأت ، فإنما فعلت ذلك لتسقط من العيون وتسقط من القلوب . فإذا خرجت عن سياقها ، وخالفت موضوعها ، فاعلم أنها خدعة إبليسية ورعونة نفس خبيثة ، وبهذا تزن مواجيدك عند همك للتهذيب . فإن تلذذت بما ينفر عنه الناس ، واستوحشت بما يتلذذون به فاعلم أنك على قدم الصديقين .

النفس :

النفس قد تواجهها الأنوار؛ وهي لم تتطهر من الأكدار ، فتحلى بالانقياد ، وتظهر بالرشاد ، وهي منطوية على صفات بهيمية وأخلاق إبليسية . ثم تقوى تلك الأنوار على ظاهرها حتى تمزق شغاف الظاهر منها ، وتنبعث في باطنها ، فتطهر من الباطن وتجمل باليقين ، فيكون الانقياد عن يقين وصدق وقوة إرادة ، و بذلك يكون لها المزيد في كل نَفَس ، وهذه هي النفس المرادة للتزكية والفلاح . و إن لم تقو عليها الأنوار ، بل حامت

حول ظاهرها فطابت هنيئة ، ولم تنفذ تلك الأنوار إلى باطنها ، فإنها لا تلبث إلاَّ ريثما تنحط إلى حضيضها ، وترجع إلى أسفلها وذلك بحسب السابقية .

ومن أكمل علامات النفس المؤهلة للمزيد العناية بتلقى النافع المفيد ، وانصرافها عن غيره بلا بحث ، بحيث لا يتمكن الشيطان من أن يدس عليها دسيسة ، أويلفتها إلى الرعونات ، لأنها موجهة إلى تلقى النافع ، منصرفة عما لا ينفع ، فإذا شهدت من المرشد أمراً تنكره بحسب معلوماتها أوَّلته بحسب مقامه ، وسلمته لحاله ، وسارعت فيما تعلم المنفعة فيه لها ، ولذلك فإن المرشد الكامل يخفى الأسرار عن أصحابه بما يناسب مراتبهم فى عينه ، ولا يبيح لهم إلاَّ بما لا يزعجهم أوينفرهم خشية من أن تكون النفس منطوية على خبث ، وإنما تحلت ظاهراً بمواجهة أنوار خاصة ، وقد تواجه الأنوار بعض النفوس فتتجمل من نَفَس واحد بجمال ينبىء بالوصال ، وإرادة تنبيء بالكمال ، ومع ذلك فالنفس قرارة أكدار ، وخزانة ظلمات ، والمرشد الكامل يعلم ذلك بسيما المريدين ، فهو يلاحظ أهل النفوس اللقسة ملاحظة الغرباء ، من التكليف لهم والعناية بهم ، والحفاوة بهم ، خشية أن ينشرح بهم صدره أوينبسط لهم حاله ، فيكون قد مكنهم منه بكشف أسراره لغير أهلها .

لا تظن أن أسرار الرجل هى ما يبديه فى مذاكرته وأقواله ، فإنك تراه لا يكثر كلامه ولا يقوى حاله فى العبارة إلاَّ أمام محاربيه أو معارضيه أو الجاهلين بقدره ، وإنما هى أن يُنزل المرشدُ المريدَ منزلة نفسه فى شئونه ظاهراً ، وينزله منزلة ابنه فى شئونه باطنا ، فتحصل الإمدادات بين النسبة والنسبة والرتبة والرتبة . رفع التكلف بينهما حتى صار المريد بمنزلة الولد الذى يستحسن من والده كل مارآه ولو كان قبيحاً فى حقيقة الأمر ، وصار المرشد كالوالد الذى يحب أن يتجمل ابنه بأجمل حلل يجمل بها هو وزيادة ، ويكون المريد كما قال صلى الله عليه وسلم « والولدُ من كسبِ أبيه » (١) ولذلك فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يفرحون بالأعرابى ليتلذذوا بسماع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، لأنهم يستمدون من رسول الله صلى الله عليه وسلم بلطائف سماء الأرواح ، ويشتاقون إلى الاستمداد منه صلى الله عليه وسلم بالأشباح .

---

(١) أورد هذا الحديث السيوطى بلفظ : (الولد من كسب الوالد) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر.

المريد الصادق بالنسبة الأولى أوجب الشرع على والده نفقته ، وأوجب على الولد أن يكون هو وماله لأبيه (١) . فالنفقة واصلة إليه من السماء ومنزلة عليه من عروش القلوب ، لا يحتاج إلى ذلك فى عبارة ، ولكن العبارة حجة المشاهدات ، وشمس سبيل المكاشفات ، بها تطمئن القلوب ، ويقوى اليقين ، ويثبت الحال ، فلا تُنْزِلْ أحداً منك تلك المنزلة إلاَّ إذا تحققت بتزكية نفسه وتطهيرها ، وإلاَّ فَألِّفْه تأليفاً وحاسنه محاسنة ، حتى إذا تذكر أفلح ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يزكى نفوسنا ، ويهدينا صراطه المستقيم ، ويجردنا من كل خلق يكرهه ، أو حال يبغضه ، أو عمل يوجب مقته ، ويجملنا بحلل فضله العظيم ورضوانه الأكبر وإحسانه العميم ، ويحفظنا وأهلنا وأولادنا وإخواننا من كل شر إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

النفس المفطورة على الكمالات والنفس المجاهدة

١ ــ النفس المفطورة على الكمالات :

لما كانت النفوس تتفاوت بحسب الاستعداد والحيطة التى تحاط بها من الناس وأنواع المشاهد ، فقد تكون النفس على معان من الكمالات ، فتختفى تلك الكمالات بمعان رديئة مكتسبة من الناس الذين أحاطوبها ، والمشاهد التى أحاطت بها ، وندر أن تحفظ النفس كمالاتها وهى فى حيطة سافلة إلاَّ إذا أمدها الله بداع طاهر الأخلاق وكامل الصفات ، إلاَّ أن النفس المفطورة على الكمالات تنشأ أقرب إلى الخير وآلف للفضيلة ، وأقبل للكمالات ، وأبعد عن النقائص ، ولذلك فإنها تكون أقرب تأثراً بالحكمة وأسرع عملا بها ، وأبعد عن الشر ؛ إلاَّ إذا اضطرت إليه وألجئت . ولكنها إذا وقعت فيه تزول بسرعة بواعثه عنها ، وتقع فى اللوم على تكلفها ماليس من طبيعتها ، وتنصرف إلى الخير مبادرة ، وهى النفس المفطورة على الفضائل والكمالات ، الميسرة للبر ، المؤهلة للرقى لعلىّ الدرجات ، التى صفت من كدورات الكائنات ، وتزكت من خبائث الأهواء والآمال ، وللطافتها تخترق مادتها أنوار الحكمة ، فيحصل الكشف لمعانى الحكمة بقوة اليقين ، أولصحة التمكين ، وتلك النفس وإن أحاطت بها دواعى الرذائل ، وأسباب السفاسف ؛ فإنها لا تلابسها ملابسة قابلية ، ولا

(١) مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام : (أنت ومالك لأبيك) حيث روى ابن ماجة عن جابر أن رجلا قال : يارسول الله إن لى مالاً وولداً وإن أبى يريد أن يحتاج مالى . فقاله عليه الصلاة والسلام .

تشاكلها مشاكلة ميل ، لعدم القابل منها لها ، وتلك هى النفوس العالية التى امتازت بأكمل الخصوصيات ، نَفَسٌ يرفعها للملكوت الأعلى ، وإشارة تشهدها الملأ الأعلى .

٢ ـ النفس المجاهدة:

أما النفوس المجاهدة فهى النفوس التى تلوثت بسافل الأخلاق لما تقذرت به من طول الأمل والأطماع ، ومن الغفلة عن المبتدأ والمآل ، فإذا أحيطت بحيطة فضيلة وإحسان ؛ ومنحت واعظا مؤثراً ؛ ومرشداً متمكنا ؛ جاهدت حتى تتزكى . وإن أحيط بها حيطة تلائمها فيما فطرت عليه ؛ كان ذلك داعيا لكثافة الرين حتى يظلم أفق التسليم ، ويبدل الأنس بالوحشة ، والميل بالجفاء ، ويسود القلب بما ينكت فيه من ظلمات المفاسد الخلقية ، والرذائل الحيوانية والإبليسية ، وليس لتلك الظلمات المتكاثفة على القلب من دون الله كاشفة ، فالفطرة على الفضيلة تنمو حتى يكون صاحبها الإنسان الكامل ، الذى انطوت فيه العوالم كلها مشهداً أوعلم يقين إذا أمدها الله بحيطة الخير، وأعانها بمدد روحانى . والنفوس المفطورة على الرذيلة تنمو فيها حتى تكون شيطانة إذا مدت بمشاكلها ومجانسها . قال الله تعالى : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » (١) وقال تعالى : « قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا » (٢) لأهل البعد . وقال لأهل القرب : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا » (٣) فسابقية الحسنى منه والمعونة به ، وسابقية الشقاء منه والمدد به : « يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ » (٤) . نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن سبقت لهم الحسنى ، وأن يمدنا بجميل وداده ، ويجملنا بحلل رضوانه الأكبر، إنه مجيب الدعاء .

ثالثا : الجهاد

الجهاد الأكبر:

مهما ترفع مقام السالك ؛ وطهرت نفسه وزكت ؛ وتجملت أخلاقه ؛ وتخلى عن سفاسف الأمور الأخلاقية ؛ فإن لرتبته الإنسانية ونفسه الحيوانية حد محدود ، ومقام معلوم ، لا يمكن أن تتعداه بسهولة ؛ ولا تتخطاه منقادة مريدة ؛ إلا بمجاهدة . ولا يقوم بها إلاَّ من سبقت لهم

---

(١) سورة هود آية ١٠٥ . (٢) سورة مريم آية ٧٥ .

(٣) سورة مريم آية ٩٦ . (٤) سورة النحل آية ٩٣ .

العناية ، ولايصبر عليها إلاَّ من اصطفوا للقدس الأعلى ، فإن صور الكائنات إذا قابلت مرآة النفس الحيوانية التى أهملت عن مجاهدتها ودوام قهرها تزينت لها ، فقبلتها للنسبة بينهما ، وانقادت لمقتضاها من علو وغرور ، أو طمع أو أمل أو هوى ، فإذا توالت على النفس تلك الصور بدون مسارعة إلى تزكيتها ، ومحو تلك الصور منها بمواجهتها للخيال ، لترتسم فيها المعانى القائمة بالملكوت ، والأنوار المرسومة فى الخيال من عالم الجبروت ، فإن النفس بإهمال المجاهدة تأنس بملاذها الحسية ، وتبذل لذلك ما يمكنها من تدبير وفكر وهم وعزم ، حتى تحجب لطائف القلب ومرآة الخيال عن مواجهة القدس الأعلى ، ومشاهدة الملكوت الأعلى .

وهذا الجهاد أكبر فى الحقيقة من لقاء الأعداء ، لأن الإنسان إذا لقى عدوه احتاط منه ، فإذا قتل بسيفه قتل شهيداً . وأما تلك المعانى المهلكة التى تقوم بالنفس فتدفعها إلى الهلاك الأبدى ، تلوح للنفس على أنها لذة ومحبوبة ونافعة ، وبها السعادة والخير ، لأن الحظ والهوى جمل المهلكات فى عين النفس ، فيقع الإنسان فى مقتضيات ذلك بدون احتياط وبدون ندم بعد وقوعه ولا توبة منه ، لخفاء ذلك عليه ، ولسكره بالتلذذ ، والفرح بالأعمال التى هى نيل وإدراك لما يلائم ، فإذا كانت تلك البواعث موجبة مقاومة الروح لتمنع النفس عن تلك الأعمال مع مكنتها من العمل ؛ وتلذذها به ؛ كيف يكون الحرب بينهما ؟ اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ .

هذا هو الجهاد الأكبر ، الذى من غفل عنه فى صغيرة من الأمور أو حقير من الشئون بدون يقظة له ومسارعة فى مجاهدة نفسه ؛ ربما أدى إلى هلاك وضياع للأخلاق الطاهرة ، وفساد للعقيدة الحقة ، فعلى السالك المريد الوصول لحضرة الله تعالى أن يكون يقظا لِهِمَّاتِ نفسه ، ولِلَمَّةِ الشيطان التى يَلِمُّ بها على قلبه ، ويسارع إلى محو أسبابها ، وزوال مقتضياتها ، مجاهداً نفسه ، صابراً على ذلك حتى يتمكن من الخلاص من رعونات نفسه ، ووسوسة شيطانه ، وفساد آماله ، وقبيح أطماعه لأن الإنسان مهما بلغ من مراتب القرب ؛ لم يكن حفظه كحفظ المَلَك ، لأن دواعى الآدمية ؛ ومقتضيات الإنسانية ؛ وبواعث الحيوانية ؛ تجعله يلقى نفسه فى مهاوى الحظوظ ومهالك الأطماع . حتى يكون يقظ القلب ، حاضر الفكر ، مستحضراً أيام الله تعالى وعظمة ذاته ، فيفوز بأن يكون فى حفظ العناية من مخاوف النفوس ، والله سبحانه وتعالى يحفظنا مما يسخطه ، ويمنحنا رضاه وعفوه وعافيته آمين .

رابعا : الرياضة

الرياضة العامة :

لما كان الإنسان ذلك النوع الوسط المخصوص بنظر الحق سبحانه وتعالى ؛ المخلوق له سبحانه ؛ ولأجله خلق العوالم كلها وسخرها له ؛ فطره سبحانه وتعالى على صورة المستقل المختار بما أخفاه سبحانه من سر القدر ؛ ثم فطره سبحانه وتعالى على صفات اقتضتها مكانته وصورته ؛ ثم تفضل فأعلمه على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، ما به سعادته فى هذه الدار بين عالمه والعوالم الكونية ؛ وفى الدار الآخرة بين عوالم الملكوت الأعلى ؛ فكشف الرسل صلوات الله عليهم وسلامه بالقول والعمل والحال ما يحبه الله تعالى من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة ؛ ولما كانت تلك الصفات المفطور عليها من حيث أنه فى صورة المختار تمنعه عن قبول الحق والانقياد له ؛ أوعن الانقياد له بعد قبوله ؛ سنت الشريعة أنواع التكاليف ، ورغبت فى النوافل وقربات الخير، ذكرى للقلوب ، ورياضة للنفوس .

ولما كانت النفوس الإنسانية مجبولة ـ لاحتياجها الذاتى ـ على حب الجزاء ؛ جعل الحق سبحانه وتعالى لها جزاء على مجاهدتها ، وقصورها عن فعل ما أمر به . ولما كانت تلك النفوس منها ما لا يقبل الخير؛ ولا ينبعث إليه ؛ ولا يراقب خالقاً ؛ ولا يشكر منعما ؛ حدت الشريعة حدوداً زاجرة للنفوس عن أن تتعدى تلك النواميس ، كل حد منها بقدر ما ينشأ عن هذا التعدى من المضار النوعية ، والمفاسد العمرانية ، من تعنيف ، أوتوبيخ ، أوجلد ، أوقطع ، أوقتل . وهذه هى الحدود التى يحد بها الذى فسدت أخلاقه ، حتى إذا تعدى الفساد من الأرض والخلق إلى فساد فى العقيدة بجحود الحق ـ الفساد الذى هو النهاية الكبرى فى كفران النعم وإنكار المنعم ـ كان حده للمجاهر المعتدى القتل خشية من هلاك بعض أفراد النوع بتقليده ، وحده للضعيف المسكين الإذلال بالرق أو الجزية حتى لا تقلده النفوس ولا ترغب فى مكانته ، و بذلك تضعف قوة التقليد والمفاخرة بعقيدته . وربما دعاه ذلك إلى التسليم فأسلم وسلم . فكانت الجزية كحد من الحدود الزاجرة للنفوس المتطرفة ، التى وصفت الحق بما لا ينبغى أن يوصف به ، خشية أن يتعدى ضررها إلى غيرها . فكانت الجزية من الرياضة النافعة للفريقين : أهل الحق فيرون العزة لمن تمسك به ، وأهل الباطل ليفروا من ذلك الحال وفساد العقيدة إلى الحق الذى به العز .

هذه هى الرياضات التى أسس عليها الدين ، وعلى التمسك بها عامة المسلمين .

الرياضة الخاصة :

أما الرياضة الخاصة التى عليها الأفراد الناشئون فى طاعة الله تعالى ؛ فبدايتهم مكارم الأخلاق إطاعة للأوامر، وطمعا فى جميل الجزاء ، فلا يغضبون إذا استغضبوا فى ذاتهم ، ولا يشيعون منكراً ، ولا يبخلون بمال ، وكل ذلك عن علم . حتى إذا بلغوا مقامات المكاشفة ؛ وشهدوا الأمر على ما هو عليه ؛ وتحققوا بمكانتهم من ربهم ؛ موقنين بأنه هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ؛ فروا به بعد سلب ظلال صورة الاختيار، وذوب ثلوج صور الوهم والخيال ، وتركوا الخلق وراء ظهورهم ، سخطوا أو رضوا ، إذ المطلوب أمامهم ، والمقصود رضاه كائنا ما كان الحصول عليه ، وهذه هى ثمرات الرياضات حتى يكون المجاهد قد زكى نفسه ، وأهَّلها أن تكون مشاهدة لحضرات الغيب الأعلى .

هِىَ الرِّيَاضَةُ مَحْوُ الغَيْنِ والسِّينِ ... وَتُشْهِدُ الغَيْبَ فِى آثَارِ تَكْوِينِ
وَتَمْنَحُ العِلْمَ عِلْمَ الحَقِّ فِى صُوَرٍ ... مِنَ المَشَاهِدِ فِى إِثْبَاتِ تَعْيِينِ
وَتُطْلِقُ القَيْدَ قَيْدَ الكَيْفِ عَنْ نِسَبٍ ... وَتَكْشِفُ الرَّانَ عَنْ أَنْوَارِ تَمْكِينِ
نَفْسٌ لَهَا أُهِّلَتْ فِى الْبَدْءِ وانْشَرَحَتْ ... تَزْكُو وَتَسْبَحُ فِى أَنْهَارِ تَأْمِينِ
هِىَ الرِّيَاضَةُ شَمْسٌ أَشْرَقَتْ بِضِيَا ... سِرِّ التَّفَضُّلِ بَعْدَ العِلْمِ بِيَقِينِ
تَمْحُو المَطَامِعَ والأَهْوَاءَ تَكْشِفُ مَا ... قَدْ غَابَ فِى الكَوْنِ مِنْ أَسْرَارِ مَكْنُونِ
وَلَيْسَ ذُو طَمَعٍ يَسْعَى لِيُدْرِكَ مَا ... تَرْجُوهُ مِنْ أَمَلٍ وَبَعْضِ شُئُونِ
حَتَّى إِذَا بَلَغَ المَأْمُولَ رُدَّ عَلَى ... عَقِبَيْهِ مُخْتَبِطاً مَسًّا كَمَجْنُونِ
ذَاكَ البَعِيدُ فَلاَ يَدْنُو لِوِجْهَتِنَا ... وَكَيْفَ يَشْهَدُنِى المَحْجُوبُ بِالطِّينِ
وَذُو الرِّيَاضَةِ مَجْهُودٌ بِفِطْرَتِهِ ... يَسْعَى لِيَخْلُصَ لِى مِنْ غَيْرِ تَلْوِينِ
عَادَى الحَبِيبَ لأَجْلِى والذى أَلِفَتْ ... تِلْكَ السَّجِيَّةُ جَافَاهَا لِتَعْيِينِى
هُوَ الخَلِيلُ الَّذِى عَادَى السِّوَى وَأَتَى ... لِلْحَقِّ بَعْدَ شُهُودِ الغَيْنِ وَالسِّينِ
فَشَاهَدَ النُّورَ صِرْفاً فِى عَوَالِمِهِ ... يُجْلَى بِآيَتِهِ حَقًّا بِتَيْقِينِ
بِالعَيْنِ عَيْنِ خَلِيلٍ قَدْ رَأَى وَبَدَا ... وَجْهٌ تَعَالَى عَنِ التَّحْدِيدِ بِعُيُونِ

لطائف الملكوت :

نَعَمْ ، الملِكُ يهب ما يشاء ، لمن يشاء ، فيهبُ الدنيا لمن يحب ومن يكره ، ولكن لا يعطى الإيمان إلاَّ لمن يحب . وعلامة أنه سبحانه أعطى الإيمان للعبد أن يذوق حلاوة التسليم والانقياد بدون بحث عقلى وعمل مادى وطلب دليل أثرى ، لما يقذفه الحق سبحانه فى قلب من يحبه من عباده ، فتكون تلك الأنوار المشرقة على القلب فى قوة شهود الحقائق المؤمن بها ، ولكن تحجبها الماديات الكونية ، فإذا نطق لسان الحكمة السماوية بأسرار الغيب بعلوم الفضل الإلهى ؛ انكشف عن القلب سحاب الماديات وتلألأت أنوار الحقائق الربانية فى لب فؤاده ، فتواجد ، ووجد ، ووله ، واشتاق ، فانفتق رتق قلبه بما يتوالى عليه من مشاهد الآيات ، وسرت لطيفته الملكية على براق الوجد ومعراج الوله فى ليل محو تلك الكثائف الكونية عن بصيرته ، فيتلقى بقوى الفكر الممنوح من لدى الحق من طريق الإطلاق الوصول إلى مشاهدة الغيب فى الآثار ، وتزداد الفيوضات ، وتتوالى الأسرار التى لا يحيط بها عقل عاقل ، ولا يحوم حول فنائها خيال متخيل ، مما يذوقه بعيون البصيرة أهل الإيمان الكامل ، المتحققون بالحظوة القدسية .

وقد يصطلم المشاهد بغيب الآثار عنه ، عندما يتملى بجمال : « فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (١) أى أنه سبحانه حظر على النفوس أن تعلم ــ العلم المجرد عن الشهود ــ ما أخفاه الحق من قرة الأعين بالشهود لهذه الجمالات العلية . فبحقك يا أخى ، جمال عجزت النفوس التى تشهد ما وراء المادة أن تعلم هذا الجمال ببعض خواصه تقريبا ؛ كيف تتخيله أو تسلم به ؟ أو تصدق المترجم عنه ؟ « كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ »(٢) فأهل الشهود محتهم عن أنفسهم لطائفُ القدس الأعلى ، فغابوا عنهم به ، فهم به سبحانه ، وله سبحانه ، ومنه سبحانه ، وعنه سبحانه ، لا يشهدون غيره ، إذا ترجموا ببعض جمالات هذا المقام العلىّ والرفيق الأعلى ؛ أنكر حالَهم وسفه رأيَهم أهلُ النفوس التى لا تعلم ، فكيف بمن لا نفس له ممن وقف عند حظ هذه الدار العاجلة أو نسى الدار الآخرة ؟ اللهم احفظنا من القطيعة وأوصلنا بدوام

---

(١) سورة السجدة آية ١٧ .

(٢) سورة المطففين آية ١٤ ــ ١٥ .

لطفك وتوالى لطائفك يا لطيف ، وأذقنا حلاوة الإيمان ولذه التقوى ، وحققنا بكمال اليقين فى رتبة العبد الصادق يارب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

خامساً : النهج الوسط

خير الأمور الوسط :

قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً » (١) وقال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ هَذَا الدينَ متينٌ فاعمل فيه برفقٍ »(٢) فالأعمال ـ وأعنى بها أعمال القلوب لأنها هى الباعثة للأعضاء على القيام بالمجاهدات للمشاهدات ـ إذا لم تكن وسطاً بين رتبة الخوف والرجاء والمحبة ؛ حتى ينبعث من وجه المحبة روح الوجد والإقبال ؛ ومن الرجاء روح الأنس والبسط مع الحق سبحانه ، ومن الخوف روح المحافظة على حدوده سبحانه وتعظيم شعائره والقيام بأوامره . وإلاَّ إذا غلب حال على الآخر ربما أخرجه عن الوسط كما إذا غلب مزاج فى البدن على مزاج أهلكه ، فإذا غلب الخوف ربما أدى إلى اليأس : « إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ » (٣) وإذا غلب الرجاء ربما أداه إلى الأمن : « فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ » (٤) وإذا غلبت المحبة ربما سلبت قوى العقل ، ومحت نواميس التشريع فى عين العاشق ، حتى ينمحق بغير علم بمنازلات الحق سبحانه وتعالى ؛ ولا يقين بمرتبة التقييد والإطلاق ، فيكون ممن لا يقتدى بهم من أهل الوله والاصطلام الماحق لعناصر المادة ، ويكون فى عداد الكرو بيين الذين لا يترقون بل هم فى كرب من الشوق إلى المشاهدة ، والاحتراق غراماً إلى مواجهة الحق سبحانه .

والمحجة البيضاء والسنة المحمدية السمحاء هى الطريق الوسط الذى نهج عليه الصديق والشهداء ، والصديقون من علية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فاجعل كأن لك قلبين : قلب ينبعث منه الخوف للتعظيم والتجلة والرهبة لا خوف المعصية والنار كالعامة . وقلب ينبعث منه ريحان الرجاء لمعنى أسماء الجمال ، حتى يكون الإقبال والوجد والحب والشوق إلى مشاهدته سبحانه وتعالى ، فيكون قوامك الخوف ، ومزاجك الرجاء ، فتكون محمديا

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) أورد السيوطى هذا الحديث بلفظ : (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق) رواه أنس وهو صحيح . انظر الجامع الصغيرج ١ ص ٣٣٨ .

(٣) سورة يوسف آية ٨٧ .

(٤) سورة الأعراف آية ٩٩ .

كاملاً ، لا يغلبك الخوف حتى تنسى جمالاته ، ولا الرجاء حتى تسهو عن عظمته ، وإذا غلبك الحال فى حال منها فسلمه نفسك ، فالحال لا دوام له ، فقد كان سعيد بن جزيم رضى الله عنه من أفاضل الصحابة يصعق من غلبة الحال ، وقد حصل للسيد الأكبر صلى الله عليه وسلم فى قراءة الحاقة ، وكان يحصل له الحال عند نزول الوحى عليه صلى الله عليه وسلم بالحالة الخاصة به صلى الله عليه وسلم ، فإن للوحى أحوالاً كثيرة ، منها ما يختص بالرسل ، ومنها ما يكون حالا لملك الإلهام على أكابر الأولياء رضوان الله عليهم أجمعين ، فالحال الصادق باعثٍ على الترقى ، وإنما يخشى منه أن ينتقل إلى مقام فيهلك صاحبه ، لأن أعمال القلوب إذا لم تعرض أو تنال بواسطة عارف متمكن من أسرار العلوم ومقامات الوصول قد جاز الطريق وعلم مسالكه ؛ ربما أدت إلى التطرف إلى طرف ، ومجاوزة الوسط ، فعليك بالمحجة البيضاء والسنة المحمدية السمحاء ، والله أعلم .

سادسا : العمل لجمع القلوب على الله

السالكون طريق الله سبحانه هم أهل النفوس الزكية ، الذين يحفظ الله سبحانه بهم دينه ، و يعلى بهم كلمته ، و يجدد بهم سننه . وهم محل نظره ، وأهل محبته ، يستعملهم فيما يحب ، ويمكن لهم فى الأرض بالحق ، ويبين بهم آياته ، ويوضح بهم مناهجه وسبله ، وهم أهل الله فى كل زمان ، وأهل معية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل مكان ، ذكرهم فى آخر سورة الفتح ، ومدحهم وأثنى عليهم و بشرهم ، و بين صفاتهم وأعمالهم وأحوالهم بمحكم الآيات ، وليست المعية معية جسمانية ، لا ، ولكنها معية اتباع واقتداء وعمل وحب ومشابهة وتقليد وتمكين وعلم ومشاهدة وفهم . فإذا كانوا هم الأئمة للناس والسرج للخلق فى كل زمان ؛ فصفاتهم أولاً الرحمة الحقيقية بكل مسلم بعطف يُوَدِّدُهُ ، وحلم يقربه ، وكرم يحببه ، وعمل يرغبه ، وعلم يكمله ، وزهد فيما فى أيدى المسلمين يؤلفهم ، و بذل لهم ليجمعهم ، وحنان بهم يهذبهم ، وتباعد عما ينفرهم من عمل أوعلم أو حال ، أو تفضيل بعض المسلمين على بعض ؛ اللهم إلاَّ بذكر علوم السلف وأعمالهم وصدقهم مع الله وصبرهم على بلائه سبحانه ، ومجاهدتهم فى ذاته أعداءه ، أو مجاهدة أنفسهم ، من دون تفضيل لذواتهم على غيرهم من المسلمين ، ولا ذكر لخصوصياتهم التى لا تقبلها العقول ، أو إذا ذكرت أضرت أهل الجهل ممن لا يعلم قدر الإنسان أنه عبد مسكين لرب عظيم يهبه ما يشاء من فضله ، وأن الفضل بيد الله ، فتذكر الخصوصيات ليشتاق العاملون إلى نوال تلك

المقامات ؛ لا ليفرقوا بين جماعة المسلمين بتفضيل بعضهم على بعض ، وقيام العداوة بسبب ذلك ، فالسالك مريد للحق محب لما يحبه الحق ، عامل لنوال مرضاته وللفوز بنعيم الآخرة ، وتلك الخيرات لا تنال إلاَّ بما يحبه .

وأحب الأعمال إلى الله تعالى عمل يجمع عباده عليه ، ويعرفهم مقامه سبحانه ، ويدلهم على أنه هو الأحد الصمد ، الفاعل المختار ، وأن كل ما سواه ومن سواه مخلوق له سبحانه ، مفتقر إليه تعالى ، مضطر إلى جوده وبره ، لا عمل لأحد ، ولا نفع ولا ضر لأحد من أحد سواه . وبذلك تجتمع القلوب ، ويتحصل العامل على المطلوب .

السالك الذى يحفظ كرامات الرجال وخصوصياتهم وأحوالهم ؛ ثم يقوم فيشغل المسلمين بالتفضيل بين أهل الخصوصيات ، والاعتقاد فى بعضهم حتى ينسى الواجب عليه ، ويتهاون بكمالات نفسه التى بها يصل إلى درجة الأفراد ، حتى يوقع العداوة بين الشيع المتفرقة والنحل المتمزقة ، لا أظنه سالكاً طريق الرشاد . لأن الله تعالى أرسل نبيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم للخلق أجمعين ، وألف به صلى الله عليه وسلم — بين أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتخاصمة — بنور الحق ، مبيناً سبل الحق ، موضحاً طرقه ، حتى شغل الخلق بالله ، ونزع من نفوسهم حب الأصنام واتخاذ الأنبياء آلهة ، أو أبناء الإله حتى عشقوا الحق ، وبذلوا أنفسهم فى نوال مرضاته ، وشغلهم ذكره عن غيره ، وطلبه عن طلب سواه ، حتى بلغت درجة المحبة للحق والشوق إليه ومعرفة مقامه سبحانه ومقام رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ أنهم كانوا فى بعض المضايق يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفق عليهم فيطلبون منه صلى الله عليه وسلم التشديد على أنفسهم ، أو يرونه عند بعض الأعمال يراعى جانبهم ، فيطلبون منه صلى الله عليه وسلم ترك العمل ، كل ذلك لعلمهم بمقام ربهم سبحانه ، وما جمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوبهم من علوم التوحيد واليقين ، وما كان يشهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه أنه بشر وعبد ذليل مفتقر إلى الولى العظيم ، وما كان يهذبهم به من مساواته لهم بالمشورة ، و بالبسط ، وفى الأكل والشرب والملبس والمجالسة ، مما أذاقهم به حقيقة التوحيد وكمال مشاهدة الغيوب .

هكذا يكون السالكون بالنسبة لمشايخهم ، فإنهم يلزمهم أن يبحثوا عن الرجل العالم العامل المؤلف ، المتحقق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى منحه الله الحكمة

البالغة ، فيتلقون عنه العلم النافع ، والعمل الموصل ، ويجتهدون فى تأليف قلوب المسلمين واجتماع كلمتهم ، بدون تنفيرولا تعصب ولا ذكر لخصوصيات الرجال إلاَّ ليعمل بعملهم ، لا ليفرق بين المسلمين ، وبذلك تتحد القلوب على الحق ، وتجتمع على الهدى ، ويقوى المسلمون ويتحابون بروح الله فى كل بلد ، وتتعاطف قلوبهم ، ويكونون يداً واحدة على من عاداهم ، فيعزهم الله ويذل أعداءهم ، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، ويفتح لهم البلاد ، وينشر بهم الإسلام فى بلاد الكفار حتى تكون لنا العزة والملك فى الأرض بالحق ، وللكفار الذل والهوان ، ويكونون أرقاء يباعون فى الأسواق كما كانوا ، وكل ذلك يجعله الله على أيدى أوليائه ، ويظهره على يد أحبابه ، والله سبحانه وتعالى يجدد بنا سننه ، ويعلى بنا كلمته ، ويجمع بنا قلوب عباده المسلمين بجاه حبيبه الأمين صلى الله عليه وسلم آمين .

أهل المزيد من التوحيد :

السالك فى بدايته إذا جذبته العناية بسابق الإرادة جمله الله تعالى بالتسليم ، ومنحه الأدب مع المرشد ، حتى يقوى اعتقاده ، وتزكو نفسه ، ويزول لبسه ، ويكون مواجها بنور اليقين ، لديها يهب الله تعالى له نوراً فى سمعه وفى بصره وفى لسانه وفى عقله وفى خياله ، فينتفع بكل ما سمع وما أبصر وما تعقل وما تخيل ، لأنه إنما يأخذ من العبارة نور المراد للمرشد لا مدلولها اللفظى ، وينظر إلى نورانية المرشد فى العمل لا إلى نفس العمل ، ويتعقل نور التأويل من إشارة المرشد لا حدودها وكيفياتها ، فيكون لا يسمع إلاَّ حقا ولا يبصر إلاَّ حقا ولا يتعقل إلاَّ حقا ، ولا يواجه بخياله إلاَّ حقا ، فتراه مطمئن القلب منشرح الصدر مما لا تطمئن به قلوب أهل الشكوك ، ولا تنشرح له صدورهم ، لأنه ناظر بعين الحق ، سامع بأذن الحق ، وتراه يقوى وجده ، وتزداد محبته ، ويدوم إقباله كلما سمع أو شهد أو فهم شيئا من المرشد كائنا ما كان ذلك ، فإنه يتأول له إلى سبعين معنى ، ومالا يمكنه أن يؤوله يسلمه لله مصدقا به أن له وجها من الحق ، ولكن لا يقلده فيما لم يستبن له فيه الوجه الشرعى ، لأن للرجال مشاهدات ونوايا فى حفظ أحوالهم ومراعاة وقتهم محظورة على السالك لعدم مكاشفته بها ، ولكنه يسلم ذلك . ولأن المرشد له ساعة يكون فيها من أهل الآخرة لاحتجابه عن الدنيا وفراغ قلبه منها ، واشتغاله بالآخرة ، وعمارة قلبه بربه ، فالسالك الذى ترك الموازين وراء ظهره ، وجعل المرشد هو الميزان ؛ هو السالك حقا الذى شرح الله صدره للإسلام . والسالك الذى جعل الموازين بينه وبين المرشد لا يدوم إقباله وإن علم وفهم ، ولا

يكون على مزيد وإن جاهد وعمل . والمريد أعلم بنفسه ، فإذا سلمه ورأى نفسه على مزيد مما يدرك ومما لا يدرك حقيقته ؛ فبدايته بداية صديق ، ونهايته نهاية إنسان كامل وعبد متمكن . والمرشد قد يعلم ذلك من المريد في بدايته ، ويقربه بذلك إلى مراتب الخاصة ، وقد لا يعلم منه ذلك فلا يضر المريد جهل المرشد بمقام استسلامه ، فإن الله هو المطلع على السرائر ، فيكون له المزيد من الله تعالى .

ومن أجمل وأجلى صفات أهل المزيد دوام انشراح صدورهم ، وبذل ما في أيديهم لإخوانهم وللمرشد ببشاشة وسرور ، والتسليم لإخوانهم ، وحفظ أعراضهم ، والمدافعة عنهم في غيبتهم ، وتأويل أحوالهم ، والستر لعوراتهم ، والفرح بهم على كل حال تواضعاً لله سبحانه ومحافظة على الإخاء ، وستراً لعورات الإخوان ، وتأليفا لجماعة المسلمين خشية التفريق والجدل والمعارضة . وبذلك يدوم له المزيد حتى يترقى إلى مقامات المواجهة ، وتفاض عليه نعم المنازلة ، ويتحقق بمقامات الأفراد ومواجهات الأبدال ، ولا نهاية للمزيد من فضل الله تعالى .

وأما من لم يكونوا من أهل المزيد فتراهم بين إقبال وإدبار وشك واطمئنان ، إذا سمعوا مايوافق موازينهم أنسوا وأقبلوا ، وإذا سمعوا مالا ينطبق على عقولهم شكوا وأدبروا ، وهذه سنة الله تعالى في خلقه ، وقد بين الله تعالى ذلك في سير الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وكثر ذلك في قصة سيدنا موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، وقد ارتد بعض الناس عندما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسراء . فهكذا النفوس الخبيثة يكون إقبالها بموازين ، وإدبارها والعياذ بالله بغير موازين ، إن أقبلت : أقبلت متكبرة متعالية مشغولة بالاعتراض على الناس ومقتهم ، لا تنفع ولا تعين على خير في الدين ولا في الدنيا ، إن أكرمت ، لا مت ، وإن ظهر لها غير ما تعلم : أدبرت إدبار الشياطين ، فقذفت وكفرت ولعنت ، وفرقت الجماعة ، وأبعدت المقبلين ، والحقيقة أن الله سبحانه أبعدها عن الخير لأنه لم يُقدّره لها . والله سبحانه يجعلنا ممن لهم الحسنى وزيادة بجاه سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم آمين .

سِـرُّ الـمَـزِيـدِ تَـلألُـؤُ الأنْـوَارِ ... فِـي أُفْـقِ قَـلْـبٍ مُـخْـلِـصٍ أوْسَـارِي
فَـضْـلٌ عَـظِـيـمٌ مِـنْ وَلِـيٍّ مُـنْـعِـمٍ ... وَالـفَـتْـحُ بِـالـتَّـسْـلِـيـمِ لاَ الإنْكَار

يَرْقَى بِمَشْهَدِهِ إِلَى الأُفُقِ العَلِيِّ ... لِمَقَامِ أَعْلَى مَشْهَدِ الأَنْوَارِ

تُجْلَى لَهُ الآيَاتُ فِي آفَاقِهِ ... كَالشَّمْسِ تُشْرِقُ فِي صَفَاءِ نَهَارِ

فِي كُلِّ نَفْسٍ فَيْضُ فَضْلٍ هَاطِلٍ ... يُجْلَى لَهُ فِي تِلْكُمُو الآثَارِ

وَيَدُومُ هَذَا الفَضْلُ يُوهَبُ دائماً ... يقوى بِهِ الإِيقَانُ بِالتَّذْكَارِ

مِنْ غَيْرِ حَدٍّ وَالمُرِيدُ رُقِيُّهُ ... بِمَعَارِجِ التَّسْلِيمِ لِلسَّتَّارِ

يَتَحَلَّى بِالتَّسْلِيمِ بالحُلَلِ التِي ... يَرْقَى بِهَا لِمَرَاتِبِ الأَخْيَارِ

تِلْكَ البِدَايَةُ تُنْتِجُ القُرْبَ الذى ... يَحْظَى به بِمَعِيَّةِ المُخْتَارِ

وَبِهِ يَدُومُ رُقِيُّهُ وَعُرُوجُهُ ... بِمَشَاهِدِ التَّوْحِيدِ لاَ بِسِتَارِ

كَشْفٌ بهِ الغَيْبُ المَصُونُ معَالِمٌ ... لِلْواصِلِينَ إلى العَلِيِّ البَارِى

فِيهِ اليَقِينُ هُوَ اليَقِينُ مُحَصَّنٌ ... بِالْحَقِّ لاَبِدَ لاَئِلِ الأَدْوَارِ

ثَلِجَتْ قُلُوبٌ سَلَّمَتْ فَتَجَمَّلَتْ ... بِحَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ والأَذْكَارِ

سَلِمَتْ مِنَ الآفَاتِ فَأَتَتْ رَبَّهَا ... بِسَلاَمَةِ التَّسْلِيمِ وَالأَسْرَارِ

فَأَبَاحَهَا رُؤْيَا الجَمَالِ وَخَصَّهَا ... مِنْهُ بِفَضْلٍ مَزِيدِهِ المِدْرَارِ

وَصَلَتْ إِلَى حقِّ اليَقِينِ فَمُتِّعَتْ ... بِالوَجْهِ بِالأَلْبَابِ وَالأَبْصَارِ

رَأَت الجَمِيلَ مُنَزَّهًا بِبَصِيرَةٍ ... وَجَمَالُهُ قَدْ لاَحَ لِلأَبْرَارِ

فَتَمَتَّعَتْ بِشُهُودِهِ وَتَنَعَّمَتْ ... بِتَنَزُّلِ الحَنَّانِ وَالغَفَّارِ

سابعا : تلقى العلوم النافعة

المنفعة تتفاوت بحسب مراتب الناس ومقامات اليقين عندهم ، فمنهم من قصر به يقينه عن علم كمالاته المؤهل لها ، ونوال الخير فى آجله ، ولم تشرق عليه أنوار الفضائل النفسانية فتجذبه إلى جانب الحق . فانغمس فى قرارة الحظوظ والأطماع ، ودعاه الجهل بالعاقبة إلى أن السعادة واللذة محصورتان فى نوال آماله ، وملاذه فى تلك العاجلة ما يلائمة حسا . واستخدم لذلك جميع قواه ظاهراً و باطنا ، وتلذذ بنواله أغراضه ، ومشى فى الأرض مرحاً جاهلا نفسه وأهله ، متناسياً ما أنذِرّبه وما بُشِّرَبه ، تاركاً وراء ظهره ما علمه من مبادىء الدين ، غير مكترث بالحدود والعقوبات مادام متلذذاً بحواسه ، سواء وافق الدين أو خالفه ، كان عمله فضيله أو رذيلة ، ويسرع إلى تعلم ما به ينال آماله من العلوم المعينة له على مشتهاه مما ينفع فى الدنيا كالصناعة والفنون ، أو يرفع فيها كعلم الدين الذى يؤهله للسيادة

والرئاسة ، وعلم الكلام الذى يجعله مهاباً يقتدى به بين الناس ، مهيباً عند الأمراء ، مجالسا للخاصة . وهو بجهل يظن أنه أحسن عملا إذا بلغ مراده ونال شهوته ولذته ، ويتحقق أنه فى سعادة وعلو وشرف وغنى وعزة لما يراه وما يحسه ، ويتلذ ذ به .

وليست هذه العلوم بنافعة إلاَّ لمن جعلها درعا يقى به الدين ، ويحفظ به نفسه من الوقوع فى المضار — من الجوع ، أو البدع المضرة ، أو مضرة الناس بجهل ما لابد لهم منه فى المجتمع الإنسانى — قربة إلى الله تعالى ، ونفعاً عاماً لجماعة المسلمين ، فإذا تحصن العالم بتلك العلوم بإخلاص النية فى تعلمها ، وصدق العزيمة فى العمل بها ، كانت له سلما يعرج عليه إلى الأفق المبين . وإذا غلبه حظه كانت له مدارج يهوى بها فى سجين ، نعوذ بالله من الشح المطاع والهوى المتبع والإعجاب بالرأى .

أما العلوم النافعة فهى علم يقوى به يقينك ، وعلم تحسن به عبادة ربك ، وعلم تحسن به معاملة إخوانك المؤمنين ، وعلم تحسن به معيشتك وأهلك ، وعلم يدوم لك به المزيد من الفضل الإلهى ، وعلم به تعلم من أنت ، وما هى الآيات والحكم المودعة فيك وفى السموات والأرض وفى الآفاق ، وتعلم به نسب مراتب الوجود ، حتى تتحقق بمعرفة ربك ، ولديها تكون عالما نافعاً لنفسك ولغيرك ، عبداً لله تعالى ، حرا بالنسبة لغيره ، تملك نفسك وغيرك ، ويسخر لك جميع الوجود لأنك عبد الله الذى خلق كل شىء ، و بيده مقاليد كل شىء .

ولكل علم من هذه العلوم مباد ومسائل يتلقاها المريد ويعمل بها فيعلمه الله تعالى العلوم التى لا يمكن تعليمها إلاَّ بالله عزَّ وجلَّ ، وهى علوم اليقين والتوحيد والتوكل والتفويض والصدق والإخلاص والمواجهة والمنازلة ، وعلوم المحبة والرغبة والرهبة والخشية والخوف والطمع ، وعلوم الإيمان والإحسان والإيقان ، وعلوم الغيب بانكشاف معانى الصفات بمقتضى التجليات ، وظهور خفى الآيات فى مرائى المكوَّنات ، وعلوم لا ينبغى للعارف أن يلمع إليها بإشارة ، من أسرار الأحدية ورموز الهوية ، وكنوز المجالى الذاتية ، وغيب الخفا وخفى الأخفى مما لا يعلم علمه إلاَّ الله ، ولو جازت الإشارة إليه شرعا لضاقت العبارة عنه ، وعجزت النفوس الزكية عن فهمه ، وأنكرته العقول على أهله ، ولكن التسليم مفتاح لتلك الكنوز العالية ، والمجاهدة معراج تلك المراتب العلية ، والمحبة خمرة المؤانسة الربانية . وإنما هى سوابق الإحسان ومنن المنعم المنان : « إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا

ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » (١) نسأل الله تعالى أن يعلمنا العلوم النافعة ، وأن يعيذنا مما يشغلنا عن بلوغ الحظوة الربانية فى رياض الأنس بالحق ، وأهلنا وأولادنا والمسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ثامنا : استقامة السيرة مع صفاء السريرة

المؤمن إنسان صدّق بوحدانية الله تعالى وبصفاته وكما لاته ، وبتنزيه ذاته العلية عن تمثيلها بالعقول وتصويرها بالخيال ، واستحضارها بكم أو كيف أو مثل أو نظير ، بقدر مرتبته من العلم والشهود ، فإنها ـ تنزهت ـ علية عن تنزيه الإنسان الكامل « وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » (٢) ولكن طولب أن يعلم بقدره ، وهذا مبلغ علم الحوادث بالنسبة لتلك المكانة العلية المقدسة ، وكيف يمكن الإدراك ؟ ونحن إنما ننزهها جلت عن نقائص نسبية ، ونثبت لها تعالت كمالات وهى تقدست علية عن أن تدرك للطائف عالين ، وأرواح الكروبيين والكل فى حيرة ، وكمال التحقيق العجز عن الإدراك بعد التمكين من الإثبات .

وصدّق بالرسل الكرام ، وبالملائكة ، والبرزخ ، والآخرة . وصدق بأن الله تعالى متصف بتسعة وتسعين اسماً ، متيقناً أن أحداً لا ينازعه سبحانه وتعالى فى صفة من صفاته العلية ، بل هو الفاعل المختار لكل شيء . وإنما جعل الأواسط والأسباب ليتعرف إلى العقول والألباب . فهى نعمة للتقريب والترغيب ، لا للتشكيك وتوهم الشريك .

وصدّق بأوامره التى كلف بها عباده ، ومحبوباته التى رغب فيها أولياءه ، ونواهيه التى جعلها حدوداً بين رضاه ومقته ، وعفوه وسخطه . فقام بعد التصديق بنور التوفيق عاملاً لمولاه ، شاكرا ماأولاه ، فوهبه المزيد بفهم التوحيد ، وكاشفه بسر مراده لفضل وداده ، فصار عاملا محسنا بإخلاص النية وصفاء الطوية ، فتجدد له المزيد بمشاهدة أسراره ، وانبلاج أنواره ، وظهر له ـ بنسب الإيمان ـ حقائق الإحسان ، فرأى المؤمنين إخوة له ، بهم قربه إلى الله ، وكمال إيمانه بالله ، ينزلهم منزلة نفسه فى الرخاء والشدة ، ويحبهم بملء قلبه ، وهو الحب الخالص لله ، يكرم الله بإكرامهم ، و يتقرب إليه بالقرب منهم ، يواسى بعيدهم وقريبهم ، ويقرض الله قرضا حسنا بالإحسان إليهم ، يذل لهم ليعزه الله ، و يتواضع لهم

(١) سورة الأنبياء آية ١٠١ .　　(٢) سورة الزمر آية ٦٧ .

ليرفعه الله ، فإذا أغناه الله فإنما هو خزانة لهم ، وإذا علّمه فإنما هو نوره المضيء لهم ، وإذا أعطاه القوة والعافية فإنما هو الحصن الذى يمنع السوء عنهم ، وإذا ولاّه الله أمورهم فإنما هو الوالد الشفيق الحانى بالعطف عليهم ، يبذل نفسه ووسعه فى ألفتهم ، لأن اجتماعهم إعلاء لكلمة الله ، وتجدد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس بمؤمن من فرق بين المؤمنين ، وطلب ذلك لحظ أو رياسة ، وليس بمسلم من آذى مسلما بيد أو لسان ، وكل أرض للمسلمين هى الوطن الذى حبه من الإيمان ، والمدافعة عنه فريضة على المؤمنين ، ورد العدو عنه واجب على المؤمنين . يحفظهم مما يحفظ منه نفسه وأهله ، يغض بصره عن عيوبهم -- إلاّ بالنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — ويستر عوراتهم من أن تشهد لعدوهم . كل ذلك معاملة لله تعالى وإعلاء لكلمته ، وتجدد للسنة المحمدية .

وقد أعمى الهوى والحظ قوما ممن يدعون الإيمان ، وليسوا بمؤمنين لتجردهم عن أخلاق الإيمان يسعون فى تفرقة الجماعة ، وإظهار العورة ، ومساعدة أعداء المسلمين ، بدعوى الإصلاح والخير ، والله يعلم أنهم مفسدون .

المؤمنون أرواحهم واحدة ، وأجسامهم متباينة ، كأعضاء الجسد الواحد يستمد من روح واحدة ، وكل عضو عامل على منفعة جميع الجسد . روحهم الممدة لهم : القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بها حياتهم ورفعتهم وعزتهم وقوتهم وإذلال أعدائهم ، وكيف يكون مؤمنا من آثر عرضا فانيا على رضوان الله والفوز بنعيمه المقيم ؟ !! .



الباب الرابع

فى الاعتقادات وهمم الرجال ومشاهداتهم والسير إلى الله تعالى

الفصل الأول

فى الاعتقادات

الإنسان دينى بفطرته :

قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة فأبواه يُهودِّانِهِ أو ينصرانه أو يُمجِّسانِه » (١) فكأن الإنسان يولد مؤمنا كامل الإيمان لاستئناسه بألست (٢) ، وعدم ما يحجبه عن شهود أنيته ، وعند شهود تلك الأنية انصبغ بصبغة أبيه .

ومعلوم أن نور الحكمة محظور على الإنسان أن يشهده إلاَّ بوحى ، وقد تفضل الحق فأرسل رسله عليهم الصلاة والسلام بآيات تصدق ماأتوا به من قِبله سبحانه ، مما يعجز الإنسان ولا يقدر عليه إلاَّ الله ، فكأنها فى قوة : صدق عبدى هذا ، وهو رسولى إليكم فاتبعوه .

والناس قسمان : متبع ومخالف ، فالمتبع هو الذى يتيقن كمال اليقين أن جميع ما جاء به الرسول هو عين الحق الكامل ، بحيث يلزمه أن يثق الوثوق الذى لا يشوبه زلزلة ولا وهم ولا شك بجميع ما شهده عليه من الأخلاق والاعتقادات ، مع التسليم المطلق ، سواء قبل عقله ذلك أو لم يقبله فلا يتخيل له أن أمراً مما شهده عليه يحتاج إلى برهان أو آية ، لأنه إنما اتبعه لعلمه أنه كامل يريد أن يكمل بكمالاته . أما رؤية أن أمراً من الذى هو عليه تحتاج فيه إلى برهان بحسب عقلك ؛ فكأنك عارضته فى كلامه ، أوتوهمت تقصيره ، وهو شك فى تصديقه .

---

(١) هذا حديثه صحيح أورده السيوطى عن الأسود عن سريع بلفظ : (كل مولود على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه) انظر الجامع الصغير ج ٢ ص٢٤٢ .

(٢)إشارة إلى قوله تعالى : (ألست بربكم ...) . سورة الأعراف أية ١٧٢ .

الرسل عليهم الصلاة والسلام أتوا بأمرين عظيمين :

الأمر الأول : تطهير أخلاق الإنسان من الصفات الإبليسية التى سنتكلم عليها فى أساس الأخلاق ، والصفات البهيمية ، لينتظم العمران ، وتحسن حالة المعيشة ، وتصفو الطباع البشرية ، وتستعد لتلقى الأسرار الإلهية . ومن قرأ القرآن الشريف بنور التسليم والاستمداد من حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذاق حلاوة مشرب كل الرسل عليهم الصلاة والسلام .

الأمر الثانى : العلم بما يجب عليه اعتقاده بالنسبة لذات الله وأسمائه وصفاته سبحانه ، ومااختص الله سبحانه وتعالى به رسله عليهم الصلاة والسلام من المقامات فى الدنيا والآخرة ، وما اختص به سبحانه أولياءه فى الدنيا والآخرة ، وكل هذا أمروإن أمكن العقل قبوله بالبرهان بدون تسليم وتصديق ، وهو ظلمة يحجب المصدق بالبرهان عن ذوق حقائق ليس للعقل حكم عليها ، إنما تذاق وتشهد بمحض الفضل من الحق . وهو سبحانه غنى عن الخلق ، وقد تفضل عليهم فلم يحوجهم إلى البحث عنه بالبرهان والعقل ، بل أرسل لهم الرسل مؤيدين بالآيات ليبينوا للناس مايختلفون فيه ، وأوضح لهم ما يجب عليهم اعتقاده بالنسبة لحضرته العلية سبحانه ، مع إلزامهم بأنهم يسمعون ويطيعون ، وحظر عليهم بالبحث أو التوهم فى الذى جاء به هذا الرسول ، أو التأويل ، فإنه سبحانه وتعالى أعلم بقواهم العقلية منهم ، ولم يرد تعجيزهم لأنه لا حاجة له سبحانه فى مضرتهم ولا منفعتهم ، بل كلهم مقهورون بكبرياء عظمته ، فقراء إليه سبحانه وتعالى ، فكان كل ذلك بمحض تفضلاته ، وعميم إحسانه ، تنزلا منه ، وإرادة للخير لهم .

فالواجب عليك أيها المسلم الاعتقاد بما جاء به سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما فى كتاب الله ، وبيَّنه صلى الله عليه وسلم بعمله وقوله ، مع التسليم الكامل والانقياد ، والوضوح لما أمرت به بدون تخيل ولا توهم ، بل تجعل أملك ونظرك فى فهم أسرار التنزيل والحديث ، لا بحسك ومعلوماتك اللسانية والعقلية ؛ بل بمرشد كامل ، أو باستمداد من حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمعنى أنك تسلم كل معتقد وتصدق به من غير تأويل ، مع ملاحظة علو وعظم الحضرة الحقية عن نسبة ماتفهمه من جهة مايشابه نفسك فى الآيات الدالة على التشبيه ، وتعظم الحق فى مقام التنزيه ، بتنزيه يليق به لا تدركه أنت ،

حتى تكون تلك المرتبة الحقية مقام علو وترفع ، وتقديس عن كل ما يتصوره عقلك ، أو يتخيله وهمك ، مسلماً له ما هو أعلم به عن نفسه من الصفات الجمالية والكمالية والجلالية ، متيقنا أنها إنما تعلم له سبحانه لا لغيره ، ومن أين للمخلوق أن يعلم ما عليه الخالق ؟ فالواجب العلم مع التسليم والأدب فى أن ذلك لا يمكن للإنسان أن يتصوره ، إنما تعلم أنه معنا فلا تغفل عنه سبحانه ، ولكن تلك المعية يلزم أن تحكم أنها لا تعلم بحقيقتها إلا له سبحانه ، مع الاعتقاد بمعيته معنا ، وترى أن الواجب علينا البحث عن تلك المعية من حيث ما يجب علينا عمله . وهو معنا ، لا من حيث العلم بحقيقة معيته فتخطىء المقصود ، وتجهل المطلوب ، وتجعله موضع شك وريب ، وتارة تؤول أو تصور وكله شرك وغفلة فتنبه ، وسيأتى المزيد فى التفصيل .

طهارة الظاهر والباطن :

الطهارة لأصحاب السير والسلوك ؛ التى بتمامها تفك رموز الوجود ؛ وتنمحى الحجب ؛ ويظهر الشهود العينى عين اليقين ؛ هى أولا العلم بما يجب عليك اعتقاده . إذ لا تحصل الطهارة إلا بالعلم . أنت أيها المريد تشهد أنك فعلت وأطعمت وأكرمت ونفعت وضربت ، فتنبه أيها المريد ، هل قواك التى فعلت بها والآلة التى بها فعلت ، والمادة التى فعلتها ، والمكان والزمان اللذان فعلت فيها ، منك كانا وبك كانا ؟ حاشا . بل كل ذلك من الله وبالله . وأنت أيها المغرور تنسب لك ماليس لك ، هذه اليد التى فعلت ، والعين التى نظرت ، والرجل التى سعت ، هل بك ومنك؟حاشا،ولو تعب عضو منها أو مرض أو فقد وأجمع الخلق على رده ماقدروا : « وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ » (١) مع كونه ، فكيف به إذا لم يكن ؟

غرك أيها المريد نسبة الحق جلت قدرته إليك ما ليس منك ولابد لك منه ، فتنبه ، فالأمور كلها منه وبه وله ، وإنما نسبها إليك نسبة الحاجة للمحتاج ، إذ هو سبحانه وتعالى غنى عن كل ما سواه ، وإنما خلق كل ذلك وهو الغنى عنه لك

---

(١) سورة الحج آية ٧٣ .

أيها الفقير المضطر، نسبه إليك ليشهدك كمال تفضلاته عليك، وشدة افتقارك إليه . لا لطغيانك وغرورك به .

فتنبه أيها المريد ، وطهر ثيابك ، والبس حللا تليق بعلىِّ عظمته ، من نسبة نتائج تلك الأعمال إليك ، كالشبع والرى والراحة والنوم ، والملبس للستر وزوال البرد ، والصلاة والصيام المستلزمة لرتبة العبودية ، كل ذلك وما أشبهه فهو لك من حيث احتياجك ورتبتك ، ولكنه ليس لك ولا بك ، وله سبحانه من حيث الفضل والكرم ، ووجوب الشكر وغير ذلك مما لا قدرة لك على إيجاده ، أومن صفات الكمالات الربانية والجلال والجمال . وعلى العموم فاسلب منك كل اسم وكل صفة من التسعة والتسعين اسما ، وأثبت لك أضدادها ، وغير ذلك من صفات الجسمانية هو لك تفضلا منه لافتقارك إليه ، وهذا مقام الخائفين (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) (١) . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة الرحمن أية ٤٦ .

الفصل الثانى

فى همم الرجال

١ - الرشاد والإرشاد

أ - الرشاد :

بلوغ الإنسان درجة الكمالات النفسانية ، اعتقاداً وخلقاً وعملاً وحالاً حتى تنجلى له الحقائق بأجلى ظهورها ، بحسب مرتبة كل حقيقة من الحقائق مما آمن به حسًّا وعقلاً وتسليماً ، مما ظهرت له حكمة خيره ونفعه فى الدنيا والآخرة من المأمورات ، وحكمة ضرره وشره فيها من المنهيات ، وما ثبت لعقله أنه شكر لمنعم منفرد بالإيجاد والإمداد من القربات الواجبة والنوافل المسنونة ، وما لاح لذهنه سر فضله من حسن المعاملة وجميل المجاملة ، وما أشرق على خياله من لوامع القدس الأعلى من قبس أنوار اليقين ، وضوء أسرار التمكين ، مما يقوى به الإيمان ، ويثبت به التوحيد بكمال اليقين ، وما أشرق عليه بمشاهدة الروح من معانى صفات الربوبية ، ومنازلات القيومية ، الذى به يحضر مع الحق فلا يغيب ، أو يشهد الحق معه فلا يحجب عن مشاهدته .

هذه درجة من درجات الكمال ، مما لا يمكن للسان أن يعبر عنها ، ولا للقلم أن يسطرها بصريح العبارة ، لأن درجات الكمالات الإنسانية ؛ ومعارج النفوس المطهرة الزكية ؛ حظر على العبارة تحديدها ، وعلى أهلها بيانها كل البيان ، لأنها من أسرار الغيوب التى لا يكاشف بها إلاَّ صدِّيق أو بدل كامل ، فإذا بلغ الإنسان تلك الدرجة وارتاض بالعلوم والذكر والمراقبة ، وتجمل بحلل الزهد والورع والتوكل والتفويض ، وسبقت له الحسنى بالحب من الله تعالى ، بلغ درجة الرشاد الذى به يكون وارثا لأحوال وأعمال وأقوال الأبدال ، فيصلح أن يكون مرشداً داعياً للخير ، آمراً بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، إلاَّ أنه يلزمه أن لا يعتمد إلاَّ على الولىّ ، ولا يركن إلاَّ إلى الوكيل الحق ، فلا يفرح بالناس وشكرهم لإقبالهم ، بل يفرح بالله وشكر الله ، لأن الله شكر عباده المخلصين ومدحهم ، فيمدح من مدحهم الله سبحانه ، ويشكر من شكرهم الله سبحانه . والله سبحانه مدح من اتصف بما أحب من الصفات ، وشكر من تخلق بأخلاق الربوبيـــة .

ولا يذم الناس لأذيتهم له ، أو لاعتراضهم عليه ومعارضتهم له ، ولكن يذم من ذمهم الله تعالى من المتصفين بالصفات التى شانها الله تعالى ، وذم العاملين بها . فيكون مدحه وذمه موافقا للحق ، ويكون دائم الحضور معه سبحانه ، ولا يتصور أنه إنما يدعو الخلق ليتبعوه جميعاً ، فإنما هو ـ بعد بلوغه درجة الرشاد ـ حجة الله على نفسه وعلى الناس ، أو لنفسه وللناس . ومن لم يأنس من نفسه بتلك الحال ـ وهو أعلم بنفسه ـ يلزمه أن يرجع لرياضة نفسه وتهذيبها وتكميلها على يد مرشد كامل ؛ حتى يكون أهلا لنظر الله ، ومحلا لتنزلاته سبحانه ، وسراجا من سرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبابا من أبواب الوصل لا حجابا من حجب الفصل « وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ » (١) .

ب – الإرشاد :

دعوة من بلغ درجة الرشاد لإرشاد غيره لطريق الحق وسبيل الهدى بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، والحجة البالغة من العقول مبلغ التصديق ، لبيانها وصحة مقدماتها ونتائجها ، ناهجا مع من يدعوهم بقدر عقولهم وتسليمهم ومعارفهم ، حتى يعرج بهم من حسٍّ مشهود ، إلى معقول مقبول ، إلى غيب مسلم به بقوة البرهان ووضوح الدليل ، متحريا منهج الحق فيما يقرر ، وهدى الأئمة فيما يبين ، متباعداً عن طرق أبواب الشبهات ، وكشف ستائر المختلفات ، ونشر مذاهب المبطلين ، والتعريض بالمفسدين ، لئلا يشغل العقول بالخوض فيما لا يضر ولا ينفع ، ثم يحافظ على العمل بأكمل ما يمكنه بما يبديه من العلم لكل طبقة من المسترشدين ، فلا يقرر علما إلاَّ بعد أن يكون أخذ منه أكمل قسط ، وعمل به بإخلاص سرًّا أو علانية ، حتى يكون تعليمه بعمله أكمل من تعليمه بعلمه ، ثم يتجنب إظهار مواجيد أهل الحب ، وأحوال أهل القرب ، وخصوصيات أهل العناية إلاَّ لأهلها ، حتى ينهج بالسالكين على طريق مستقيم ، ومنهج قويم ، ليحصل لهم الرقيُّ فى معارج الوصول ، ويبتهجوا بمشاهدة كل رتبة من مراتب القرب .

جـ – المرشد :

هو الصورة التى تظهر معانيها على السالك ، والطابع الذى ينتقش فى نفس المريد . وإنما تظهر فى السالك أعماله وأحواله ، وتنتقش صفاته وأخلاقه دون أقواله ، لأن الأقوال

(١) سورة الأحزاب آية ٤ .

أعراض تزول ، تؤثر على النفس عند سماعها ، ولكن المريد يجتهد أن يقلد الأعمال ، ويتمسك بالأخلاق ، ويتحلى بالأحوال من دون قصده ، وذلك بسرعة انتقالها إلى النفس ، لشدة ميل النفس إلى المحاكاة ، ويتضح ذلك بالنظر إلى كثير من الحيوانات والأطفال كيف يحاكون الأعمال ، بل انظر إلى أهل عصر تراهم يحاكون الأمراء والأغنياء ، والعظماء من العلماء وغيرهم ، ولهذا السر كان أول قائم بأجمل الأعمال ، وأول متحمل لأصعب المصاعب ، هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . فعلى المرشد إذاً أنْ يجعل نفسه صورة كاملة مكملة بجميع ما يحبه الله تعالى ، وأن يتحمل الشدائد والعناء ، باذلا نفسه وزمنه وماله لله سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وسلم حتى تنتسخ من صورته صور كثيرة تمثل الكمالات الدينية ، والأخلاق المحمدية ، والأحوال النبوية ، حتى بذلك تتحد القلوب ، وتأتلف على الحق ، وتنزعج النفوس من الباطل ومن أسبابه ، وتقبل على الله سبحانه بإخلاص لإعلاء كلمته ، وتجديد سننه وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم ، رغبة فيما عنده سبحانه ، مع الخشية من غضبه ومقته . ولا سبيل للإرشاد الحقيقى إلاّ سبيل القرآن العظيم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهدى الأئمة الراشدين الهادين ، وبيان السلف ، وما عدا ذلك فليس من الإرشاد فى شيء ، نعوذ بالله من الأمل فى الفانى ، والرغبة فيما يزول ، ونسيان أيام الله سبحانه ، وهجران كتاب الله تعالى ، ونعوذ به سبحانه من الهوى المتبع ، ومن الشح المطاع ، ومن الإعجاب بالرأى ، إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٢ - الإخلاص والصدق

أ - الإخلاص :

علم انفراد الحق سبحانه وتعالى فى جميع شئون العوالم وتدبيرها بحسب ما تعلقت به كل صفة من صفاته واسم من أسمائه الحسنى ، مع التنزيه عن شوائب الشكوك والظنون من كل ما يكون وما هو كائن ، مما يتحمل فهمه العقل ، وما لا يتحمل فهمه ، مع اليقين الثابت بوحدانيته ذاتا وصفات وأسماء ، فلا ينسب إلى غيره عملا ، ولا يعتقد علة ، بل يعتقد انفراده وكمال تصرفه المطلق فى جميع العوالم ، مشاهداً ظهور أن كل مايراه آية من آياته ، دالة على أحدية ذاته ، هذا كله مع كمال الأدب المناسب للحق من الخلق ، ملاحظاً فى

ذلك اتباع الأوامر واجتناب المنهيات ، مدعناً بأن ما يخالف الأمر منسوب إليه ، وما يوافقه صادر عنه تأدباً مع الحق جل جلاله ، فإذا تحقق العبد بذلك تبرأ من جميع صفاته لانعدامها في حقيقة الأمر ، وتاب من عمله الذى نسبه إليه ، وفنى عن جميع ما سوى مولاه ، فيزينه بانتفاء الجهولية والظلومية ، لأنه لم يغتصب حق غيره ، ولم يجهل نِعَمَ ربه ، وهذا هو الإخلاص وصاحبه فى دوام حيرة وخوف ــ حتى من خطرات قلبه لأنه مؤاخذ عليها ــ وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « وَالمُخلِصونَ على خطر عظيم » من شدة شهود الحيرة والدهشة والخوف . وقال سيدنا أبو ذر : يارسول الله ما الإخلاص ؟ فقال له : « حتى أسأل جبريل فسأل جبريل فقال:حتى أسأل ميكائيل ، فقال : حتى أسأل رب العزة ، فسأل ربه تعالى عنه فقال : الإخلاصُ سِرٌّ من أسرارى أُودِعُه قلبَ من أشاءُ من عبادِى » (١) فانظر أيها المتأمل قدر الإخلاص وشرفه ومقامه ، وذقه من باب اليقين الثابت تكن من الصالحين ، وقد سأل رجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : « هوُ الإخلاصُ » وعن اليقين فقال : « هو الصدقُ » نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمتعنا بالإخلاص والصدق آمين .

ب – الصدق

الصدق صفاء الظاهر من شهود المحسوسات قائمة بأعيانها ، بل يشهدها نوراً ظاهرة تشير إلى واحدية الحق ، منطوية على الأسرار الصفاتية والأسمائية ، ذائقا معنى تعلق صفاته المقدسة بذات الحق جل شأنه ، فاهما تغير المظاهر بحسب التجليات ، غير مرتب على الأسباب والتجارب ، وغير مغتر بتصاريف الأحوال الوقتية من خير وشر ، فإن الأسرار الإلّهية خافية على غير بصير متأمل ، ولذا كان الصدق مرتبة المؤمنين ، ومن اغتر بحوادث الكون وجريانه ؛ وتحول عن حاله بتصريفات الكون ؛ بأن خاف أو عظم أو اهتم بأمر دنيوى أو أخروى غير ملاحظ فى ذلك جانب الحق ؛ فهو غير صادق . وهذا هو الصدق الظاهر ، ولا يكون إلاَّ عن باطن ، والصدق الباطن هو صفاء الضمير ومحو ما فيه من شهود الصور الكونية ، حتى تنطبع صور الجمالات الحقية فى لوح ضميره المحفوظ ، وتنجلى مرآته ، وتجلى

---

(١) هذا الحديث القدسى أورده الغزالى فى (الإحياء) مرسلاً كذلك أورده أبو القاسم القشيرى فى رسالته ، انظر (الإحياء) ج ٤ ص ١٧٦ .

له فيها حقائق جواهر البحر المسجور، مسطرة بمعانى الرّق المنشور، وعند انتفاء كل غير باطننا، وإثبات الحق ظاهرا فى الخلق مع التنزية فى دائرة: « ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ »(١) تكون خالصا صادقاً.

٣ - الحكمة

أ - من هو الحكيم ؟

الحكيم الذى أوتى الحكمة الروحانية؛ وأدرك حقائق العلوم الربانية؛ إنسان وسط متمكن، أمكن من جميع العلوم الكونية وغيرها تمكنا يجعله يداوى كل وارد بدواء يناسبه، حتى يكون مألوفا لكل إنسان وسطا لم يتطرف عن الجادة السمحاء، حتى يألفه من لم يكن من أهل المقامات ولا الأحوال بالنسبة لما هوعليه من علم خواص الأشياء ومنازلات النفوس، فيقابل كل فرد بمايناسبه، حتى قد يُعشق عند من لا علم ولا ذوق ولا عمل لهم عشقا حقيقيا، ينتفعون به بتهذيب أخلاقهم وتطهير نفوسهم، ولذلك ترى جميع من يقابل الرجل يحبه؛ مالم يكن من الجاهلين الذين يعبدون الله على حرف، فمنهم المؤهل لنوال الحظوة بتلقى الحكمة، فهذا يسلك ويترقى ويتقرب، ويزداد إيمانا ووصولا. وأما غير المؤهل ممن فى قلوبهم مرض؛ فهؤلاء لا يدوم إقبالهم إلاَّ ريثما تقرع آذانهم فتنة أو دسيسة، فينقلبون على وجوههم، فهم الذين فى قلوبهم مرض.

ب - الحكمة الإلهية :

لا تكون بالمدارسة والاكتساب العملى، لأن الاكتساب العملى كالتجربة التى يكون الحكم بها ظنيا، ولكن الحكمة أن يكشف الله للعبد المراد مراده من كل شىء أنزله أو خلقه، حتى يعبر هذا الحكيم عن حقيقة ما انكشف له انكشافا حقيقيا، فتكون حكمته حكمة يقين صادق. ولكن تتفاوت النفوس فى الانتفاع بالحكمة.

جـ - تفاوت النفوس فى الانتفاع بالحكمة :

فمن النفوس نفوس الصديقين الذين عندما يشم أحدهم ريح الحكمة؛ تطيب نفوسهم

(١) سورة النور آية ٣٥.

وتطمئن قلوبهم ، ولا يجعلون لها كفؤاً يشغلهم عنها ، وهؤلاء هم الذين سبقت لهم الحسنى ، ويلحقهم فى هذا أهل النفوس التى تطهرت وتصفت بالجهاد الصادق .

وأما نفوس أهل البعد ؛ فإذا قابلت الحكمة صرفتها لغير ما قصد بها من العلم والعمل ، ونوال الحظوة لدى الحق سبحانه وتعالى ، والتخلق بأخلاق الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين . ويستعملون الحكمة فى نوال ما يزول من المنزلة والشهرة ، والعلو فى الأرض بغير الحق ، ومعارضة أولياء الله تعالى ، والطعن على منهج السلف الصالح ، والاستقلال بالفكر ، والعُجْب بالرأى والهوى ، قال تعالى : « وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا » (١) والله سبحانه وتعالى بسابقة الحسنى منح من منح الخير والإقبال ، ورزق من رزق التوفيق بخير الأعمال . سبحانه لا يُسأل عما يفعل . نسأله سبحانه وتعالى توفيقاً للأعمال الصالحة ، وإقبالا وقبولا من حضرته العلية ، إنه مجيب الدعاء .

د - الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها :

القلوب أوعية الحق وخزائن الغيب ، وعرش الرب الذى يستوى عليه برحمانيته ، وأجلها أجلاها ، وأقربها أصفاها . فإذا صفت من داعيات الحظ و بواعث الشهوة وقُوَى الأمل وحظ البشرية و بواعث الإنسانية ؛ تطهرت لطائفها ، وأشرقت خزائنها بنور الباطن مستمدة من أنوار أسرار الظاهر ، وأوّلت كل أثر أو معنى عبادة ؛ لما يقتضيه صفاؤها المزين بجمال شهود (أَلَسْتُ) (٢) عند سماع الخطاب ، وشهود الجمال المطلق . إذ اللفظ من حيث هو دال على معنى مّا من المعانى المتحلية للسماع المشتهاة له ، كما يتخيل للخائف أن كل شبح يراه من بعد هو الحقيقة المفزعة له ، وكما يتخيل للمشتاق أن كل صورة يراها من بعد هى الذات المحبوبة له ، لفراغ القلب مما سوى ذلك . فكذلك القلب المتطهر من دنس الهوى والحظ ، المستحضر لعظمة وجمالات الحق ؛ يطمئن بكل إشارة وعبارة تشير أو تومى إلى جمالات الحق سبحانه وتعالى . لأن اللفظ من حيث هو : دال ، وعند ذكره يستحضر المدلول عليه استحضاراً يذوق به القلب لذة الأنس بشهوده ، لشدة فراغه من سواه .

ولذلك فأهل الخصوصية مع الحق سبحانه ؛ ضالتهم المنشودة الحكمة من أى مصدر

---

(١) سورة الأعراف أية ١٧٥ .

(٢) يشير الإمام رضوان الله عليه إلى قوله تعالى : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم» (سورة الأعراف آية ١٧٢) .

كانت ، ولأى إنسان نسبت ، إذ مرادهم الأنس بالله تعالى ، بما يقوى حضورهم معه سبحانه . ولذلك فقلوبهم هى الحاكم الشرعىْ الذى حكم بـه صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم علينا باتباعها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « استفتِ قلبَك ولوأفتاكَ المفْتُونَ » [1] فجعل حكم القلب شرعا يحكم على حكم المفتى ، لأنه مشرق شمس العلم الربانى . وعلى هذا فكل حديث ورد عن السيد صلى الله عليه وسلم وسمعه صاحب القلب ؛ حكم عليه بما يحكم به القلب . وغير صاحب القلب إذا أورد عليه الحديث بحث عن راو يه وعمن رواه ، وبحث فى رتبتهم ، فجرح من شاء من الرواة ، وعدل من شاء ، لأن قلبه ليس حاكما ، بل الحاكم لسانه وسمعه . وروينا : من بلغه عن الله فضيلة أوعن رسوله صلى الله عليه وسلم وعمل بها أعطاه الله ثواب ذلك وإن لم يكن ما قيل . قال صلى الله عليه وسلم : « مارُوى عنى حقا فأنا أقولُه وإن لم أكن قلتُه . وما روى عنى باطلاً فإنى لا أقولُ بالباطل » . بهذا تحقق أن القلب المطهر من داعيات الحظ والهوى يتلقى عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويذوق حلاوة عبارة النبى صلى الله عليه وسلم ، فمتى سمع كلاما له صلى الله عليه وسلم أشرق نورمعناه على سريرة القلب المشرق ، فعلم مراده صلى الله عليه وسلم ، لا يهمه أن يكون سنده قو ياً أوضعيفاً أوموضوعاً أومقطوعاً أوغر يباً ، بل يسأل قلبه ويستفتيه ويحكم بحكمه .

ولكن أهل الإعراض والحظوظ السافلة الدنيوية ؛ إذا سمعوا حديثا يحث على مكرمة أوفضيلة ، أوزهد فى الدنيا أوتواضع ، أوتباعد عن الشهرة والسمعة ، أوجهاد للنفس وخلوة مع الله تعالى ، أنكرته أغراضهم وسعوا فى سقوط راو يه ، وضعفوا فيه وجرحوه ، وماأدرى يوم القيامة إذا وقفوا بين يدى الله تعالى ، وناداهم : علام قذفتم سلفكم وسفهتم سابقيكم بإيمان ؟ وانتقم من الظالم للمظلوم ، وآخذهم على ضلال العامة بالتباعد عن عمل البر والسعى فى فعل الخير ، والتمسك بالرشاد ، نسأل الله تعالى السلامة والعافية .

إذاً يلزم المؤمن الكامل أن يطلب الحكمة ، ولا ينقصها تساهل حاملها بها ، أوأن يكون حاملها ليس من أهلها . فلوفرضنا أن المسفه بعض رواة الحديث لوظفر بدينار فى مرحاض

---

(١) هذا الحديث أورده السيوطى بلفظ : (استفت نفسك وإن أفتاك المفتون) وقال رواه أحمد والطبرانى وأبونعيم ، انظر الجامع الصغيرج ١ ص ١٢٩ .

فحاول تناوله ولو بسقوطه عليه فى المرحاض ؛ فالحكمة أولى بالتناول ، لعلو قيمتها ، ولأنها داعية النجاة فى الدنيا والآخرة من الدينار ، ولكن خص مولاك فضله برجال ، وشوقهم إلى الحكمة فطلبوها ووجدوها ، يختص بفضله من يشاء .

٤ - الإقبال والقبول

العوالم كلها قائمة بقيومية الحق ، والشئون الكائنة هى صورة حقائق المشيئة ، ومعانى تخصيص الإرادة ، وأسرار حيطة العلم ، فما من كائن فى الوجود إلاَّ وقد أحاط به العلم ، وخصصته الإرادة ، ونجزته القدرة ، وصدر عن المشيئة . ونسب القرب والبعد والرضا والغضب والهداية والضلالة ؛ إنما هى بالنسبة لك لا بالنسبة للحق جلت قدرته ، فهى متفاوته فى عينك لتأثرك باختلاف تلك المعانى ، وهو تعالى منزه عن التأثير والتأثر عليٌّ أن يكون فى كونه مالا يريد ، أو يحدث فيه مالا يشاء ، بل الكل بمراده ومشيئته كائن ، وعن حضرة علمه صادر ، أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عدداً .

إذا تقرر هذا فما أقامك إقامة ؛ أو عاملك معاملة ؛ أو واجهك مواجهة ؛ أو قربك إليه أو أدناك منه ؛ إلا وقد قام كل ذلك بقيوميته ، وكان بمحض مشيئته ، وهو سبحانه يقرب العبد لقربه سبحانه منه ، ويقيمه مقام محبوب محب لحبه ، ويلهمه الدعاء لأنه دعاه ، ويوفقه لما يحب لأنه أحبه ، ويكاشفه بجمالاته لأنه كشف عنه حجابه ، ومنحه عيون فضله . ويبعد المبعود لأنه بعد عنه ، ويقيمه فيما يكره لأنه كرهه ، ويحرمه من مشاهدة جماله لأنه احتجب عنه .

وهو هو الله سبحانه وتعالى ، الرضا صفة من صفاته ، والغضب صفة من صفاته ، وهو سبحانه وتعالى فى حالة الرضا هو هو بعينه فى حالة الغضب ، وهو هو سبحانه وتعالى فى حالة القرب ممن يحبه ؛ كهو سبحانه وتعالى فى حالة البعد ممن كره . إلاَّ أن معانى الرضا من القرب والحب والهداية والتوفيق والرأفة والحنانة ؛ معان بها نعيم المخصوص بها ، وسعادة المطلوب لها . ومعانى الغضب من البعد والضلالة والذل والقهر والجبروت والنقمة ؛ معان توجب الشقاء والآلام لمن تعلقت به ، حكمة خفيت . وهى هى الأسماء والصفات ، فالمضل

هو عين الهادى ، والقاهر هو عين اللطيف الرءوف . فهو سبحانه على ما هو عليه ، وللأسماء مقتضيات : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » (١) .

فأهل الهداية : جملهم بأخلاقه ، وأسعدهم بوداده ، وأشهدهم علىّ جماله ، وواجههم بجميل وجهه . وأهل الضلالة : عاملهم بقهرة ، وواجههم بانتقامه ، ومدهم بجبروته ، وتنزل لهم بشديد البطش القوى المذل المضل القهار المنتقم ، فكان ظهوره بمقتضيات تلك الأسماء بالنسبة لذاته الأحدية ؛ هو عين ظهوره بمقتضيات الأسماء الجمالية . وكما أن الاسم الرءوف الرحيم المنعم المتفضل له بهجة بظهور مقتضياته ؛ فكذلك الأسماء الجلالية . وهذا هو الكمال .

فإذا قابلك بجماله فقابله بجمالك . وجمالُك الذل والخشوع والفقر والمسكنة والأضطرار والجهل والتوبة والندم والإنابة ، حتى يكون فى عينك جميلا ، وتكون فى عينه جميلا ، فيرى الجميلُ الجميلَ ، لأن الجمال المناسب لك غير الجمال المناسب له . فهو سبحانه وتعالى يحب أن يرى منك صفاتك التى بها أنت عبد له ، كما أنك تحب أن ترى منه المعانى التى بها هو رب لك . وإذا تنزل لك وهو الغنى عنك العلىُّ الكبير؛ فتنزل أنت له بالأَوْلى إلى رتبة مَنِيٍّ ومن رتبة منيٍّ إلى رتبة طينٍ ، ومن رتبة طين إلى رتبة عدم ، فإنه إذا تجمل لك وقابلك فى أى رتبة من رتب جمالك ؛ وطور من أطوارك ؛ جملك بجمال فيها بقدرها ، فإذا قابلته بآدميتك ؛ أمدك بما به تأكل وتشرب وتتلذذ ، مما هو لازم للآدمية . وإذا تنزلت له إلى طور المنِيِّ أبدلك بسمعك سمعاً ، و ببصرك بصراً ، و بذوقك ذوقاً ، و بلمسك لمساً ، وأبدل جميع معانيك . وإذا تنزلت إلى طور الطين : صورك بيده ، ونفخ فيك من روح قدسه ، وأسجد لك ملائكته . وإذا تنزلت إلى طور العدم جملك بكل أسمائه ، وجعلك أفقاً لشروق شمس صفاته ، وإلا فعجباً يتنزل لك وهو الغنى ، وأنت لا تتنزل لجنابه العلى ، وأنت الفقير !! يتقرب منك وهو العلىّ ، ولا تتقرب منه وأنت الضعيف !! على ذلك فالشكر لازمك ، والحمد عبادتك ، و يقظة القلب مرادك . وشغل فكرك سراجك . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن أقبل عليهم ، وأقبل بهم عليه ، وقابلهم وأقامهم فقابلوه ، وأن يزكى نفوسنا ،

---

(١) سورة هود آية ١٠٥ .

ويجمل أخلاقنا ، ويحفظنا مما يشغلنا عنه سبحانه ، ويلهمنا التوبة عند كل صغيرة وكبيرة ، ويحصننا من الفتن والحظوظ والأهواء ، إنه مجيب الدعاء .

٥ - الاتباع والابتداع

أ - الاتباع :

« قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللهَ **فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللهُ** » (١) عند ما تزول حجب الجهالة والظلم والظلمة عن الإنسان الكلى الفارق ، تفوح عليه نسمات روض التسليم فيسلم بالقول ، وعند إسلامه يبشر بسلامته من المؤذيات الحسية دنيا وأخرى ، ومتى انشرح صدره للإسلام بين له نور اسم الرب المحيط بالنعيم المقيم والعقاب الشديد ، فيميل إلى طلب الجمالات وينفر من غيرها ، فيكلف بالطاعات المؤدية إلى إطاعة أمر المعطى لهذا النعيم ، فتلوح له من سماع الأوامر أنوار محمدية ، تزين ظاهره بالأخلاق المرضية ، مع ملاحظة نسبة العمل إليه . وفى هذا المقام يحصل له الاعتقاد الجازم ، وهو مقام الإيمان ، قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنُ من سرته حسنتُه وأساءتهُ سيئته » (٢) وتبدو له لمعات البدر من وراء حجاب النسبة ، فيفاض عليه نور من ظاهر تلك الطاعات والأخلاق ، يدفعه إلى شم طيب باطنه ، فتنتعش روحه وتقوى فى استحضار معانى تلك الأعمال ، وهيئة مبانيها ، ونسبتها إليه ، حتى يذوق حلاوة انفراد الحق بالواحدية ، فيتوب فى كل يوم سبعين مرة من تلك النسبة الباطلة ، ويتشوق إلى التعرف بمصدره حتى يتحقق بصحة الاتباع فى الأعمال والأقوال والأحوال ، فيظهر له بدر التشريع منيراً لأفق معالمه ، وتنفجر عين حقائق الشريعة من فؤاده ، فيفنى فى شهود انعدامه بوجود موجده ، ويؤوب إليه متبعا جميع ما كان عليه السيد الأكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحيث لا يلتفت قدر خردلة عن الاتباع من قول وفعل وحال ، وبذلك لا يغيب عنه صلى الله عليه وسلم طرفة عين ، بل يراه ساريا فى كل الأشباح والأرواح ، ويلهمهم الصواب فى جميع شئونهم ، ولديها يتحقق بمحبة الله تعالى ، ويسعد بحب الله له ، وهذا مقام الإحسان .

ولا يكون الاتباع كاملاً إلاَّ عند أهل هذا المقام ، وفى كل مقام من المقامات السابقة

(١) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٢) هذا الحديث رواه الطبراني عن أبى موسى الأشعرى بلفظ (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) وهو حديث حسن .

يكون صاحبه متبعا حقيقيا بحسب رتبته ، وإن خالف مَن فوقه من اصحاب المقامات العالية ؛ ولا يمكن أن يخالفوا من قبلهم فى قول أوعمل ، لأن الأقوال والأعمال فى كل المراتب لا تتفاوت ، والأحوال والاعتقادات هى التى تتفاوت ؛ فيلزم أن تسلم لأهلها ؛ حتى يذوق الإنسان حلاوتها من مراتبها ، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾(١) وهذا هو الاتباع الحقيقى .

ب ـ الابتداع :

والابتداع عبارة عن انسدال ستارة الحس على أشعة أنوار الروح التى شهدت وقالت بَلَى ، فتميل تحت ناموس القوى الحسية ، وتنصبغ بصبغتها ، وتجول فى تلك المحسوسات عما فيها من الأسرار الربانية التى أشهدها لها ربها فى مقام(**ألستُ**)فتختلف عليها المشارب ، وتمزج منها الأنوار بظلمات تلك الحجب ، فترى انكسار أشعة الواحدية تعدداً ، وتنزه طلاسم الأحدية تشبها ، ومظاهر الوحدانية غيراً ، وتتبع الهوى وتتخذه إلهاً ، وتنأى عن العهود المأخوذة «أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ » (٢)

ومتى تسلطت تلك المحسوسات أظلم أفق التشريع ، وفهم خلاف ماأراده الشارع ، ويستنتج من الأحكام الشرعية أحكاماً بدعية ضلالية ، ليجعلها الصراط المستقيم ، فتارة يبيح المحرم ويحرم المباح . وهكذا تتوالى عليه الخيالات والأوهام حتى يَضل ويُضل ، ويتساهل بالواجبات الشرعية الشريفة ، ولديها يكون شبيها بإبليس رأس الغواة . نسأل الله تعالى أن يحصننا بحصن الشريعة ، ويطهر قلوبنا باتباع أسراره النبوية ، إنه قريب مجيب .

٦ - المشاهد والمقيد

إذا صفت حضرة الفكر بعد الرياضة بالذكر ؛ انبلجت فى تلك الحضرة أسرار الكائنات ، مشرقة عما بها من الآيات ، وسرى الفكر من كون إلى آية ، بقيد الاستحضار ، وفقه معانى تلك الشمائل ، وفى هذا المقام ينشط المفكر بحسب ظهور معانى المقتضيات من

(١) سورة البقرة آية ١٠٥ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

مكان وزمان ، فتراه يشهد فى مكان خاص مشهداً يسوقه إلى الدعاء والابتهال والتقرب بنوافل البر، ويشهد فى مكان آخر مشهداً ينسيه التقرب ويسليه عن التودد .

مثال ذلك من الأمكنه المقيدة كالكعبة ، والمسجد النبوى الشريف ، وبيت المقدس ، ومقابر الصالحين من الأنبياء والصديقين والأولياء المقربين .

وفى الأمكنة الأخرى كالأسواق ومجالس اللهو ومجامع الغفلة .

ويكون ذلك التقيد بالأزمنة أيضاً ، مثال ذلك كشهر رمضان ، والليالى المرجو فيها الخير فترى النشاط والهمة يقويان على عمل البر والقربات ، فإذا انصرفت تلك الأوقات ، وانقضت تلك اللحظات ، فترت تلك الهمة ، وكسلت تلك العزيمة ، ذلك لأن العمل من مقيد بدائرة فكره ، مقهور بحيطته التى تحيط به من زمان ومكان ، ولم يتجاوز عالم الفكر، ولم يتعد حيطة الكائنات .

أما أهل المشاهدات الذين ترقوا عن تكلف واستحضار بالفكر فى معانى الكائنات ، والبحث فى خواص اللحظات ، فإنهم وقعت بهم عين - بكمال التسليم - على نور الحق المجلو فى الخلق ، وسر القيومية التى قامت بها العوالم ، فوقع بهم العلم على حقيقة اطمأنت بها القلوب ، سر تجلى الأسماء وتنزلها ، وانبلاج أنوار الصفات وإطلاقها ، فكان المشهود لأعين رؤوسهم كونا مجملا بآيات ، والمشهود لقلوبهم حقًّا قامت به الكائنات ، فتمكنت الخشية من أفئدتهم ، والخوف فى قلوبهم ، فهم مع الله لا يغيب عنهم فى كل زمان وفى كل مكان ، لا يخصصون مكانا بعمل دون مكان ، ولا زمانا بعمل دون زمان ، إلاَّ مَا خصصه به ربهم ، وأوجبه فيه خالقهم .

ولذلك ترى عزائمهم فى جدٍّ ، وهممهم فى نشاط ، لأن الخشية التى فى قلوبهم عن معانى العظموت والكبرياء ، والخوف الذى فى قلوبهم عن معانى الربوبية المنزلة بالخير والإنعام والإيجاد والإمداد ، فكان الخوف موجبا لدخولهم فى جنتى الأنس والتلذذ فى مقامات الإطلاق ، والخشية داعية بمزيد العلم والفقه ، والتقرب إلى ذى الجلال والإكرام ، ولا تكون الخشية والخوف إلاَّ عن علم وقع بالسالك على الحق اليقين كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ »(١) وهؤلاء لم تكن الأمكنة والأزمنة مقصودتين لهم ، ولا معظمتين فى قلوبهم ، إنما المقصود ربهم ، والمعظم أمره وحكمه ، فإذا خرجوا من الزمان

---

(١) سورة فاطر آية ٢٨ .

المخصوص بحكم ما ، والمكان المخصوص بأمر ما كانوا مع الله بلا كون ، لأنه كان ولا كون ، وإنما التقييد بالأزمنة والأمكنة لمقتضى الرتبة الكونية الإنسانية . وأما مقام معاملة القلوب لعلام الغيوب ؛ فهى معاملة لذاته الأحدية ، صادرة عن إخلاص الطوية وحسن النية .

وأهل التقييد المعظم عندهم المكان والزمان ، والمقصود لديهم ما اختصت به الأمكنة والأزمنة ، لغفلتهم عن الله ، وجهلهم به سبحانه ، فانظر إلى سر قول عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كان النبى لايزيد فى رمضان عن ثلاث عشرة ركعة ، ولا فى غيره) لأن المعظم فى قلبه صلى الله عليه وسلم ربه وهو سبحانه وتعالى معه وعنده ، ومعاملته له صلى الله عليه وسلم بقدر مقامه المحمدى ، وكذلك أهل الميراث المحمدى ممن لم تحجبهم الآيات ، ولا تبعدهم الكائنات ، نزهوا ربهم سبحانه وتعالى عن أن يعظموا غيره ، أو ينشطوا له فى وقت دون وقت ، أومكان دون مكان ، إلاَّ بما أمر وحكم ، فلا يكون التعظيم للمكان إنما يكون للحاكم الآمر سبحانه وتعالى .

والواجب على أهل مقام التمكين ومنازلة المواجهة ؛ أن يسيروا مع أهل مقام التقييد بما يناسبهم ، تنشيطا لهممهم ، وإعلاءً لعزائمهم ، حتى لا يفوتهم الفضل فى كل زمان ومكان ، قرب نشاط بمكان خاص وزمان خاص أيقظ القلب فقرب ، ورب ذكر مع سهو عن المذكور ونسيان لمكانته اشتد فأنسى الذاكر عن شهود نفسه ، وقذف به إلى مرابض أنسه . وإنما المذموم غفلة القلب واللسان واحتجاب الجسد والجنان ، وإن نَفَسا من أهل القرب فى مشاهدات عن الحى خير من عمل العُبَّاد والزهاد سنين طوال . ولكنهم لخوفهم أن تتولى الغفلة عليهم ظاهراً وباطنا يعملون بأبدانهم تنشيطا لهم ، ومحافظة عليهم ، وليس لأهل الإطلاق معارضة لغيرهم . لأنهم ذاقوا حلاوة التقييد ، ولذة الإطلاق ، وإن عارضهم أهل التقييد كان لهم العذر، وعلى أهل المقام الملام إذا ظهروا بغير ما يناسب الحال ؛ خشية من وقوع المقيدين فى اللبس ، خصوصا إذا كان قدوة متبعًا أو إمامًا محببًا .

أ ــ الإطلاق والتقييد :

* سرادقات الغيب المصون عن العقول حيطة عزة جلالية ، وقفت النفوس عن اقتباس سواطع أنوارها ، أو المكنة من إدراك ظواهرها على حقيقة ما هى عليه ، وسورها مضروب

بين صور الكائنات وخفى الآيات ، وقد عجز العقل أن يكشف باليقين خواص المحسوسات ، أو أن يستخدم جميع ما سخر للإنسان من الفوائد الظاهرة فى أجسام الآثار، حتى إن الإنسان منذ النشأة الأولى وهو كل يوم تنكشف له من أسرار الحكمة ، وتلوح عليه من أنوار المعارف ما لم يكن يتخيله قبل ، ودليل ذلك قاطع ، وما بين أيدينا من المخترعات والمحدثات من الفوائد الجمة التى عادت على الإنسان بالخيرات والبركات ، فلا يدخل تحت الحصر، ولن يزال الإنسان يجهل من خواص الكون المستورة بستائر الجهل ، أو الخافية تحت ستار الغفلة ، ما لو ظهر له لتمكن من هناءه العيش وسعة الفكر، فإذا كانت الظواهر المحسوسة المسخرة ، لا تزال تجهل خواصها ، وتجهل حقائقها ، فكيف بما أودع فيها من حكمة الحكيم وأسرار المبدع الكريم ؟ .

ولكن شغل الإنسان بكشف الأسرار التى بها راحته وسعادته فى الدار الدنيا ــ إذا لم يكن مشفوعاً بنظر وفكر فى حكمة المبدع وأسرار الموجد سبحانه ؛ وكشف آياته ؛ وعلم قدرته وتدبيره وإرادته ــ كان العامل كأنه آلة مسخرة لغيره ، لا تنتفع بما تعمل ، بل كان أقل من الحيوان الأعجم ، والمداد النافع ، والسراج الذى يضىء للخلق وهو يحترق .

ولذا فعلى الإنسان أن يتقيد أوّلاً بعلم الواجب عليه شرعاً ، ويقف حتى تنفتح له الأبواب التى يلج منها إلى سبيل الحق ، فإذا فتحت له تلك الأبواب بعد الرياضة النفسية ، والتحقق من علم المبدأ والمعاد ، والتحقق من معرفة نفسه ومعرفة ربه ، قام عاملا فى شأنه الذى به يكون خليفة عن المبدع سبحانه ؛ الخالق جل جلاله ، فيكشف أسرار الحكمة ، وينتفع بكل الفوائد المندمجة فى تلك الآثار التى سخرها الحق سبحانه له ، فيفوز بحلل الخلافة فى الدنيا ، وجمال الولاية فيها ، وأكبر الرضوان فى الآخرة ، ويكون عاملا نافعاً لنفسه وللخلق أجمعين ، ولديها يكون فى مقام الإطلاق ، محفوظا من سلطان الشيطان فى حصون « أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ » (١) ولا يكون الإطلاق إلاَّ فى مشاهدات الآيات ، وكشف الأسرار بعين اليقين المشاهدة للأنوار.

والإطلاق ثمرة التقييد بالحصون ، والوقوف عند الحدود « ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٢ .

يَشَآءُ» (١) وبه يكون العامل هو العالَم كله ، انطوى فيه الكون ، وكوشف بأسرار الغيوب بعد مواجهة علام الغيوب : «وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَآءَ»(٢) وليس العامل الذى ينقد أجر عمله قد أحسن العمل ، إنما المحسن الذى يعمل لمولاه لأنه عبده ، وهو سبحانه أوجده من العدم ووالاه «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» (٣) .

ومتى فتحت له أبواب الإطلاق كان العامل فرحا بفضل الله ، يبتغى بعمله رضاه ، ومن غفل عن هذا المقام فقد أخلد إلى الأرض ، ورضى بالحياة الدنيا واطمأن بها . فكن عاملا لله ، محافظا على حدوده ، واقفا عند أوامره ، متبعاً شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم تنل فضله ورضوانه .

ب ــ أهل الإطلاق وأهل التقييد :

ولأهل الإطلاق من المشاهد العلية ؛ والأنوار البهية ما لايمكن التعبير عنه بعبارة ، ولا التلميح عنه بإشارة . ولكنه يدرك بالذوق «وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ»(٤) .

فأهل التقييد صرفوا أوقاتهم فى مشاهدة الآيات ، والأنس بالخصوصيات فى الكائنات ، فتراهم يأنسون بالمكان لخاصيته دون المكوِّن ، ويفرحون بالزمان لمزيته دون بديع السموات والأرض .

وأهل الإطلاق حنينهم إلى ربهم ، وأنسهم به ، ولذتهم فى القيام بتأدية أوامره ، والتباعد عن مواطن معصيته وموارد مخالفته . فالأول دعتهم إليه الخشية ، والثانى دعاهم إليه الخوف ، ولا تنفك خشيتهم التى عمرت بها قلوبهم بمشاهدة حبيبهم ، ولا خوفهم الذى لانت به أبدانهم على تأدية أحكامه ، فأبدانهم هينة لينة بالطاعة والقربات ، وقلوبهم عامرة بتنزل الأسماء والصفات .

وأهل التقييد الأبرار ، وأهل الإطلاق المقربون ، ولكلٍّ مشهد بقدر علمه ، ومشرب بقدر شهوده «وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ» (٥) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤ . (٢) سورة البقرة آية ٢٥٥ .
(٣) سورة يونس آية ٢٦ . (٤) سورة الصافات آية ١٦٤ . (٥) سورة الجمعة آية ٤ .

٧ – الواجد والمتكلف

إن الله سبحانه وتعالى خلق لنا ما فى الأرض جميعاً ، وخلقنا له ، فوهبنا مابه القيام بما خلق لنا من حسن التدبير والرعاية ، ومعرفة الخواص والمنافع ، ممابه أهلنا لحسن رعاية جميع ذلك بالفطرة ، وجعل ماوهبه لنا سبحانه وتعالى من القوى الفكرية واللطائف العقلية ــ التى بها كان امتيازنا واستعدادنا للقيام بما استخلفنا فيه ــ سراجا تشرق أنواره ، فتكشف لنا ما خصصنا به من الفضل الذى لم نرَ أنفسنا أهلا له إلا بعناية منعم عَلِىٍّ ، وولاية معط وهاب ، تعالى علوا كبيرا عن التشبيه والعلة والغرض فى جميع أفعاله ، وكما أنه سبحانه خلقنا له ، وخلق لنا ما فى الأرض وما فى السموات ، وخلق لنا ما به استعمال ما خلق لنا فى جلب المنفعة ودفع المضرة ، وكل ذلك بمحض فضله تقدست ذاته ، ثم جعل لنا هذا السراج الذى به تحققنا العجز عن إيجاد أىِّ شئ مما هو تحت نظرنا ، وما فى ذلك مما خفى عنا بنفسه أوبنا ، ونتج من هذا التحقق أن للجميع خالقاً،لم تبلغ القوة الموهوبة لنا أن تتجاوز هذا اليقين ، لأنه مقام ليس لها قدرة على الحكم عليه ، فتفضل ــ وهو المنعم المتفضل ــ وبين لنا ماهو عليه سبحانه وتعالى ، مما يجب علينا أن نتحقق به بقدرنا .

ومن أكمل تفضله أن وضَّح ذلك على لسان أفراد مصطفين من نوعنا إتماما على ما أنعم ، لعلمه سبحانه أننا نعجز عن إدراك أنواره إلا بمعونته سبحانه ، وكيف أوجد ما به كنا وما به حفظنا بعد الإيجاد به سبحانه وتعالى ، كان ولا يزال يفيض نعمتى الإيجاد والإمداد . وكما أنه سبحانه وتعالى هو الخالق ، المحدِثُ لجميع ذلك ، فهوسبحانه وتعالى واهب التوفيق والهداية ، والمقدر الضلال والغواية ، فمن وفقهم من خيرة عباده : كشف لهم أسرار الكون حتى علموا أنه مضى عليه دور كنا فيه عدما ، لم نكن شيئاً مذكوراً ، فتحققوا بنسبه ، وتشوقوا إلى معرفة هذا المنعم العظيم الكبير الكريم الحليم ، وتحققوا أنه لا سبيل إلى العلم بجنابه العلى إلا بفضله وإحسانه ، فما دعاهم داعيه إلاَّ ولبوا بأرواحهم وأبدانهم وما دون ذلك ، باعتقاد وانقياد وتسليم ، لا ببحث ونظر وانتقاد وتنقيب ، لتحققهم أنه معلوم لا تحوم العقول حول فنائه ، وعلىٌّ أن تجول الأوهام فى أسرار مبدعاته ، ومنزه عن أن يُستحضر للأفكار بمثيل أو شبيه أو قرين أو ند ، فما بقى إلاَّ أن يعلمنا بنفسه سبحانه .

فكان الداعى إليه ضالة المحبوبين لذاته ، ونهاية بغية المطلوبين لحضرته أن تحن أرواحهم

إلى الاستشراف إلى كشف أسرار آياته ، وتهيم نفوسهم ، فتلقوا العلم به وأحكامه بيقين فاق عن الشهود قوة ، وطمأنينة قلب رفعت عن الوجود تحققا ، فكان شغلهم به سبحانه وتعالى فكراً وذكراً ورهبة وحضوراً وولهاً وخشية ورغبة ، حتى بلغ بهم الوجد الصادق إلى أن صار الغيب لهم شهوداً ، والخفاء معالم بين أعينهم ، بعد تحققهم بالعجز بهم أن يقدروه قدره ، وتيقنهم بضعف كل محدث أن يكون أهلاً ليقدره قدره ، فعلموا منه سبحانه به جلت قدرته ما به صاروا متنعمين بنعيم الأنس بالحضور معه ، ولذة المعاينة لمعيته سبحانه وتعالى لهم .

هذا شأن الواجد ، لسانه بمولاه ناطق ، وعينه بنوره لنوره تشاهد ، وأذنه لسمعه لكلامه تصغى ، وقلبه بما طهره به بيته المعمور بعظمته وكبريائه وجلاله ، فبالحق عن الحق ينطق . والمتكلف في ظلمات الكون بالقوة التي لا تتعدى الكون ، بل لا تقوى على كشف سر من أسراره ، يرمى بنفسه باحثا منقبا عمن عز أن ينال إلاَّ به سبحانه ، وتعالى أن يدرك إلاَّ بنوره ، فيثبت تارة ، وينفى أخرى ، وينكر آونة ، ويسلم أخرى ، حتى يدعوه الحظ والعناد ــ لمخالفته ــ أنه على الحق ، ويزين له هواه وشيطانه أنه يحسن عملا ، والله ورسوله بريئان من المتكلفين .

الفصل الثالث

مشاهدات الرجـــال

١ ــ مشهد التوحيد للواحد :

تتفاوت مقامات المشاهدين بالنسبة للمشهود والشاهد. فإذا أشرقت أنوار التوحيد بمعانى ظهور الواحد؛ فالمشاهد جامع يشهد بالتوحيد من تمكين واحد، حتى يشهد فى نفسه بحقيقة ما هو شاهد، حتى يكون بكمال حاله ممحواً فى نفسه بالظاهر فيه، غائبا عنه بالمتجلى له، وهو مشهد ما يشهده الأفراد بعد كمال مقاماتهم، وصاحب هذا المشهد يكون له من التأثير والتصريف ماليس للفرد المتمكن، ولكنه إمداد من المتمكن، وإكرام من الله لذاته، وهو فان عن تلك المراتب والمقامات، ودليل ذلك قول سليمان عليه السلام : (أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا) (١) قال صاحب مشهد التوحيد للواحد الذى عنده علم من الكتاب : (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) (٢) فكان هذا الحال إكراما من الله لصاحب مقام التمكين، ظهر على يد واجد ذى حال عن عين يقين. ومثال ذلك ما حصل لمريم وزكريا عليهما السلام لما رأى عندها الرزق، وهى صدِّيقة وهو رسول. وحادثة موسى عليه السلام والخضر عليه السلام، فانظر إلى الذى عنده علم من الكتاب، والذى آتيناه من لدنا علما، وتأثير مشاهداتها أمام الرسولين عليهما الصلاة والسلام. والمثل كثيرة منها : حادثة أبى بكر رضى الله عنه عندما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على الكفار: حسبك يارسول الله إنَّ الله وعدك النصر. فانشرح صدر رسول الله بكلامه. وما حصل بين الحسن البصرى وتلميذه حبيب العجمى، لما أخفاه عنده وأقسم بالله أنه ليس عندى، ودخل الشرطة ففتشوا عليه فلم يجدوه فى المنزل، فسئل حبيب عن ذلك فقال : هو عند الله ليس عندى. وصاحب هذا المشهد له ما يشاء عند ربه بكن.

٢ ــ مشاهدة التوحيد بالتوحيد :

فهى مشاهدة عن كمال عين اليقين بظهور التميز بين الخلق والخالق، وقوام الكل به

(١) سورة النمل آية ٣٨.

(٢) سورة النمل آية ٤٠.

سبحانه وتعالى ، فيكون هو الظاهر به لهم ، فيشهدون أنفسهم به وفيه ، فتكون أنوار الأحدية مشرقة على لطائف قلوبهم ، فتثبت حقيقتهم ، وتنمحى مشيئتهم وإرادتهم ومراداتهم توكلا على الفاعل المختار ، والمدبر المريد ، فتكون لذَّاتهم وأنسهم وبسطهم استحضار الكبير المتعال العلى العظيم ، مطلقا فى مشيئته وإرادته ، لا يُسأل عما يفعل ، عن مقام علم بالعجز عن الإدراك ، وفقه لمعانى الصفات ، فتكون الخشية حالاً عن مقام حق اليقين خشية ذات أحدية ، ومكانة صمدية . وهذا مجمل من مشاهدة التوحيد بالتوحيد ، وفيها يكون الأنس بالعبودية حالا عن مقام تمكين ، حتى يترقى عن متوحد بواحد ، وعن مشاهدات عن سر الأحدية ، إلى بوارق عظموت ، ولوامع رهبوت ، تحترق من سنا أشعة أنوارها الأرواح ، وتضمحل بكبرياء عزة جلالها الخيالات ، وتصعق من أضواء سبحات وجهها النفوس والعقول والأشباح . لديها يزول الظهور والظاهر والتشبيه والتنزيه ، ويلوح نور الغيب يشير بعد المحو والفناء والصعق والعجز والجهل والعدم ، باتحادٍ لا بكيف وكم ، أو بإدراك وفهم ، ثم تتميز مراتب الوجود ، وتظهر كل مرتبة بقسطها علوا ونزولا ، فيتجمل بحلل العبد المتمكنْ فى مقام عبد ، وله من المشاهد مالا تفى به العبارة ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (١) .

٣ ــ الرؤيا والشهود :

إن أدوار السير فى منهج الوصول دائرة بين جمع ماحٍ للآثار ، وفَرْقٍ أشرقت به شموس الأسرار ، وحكم التنزيه فى الفرق أمكن ، والتشبيه فى الجمع آمن . ولما كان التنزيه مقام الفارق ، والرؤيا بعيون الضمير والبصيرة كشفا لكمالات الجمال والجلال اللائقان للحضرة المشرفة ، ومعلوم أن أولى العزم من أكمل أهل تلك المقامات ، يلوح من طلب الكليم صلاة الله وسلامه على نبيينا وعليه ، أن الرؤيا المناسبة لمقام الحق : المحفوظة بكمال التنزيه والتقديس عن الكم والكيف والحد : متفضل بها على كل متمكن الرق . والحق لا يجب عليه بالنسبة لعبيده شىء ، فقد يثبت أمر لعبد ويتأهل له والحق لا يكشفه له ، ولو طلب العبد ذلك الأمر الذى ظهر له بكمال علمه أنه من أهله . وقد يكشف الحق كل أمر تأهل له العبد بدون طلب من العبد ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وإذاً فالرؤية التى تليق بمكانة الحق سبحانه بالنسبة لأكمل عبيده المخصوصين بالتفضل

(١) سورة الجمعة آية ٤ .

والقرب جائزة عند كمال الفرق ، ولذلك فالسيد الكامل الأكمل صلوات الله وسلامه عليه تفضل الحق علوا لمقامه على جميع الرسل صلوات الله عليهم ، وأراه حقائق كمالاته التى أهّله صلى الله عليه وسلم لرؤيتها ، وطلبه إكراما لعلىّ مقامه لذلك . بما يليق بالطالب والمطلوب من العظمة . والرؤيا تقصر العبارة عنها ، وقد يرى الوارث لهذا السيد الأكمل صلوات الله وسلامه عليه من الجمالات الربانية ؛ ما هو مؤهل له من حيث عناية الحق به بما يليق بمقام ذلك الوارث بالنسبة له .

أما مقام الجمع وهو رتبة السلوك ففيه أسرار التجليات الشهودية . والشهود هنا عبارة عن دوام استحضار الأسماء الربانية ، والنعوت القدسية فى معالم المشاهد الكونية ، بمعنى أن تنمحى عنه ظلال الآثار الحاجبة بنور الأسرار ، فيشهد من كل أثر نور المؤثر ، شهوداً يجعل الشاهد حاضراً فى معية الحق ، مشاهداً لأنوار التجليات . والشهود مقام السالكين ، وقد يُكشف الملكوت الأعلى لأُولى القرب من كمل الأولياء .

٤ ــ المشاهدة الكونية :

لا تنكشف قيود الحس الناسوتية عن النفس الملكية انكشافاً يفيد الشهود العينى والرؤيا الحقية لذى هيكل آدمى إلا بتجرد عن تلك النسب ، وتخل عن كل لوازمها الإنسانية ، الذى هو عين المحال فى عين الواقف لما يلزم عليه من الجمع بين النقيضين ، وشهود الضدين . ولو تبصر السالك تلك المسالك ؛ لتحقق أن هذا الانكشاف ليس إلاّ لمحات قدسية ، ولحظات ملكية ، تلاعبت بالقوى الآدمية ، وتمايلت بالصفات الخلقية ، حتى انمحت قيود النسبة فى العين البصرية . وانسلبت أفياء الوجه فى العين البصرية . فانطلقت الوجه وَعَمَّ النور ، فأشرقت كل الوجه شمساً ملأت أرجاء الوجه التقييدية بدون نسبة عقلية ، ولا تناسب مادى ، فلاح النور للنور بالنور ، فشهد الظهور الظاهر ، والظاهر الباطن ، وليست المشاهد كما تتصور ، أو على الكيف الذى يُتَوَهَّمُ ، فسبحان من تنزه فى ذاته وأسمائه وصفاته عن أن يحيط به عقل ، أو يدركه وهم . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٥ ــ المشاهد الملكوتية :

نعم ، إذا انجاب غمام الأين ؛ وانسلبت نقطة الغين ؛ وذاب سحاب البين ؛ نطقت

ألسنة الآيات بحقائق البينات ظاهرة فى مَرْأى الكائنات ، فتغيب البين عن العين ، والكاف عن الهاء ، وتفك رموز الصاد مشرقة بضياء الياء عن سر مكنون الياء ، لعين هى نور العين ، مجردة عن قيود انتسابها لخفائها فى غيبها بما تلألأ من حقيقة الظاهر . المنزه عن قيود من حيث هوفى المطلق عن الحجاب من حيث الحجاب ، لديها تنبعث أنوار الحقائق ، وتشرق شمس التقديس فى أفق التنزيه التشبيهى ، من حيث التقرب الإضافى والعلو النسبى ، حتى تخترق الإضافات ، ويذوب ثلج النّسب ، وينمحى اللغو والنصب : « لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) .

على أرائك الود الانبعاثى ، والوصل التجلى ، بعد محو الفصل التكليفى ، والنأى التعريفى . هذا هو الشهود الملكوتى ، وليس كما يذوق أهل الذوق الصادق ، ولا ما يجده أهل الوجد الموافق ، إنما هى شمس وهى نور وأفق منير ، والترجمان قاصر ، والناسوت مقتضى . والحق منزه . والتشبيه براق .

٦ ــ الشهود البصرى والرؤيا البصرية :

إذا تزين القلب بأسرار العلم ؛ أضاءت أنوار الفكر بعد الذكر على الآثار الكونية ، فتجملت بحلل الدلالة على الموجد لها سبحانه . وظهرت تلك الدلالة مظهر سرور للحواس . تتلذذ بها ، وتكتسب منها سرا حقيًا يكون كراح قوى ، عامل فى جميع الحواس قوة نشوة غرامية « إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَـٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ » (٢) ثم لا يزال المشاهد ببصره يتناول رحيق القرب والتعارف بمظاهر جمالات تلك الأكوان العلوية والسفلية ، وكلما اتسع أمامه نطاق الشهود قوى حاله الحسى ، واشتدت نشوته ، واهتزت أعضاؤه هزة المشتاق الذى ظفر بمن يهواه ، ويرتقى رتبة رتبة ، حتى يصل إلى نيل مقام شهود العرش ، الذى هو أثر انمحت فيه جميع الآثار ، ودونه تنتهى علوم المخلوقات .

فإذا أشرقت عليه نفحات عبير روض هذا العالم العظيم الذى انمحت فيه كل الآثار :

---

(١) سورة يونس آية ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

وعندها يقف لنهاية علم الخلائق عند السدرة ، ولكنه لما كان من الذين لحظتهم عين العناية ؛ تفاض عليه أنوار التدبر فى هذا العالم العظيم ، و يخطر عليه أنه أعظم عالَم ليس بعده بعد ، لأنه أحاط بكل الكائنات السماوية والأرضية . ثم ما يمكث إلاَّ أن تتجلى عليه جمالات الصفات ؛ بعد غرقه فى شهود الآثار ، فيلوح له نور التجلى ، فيشهد هذا العالم العظيم الذى هو العرش يمحى بوصف الرحمة ، وهو قد انمحت فيه الآثار ، ولديها تعلوه دهشة الانتقال من حس و بصر إلى ذوق وبصيرة ، وفى هذا المقام يذوق حلاوة التجليات ، وتتوالى عليه تجليات الأسماء والصفات . حتى ينعدم الشهود البصرى لانمحاء الآثار فى العرش ، وانمحاء العرش فى الصفة الربانية ، ولديها يكون مبدأ الجمع ، فإن نظر إليه سيد المقربين بأعينه ، حفظه الله تعالى ظاهراً وباطناً ، فشهد ورأى ، وهو المقام المصون بالحقيقة والشريعة ، ولا يتحصل عليه عامل بعمله ، بل يناله بمحض فضل الله تعالى ، وفضل سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم .

نسأل الله تعالى دوام إقباله علينا ، وتوالى نعمته إلينا ، وإسباغ فضله وفضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم علينا وعلى جميع إخواننا وأهلينا وأولادنا والمسلمين آمين .

٧ ــ مفتاح الفكر:

الفكر فى المشهود ظاهراً ، ودقة صنعه ، وبهجة حسنه ، وإحكام نظامه ، وترتيب نواميسه بحكمة حَكَمْ الحس بكمالها ، ودوام حفظها ، وعدم خللها ، بحيث أن كل متفكر يتتبع كل الظواهر الكونية ــ سماوية أو أرضية أو ما بينهما ــ ونظر بفكر فى قيام كل مخلوق بتأدية ما خلق له ، يعلم بسلامة فكره ودقة نظره حسن انتساقها ، وقيامها بتأدية ما هى له فى وقتها ، حتى أنها لا تتخلف . فإذا نظر الناظر بفكره المكتسب من أعضائه الجسمية . يتحقق أن هذا النظام اكتسى حلة من الحسن قام بها ، ولو سعى ليتحصل على أقل فطور فى حاله المنتسق عليه ؛ وما فيها من الجمال المنطوية عليه ؛ لنادته ألسنة الحكمة الخفية فى غضونها : أيها المتفكر اجهد فى البحث ، وأنت أيها الباحث «فارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ» (١) .

فإذا ذاق حلاوة حسن الترتيب الكونى ؛ لمح ــ من شدة ما ظهر من حسن كماله وبديع جماله وغريب صنعه ــ الذى أوقف فكره حائرا أن ينتقل من تمتعه بهذا المشهد ؛ إلى

---

(١) سورة الملك آية ٣ .

البحث عن أسراره الخفية ، ليستنتج من ذلك ما به يكون له على تلك الظواهر الهيمنة والسلطة ، بما أودع فيه من قوة النظر والتفكر ، فيميل بقوة شديدة ، عالما أن ذلك ناشىء عن مصادفة شيء بشيء يحدث عنه هذا الانفعال ، ولدى تمكن هذا الأمر فى فكره ؛ يرى قدرته عاجزة عن إيجاد بعض ما يلزم ، وعندها يلوح له انفكاك المراتب الكونية عن كل ما حكم بإثباته لها ، فيتحير ويندهش ، ويعاود الفكر فى أن ذلك ليس مترتباً على مصادفة ، بل هو سر خفى ، فيميل إلى أن ذلك محتاج إلى بحث وتنقيب آخر ، فتناديه ألسنة الأسرار المنطوية فى تلك الكائنات : أيها الحاكم على مالم تحط به خبرا ، رويدك ، فليس الأمر على ما تفكرت ، ولا هذا هو الباب الذى به تتوصل إلى كشف حقائق تلك الأسرار ، فإن لم تتأن وتدخل البيوت من أبوابها «ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ» (١) وفى هذه الرتبة التى يسمع خطاب الكائنات منها ؛ ينتقل من مفتاح الفكر إلى مقام التدبر فى خفى تلك الحكمة .

٨ ــ مفتاح التدبر:

إذا لاح نور أسرار الكائنات على صاحب الفكر المنير بنور الإيمان ؛ وظهرت له الحكمة الخفية فاستعملها فى جلب المنفعة له ولنوعه ولأهل دينه ؛ أو لبنى وطنه ؛ مشاهداً ذلك من تفضل الحق سبحانه وتعالى عليه ؛ أضاءت له شموس ماوراء ذلك السر ، ألاَ وهى التدبر فى سر أخفى من ذلك ، سر ظهور أسرار الأسماء الربانية ، سارية فى جميع تلك المظاهر الناطقة بالتسبيح والتهليل والتنزيه لذات الحق تقدست وتعالت . فإذا فاح على المتدبر أريج روض قيامها كلها بالقيوم سبحانه وتعالى ؛ انبلج له صبح التحقق بسر «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ» (٢) فيأنس بالوحدة لشهوده مالم يشهده غيره ، فصار كأنه نوع آخر مخالف لنوع الإنسان الذى لم يتحقق بذلك ، ومن هذا المقام يبتلى الابتلاء الحسن ، بإنكار الناس عليه ، ورميهم له ، وميله إلى إجابته وتصديقه لشدة يقينه .

وما ابتلاؤه إلاَّ ليتجرد ويتخلى عن كل مخلوق ، ويعكف ويقبل على الخالق سبحانه

---

(١) سورة الملك آية ٤ .
(٢) سورة الحديد آية ٤ .

وتعالى ، فيكون ابتلاؤه لجذبةٍ جَذَبَتْهُ من الخلق إلى الحق ، لأنه ــ بمعارضة الناس ــ ييأس من الخلق جميعهم ، ويأنس بالحق سبحانه وتعالى .

فإذا كمل يقينه ؛ وثبت إيمانه ، ولم يتألم بمعارضة الناس ألماً يزعجه ويغفله عن المشهد الذى ظهر له ؛ وفى هذه الرتبة يخشى على الإنسان من أن يشتغل بجدل الخلق ومعارضتهم ومحاججتهم ، فيكون ذلك موجبا لبعده عن كمال الترقى . بل الواجب على أهل هذا المقام انحصار قواهم النورانية فى التدبر فى الآيات الإلهية ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (١) ويتنعم بتلاوة القرآن مع التدبر والذوق ، فيحل كل آية فى المقام الذى يليق بها من التنزيه والتشبيه ، حتى بذلك يفتح له قفل القلب ، ويضىء فيه نور الغيب ، فلا يشغله شاغل الكون عن شهود الأسرار التى سرت فيه من مبدعه سبحانه وتعالى ، ولديها يرتقى من حضيض الحس إلى أوج الروح ، وتنكشف له أسرار الملكوت ، فإذا تمتع بشهود الأنوار الملكوتية تحلى بلسان العبارة ، فترجم عن تلك الحقائق بعبارة كشف عن نور الحكم ، فيفيض على إخوانه علوم الغيب التى بها سعادة الدنيا والآخرة ، فإن أفادهم فى مقام الفكر فوائد استعمال الآثار الكونية فى جلب المنفعة ودفع المضرة ، يكون بذلك كالغيث النافع عند نزوله لشرب المخلوقات الحية ، واحياء الأرض الميتة بعد انقطاعه ، وإذا تجمل بحلل توجه المعية تلذذ بشهود جماله سبحانه وتعالى ظاهراً .

الأخذ بالرأى

مهما ترقى الإنسان فى درج الكمالات العلمية ؛ وأدرك بمقدمات المعلومات نتائج الأحكام ؛ فهو مخطىء فى إدراكه ، إلاَّ إذا تلقى تلك المقدمات مسلمة من حجة عدل عالم متمكن ، تلقاها عن مثله ، وهكذا حتى تكون نتائجه عبارة عن أحكام مندمجة فى تلك المقدمات الحقة ، وبذلك يكون حجة ــ وإن لم يبرأ من الخطأ ــ لأن الإنسان مجموع قوى متفاوته علوا وسفلا ، لا تتجرد قواه العقلية الظاهرة من أدران القوى السافلة من الحظوظ والشهوات ، فهو بهذه الواسطة قل أن يكون مصيباً فى يقينياته العلمية ، فكيف يصيب فى أحكامه الدينية ؟! اللهم إلاَّ إذا تحقق بكمال اليقين الذى جعله مراقبا لعظمة الحق فى أقواله وأعماله ، وعُلم منه كمال التورع عن الشبهات ، والتباعد عن الصغائر ، والتمسك بحكم

---

(١) سورة يونس آية ١٠١ .

الكتاب والسنة ، حتى تطهرت تلك البواعث النفسانية ، وتبدلت صفاته الحيوانية بصفات كاملة ، وأخلاق طاهرة ، يطمئن بها أهل الإيمان الكامل ، وتنشرح لها صدور المخبتين إلى الله تعالى .

فيكون ذلك الرجل هو القدوة فى القول والعمل ، لأنه يصير أعلم بالأحكام من غيره ، فإذا أفتى بحكم يجهله بعض الناس أو ينكره البعض لم يكن ذلك عن رأيه ، بل لأنه متمكن من فروع الشريعة وأصولها ، عالم بظاهرها و باطنها مما هو مراد الله تعالى من هذا الحكم ، وهو الإمام المقدم .

ولكن مجرد فكر ورأى دفع إليه حظ خفى وهوى متبع ، مع علم العامة والخاصة بمن هو الحاكم به ، من حيث تمسكه بالدين وميله إليه ، وحبه لأهله ، والعمل لأحبائه ، و بغض أعدائه ، والحكم بما حكم الله ، والكراهة لغير ذلك ، لا يتحقق متحقق أن هذا هو الحق ، خصوصا إذا كانت ميوله بغض المتمسكين بالدين ، وكراهة المقبلين على الطاعة والذكر ، والإنكار على المحبين لأهل الخير ، والمعظمين لمن أحب الله تعالى ، كل هذا دليل على أن الحكم من هؤلاء — وإن وافق العقل و بعض النقول — يأبى الورع أن يعمل به أو يقبله خشية أن يكون مدسوسا عليه فيه ، أو مراداً لأمر لا يرضاه الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم .

الغرور بالدنيا

الإنسان أقرب حيوان للتأثر بالظواهر الكونية ، خصوصا إذا كان فارغ الفؤاد من الكمالات الإنسانية الذى بها يذوق لذة التفكر فى الآثار الكونية ، التى ترجع به إلى العلم بمبدئه ونهايته ، وتحقق المشهودات والنظر إليها بالفكر العلمى ، الذى يشير إلى خواصها المودعة فيها بقوة المبدع لها ، والفكرة التى استنتجت فوائد تلك الخواص للانتفاع بها ، و يذوق لذة الإيمان بمن وهب المادة وأودع فيها الخاصة ووهب العقل المرشد لعلم تسخيرها ، بترتيب أو تركيب أو خلط أو مزج أو غير ذلك ، حتى يتحقق كمال التحقق بمكانة الواهب المفيض سبحانه ، و يعلم حق العلم أن هذه إنما جعلت ليستخدمها الإنسان فى منفعتين :

الأولى استعمالها فى حفظ حياته وراحته . وشكر المنعم عليها بمساعدة عبيده والتقرب إليهم ، ومساواتهم بنفسه،بحيث لو غفل عن إحدى المنفعتين كانت للضرر أقرب منها للنفع .

وإن كان السواد الأعظم تشغلهم المنفعة العاجلة فيزاحمون عليها ، و يقفون عند من وهب له الفكر فى انكشاف خواصها ، مادحين له ، شاكرين لفضله ، وتحصل لهم الدهشة ، و يفتخرون بمن وهب له هذا الفكر ــ ولو كان ممن غضب عليهم الواهب سبحانه ــ لأنه يهب من يشاء ما شاء ، لا لعلة ولا لغرض ، بل يظهر آياته على يد من يشاء عبرة للعباد ، وذكرى لآياته . وهذه البحار والهواء والجبال والحيوانات ؛ تحدث ما يدهش العقول ويحير الألباب من المنفعة للنوع الحى ، والشمس والقمر وغيرهما من جميع الكائنات . وكثير من الناس من اتخذ هذه الأشياء آلهة تعبد من دون المفيض للخير ، وكذلك أهل الغرة بالله تعالى ــ الذين غرتهم الدنيا ــ يكادون يعبدون من اخترع صنعة أو كشف خبئة نسيانا للمفيض سبحانه ، وغفلة عن الحق ، حتى تهوى بهم الغرة إلى جهل الحق ، وإنكار الدين ، والإقبال على الزهو والكبر ، والتهاون بأمور الدين « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ » (١) وليس ذلك إلاَّ من مجالسة أهل الغفلة ، المغرورين بعاجل الأمر ، فلا يشغلك هذا الأمر الذى هو فى الحقيقة موجب ليقظة القلب والفكر والتدبر فى آيات الله سبحانه وتعالى ، وكثيرا ما أوجب هذا الأمر الغلو ، حتى أنكر المغرور كثيرًا من آيات الله وأوامره ، حتى أنكر مقام الألوهية ، ولم يتمتع بالدنيا إلاَّ قليلاً ، ثم سيق إلى القبر مغضوباً عليه ــ والعياذ بالله تعالى ــ فندم ولات حين ندم ، فتنبه أيها الناظر لهذه المظاهر ، ولا يشغلك ما به تتقرب إلى الله فتتقرب به إلى النار ، والله سبحانه وتعالى الموفق .

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٤ .

الفصل الرابع

السير إلى الله تعالى

١ ــ الصلح :

ربكَ أقرب إليك منك ، وأولى بك من نفسك ، لو تدبرت فى حقيقتك ومنشئك ، وما يتولاك به من مدد الإمداد والإيجاد ، وما هو عليه سبحانه وتعالى من الغنى المطلق عن جميع الكائنات ، وأنه سبحانه لا تضره معصيتك ، ولا تنفعه طاعتك ، ويحب إقبالك عليه ، و يكره فرارك منه . ومهما ظلمت نفسك وأُبت إليه سبحانه مقرا بما اقترفت ؛ موقناً بأنه هو الله القادر الغفور الرحيم ؛ الذى يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن كثير، فإذا أقبلت أيها المسئ لنفسه بقلب خالص وعزم ثابت ؛ لباك مولاك ، وأبدل كل سيئة بحسنات من فضله ، لأنه سبحانه العلى العظيم ، الولى الغفور، يحب أن يظهر العبد أمامه متحليا بحلة الذل والمسكنة ، والتملق والرجاء ، والخوف والتوبة والإنابة ، لأن تلك الحلل هى أجمل حلل العبودية أمام عظمة الربوبية ، ومتى تحقق العبد بهذه المقامات ؛ أفيض عليه من لدن حضرة الحق حلل القبول والإقبال ، والعفو والغفران ، وفتح له باب الفهم والتدبر، ومشاهدات الملكوت الأعلى ، حتى يذوق من رحيق القرب شراب الود ، فيطيب ويغيب عن ذنوبه وعيوبه ، راتعاً فى رياض المكاشفة والأنس بالنظر إلى جمالات الآيات الإلهية ، حتى يتحقق كمال التحقق . ولذا قيل : (من لمحةٍ تقعُ الصلحة) ومن تدبر أسرار هذا الأمر يذوق حلاوته والله الموفق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٢ ــ صدق الحال :

قد يتحلى المريد بحال صدرت أنواره عن رياضة بدنية ، و يدوم حاله بازدياده من هذا النوع ، حتى يذوق لذة العمل . وقد يتحلى بحال ناشيء عن قول علميٍّ مُنِحَهُ بمقدمات علمية فيجد و يتلذذ بحاله ، وقد يكون الحال بنشوة فكر، أو جلوة ذكر، أو ورود خاطر، فينمو الشوق و يزداد الوله . ولكن كل حال ورد على المريد فى بدايته فلا يسمى حالا صادقا إلاّ إذا تحلى به بصحبة مرشد عارف ، يميز بين الواردات الروحانية والنفسانية ، حتى يتحقق المريد

بالصدق فى الحال . وإلا إذا تحلى بدون الصحبة فزوال الحال متحقق ، وذلك لأن النفوس التى تكتسب الحال بعوامل المجاهدة يزول حالها بأقل وارد ، فكثير من المقبلين المجدين فى العمل ، المتلذذين بالجهاد ، قطعتهم كلمة يقولها رجل فى دسائس النفوس ، أو جملة كتبت فى كتب تشير إلى مقام أعلى ، أو بعض حكايات أهل الرياء وما ورد فى ذم المرائين من الآثار ، انعكست عليه أحواله ، وسئم الجهاد ، وتوانى فى العمل حتى تنمحى أحواله ، وما ذلك إلاَّ من عدم الصحبة .

أما المريد الذى أسعده الله بالاسترشاد على يد أخ عارف بالله تعالى ، و بطرق الوصول إليه سبحانه ، ذاق فهم الأحكام ، وعلم قوى النفوس ومناهج تطهيرها ، وأبواب تجريدها من درن الهوى والشهوات والحظوظ ، و بلغ منزلة الاستنباط ، وتحقق بحق اليقين حتى يسير به على سنن مسنون شرعا ، وسلك به مسلكا سلكه قبله السيد الهادى صلى الله عليه وسلم ، فيصل بصحبته لأعلى عليين ، آمنا من قواطع الطرق ، ومن دسائس النفوس ، ومن التطرف لحد لم يسلكه نبى ولا صديق . وبهذا يسعد السعادة الأبدية و يكون من الذين لهم الأمن وهم مهتدون . نسأل الله تعالى أن يمنحنا الهداية وحسن الدلالة والتوفيق بجاه النبى الكريم آمين .

٣ ـ الفرار إلى الله :

الإنسان الذى ذاق حلاوة الإيمان الكامل من باب التسليم بفرح العلم ، وطرب سماع نغمات اليقين الصادر عن أفق أنوار شروق شمس الحق ، هذا هو الإنسان الذى رضى الله عنه ورضى عن الله ، فإذا تحقق بمقام الرضا ؛ وتحلى بالثياب الصفاتية التى أمر بطهارتها ؛ حفظ بالحفظ الربانى من حضرة التنزلات الإلهية ، من سماع خطاب الخير الذى هو أمر فى الحقيقة بالنسبة لولايته تعالى من حيث قوله « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » (١) وإذا حفظ بحفظ الولاية ؛ هبت عليه نسمات الجذب لتلك الحضرة بشهود فناء ما سواها ، فيميل بكل ظاهره و باطنه بهذه الولاية الربانية والتوفيق والعناية إلى تلك الحضرة العلية ، حتى لا يكاد يشتغل بغير هذه الأنوار القدسية والآيات الحقية ، وفى هذا المقام تتجلى له مظاهر المحسوسات .

---

(١) سورة الحجر آية ٤٢ .

مذاكرة :

قال الله تعالى : « إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡماً » (١)

الإنسان إذا ذاق حلاوة الأنس بشهود سر ما أودع فيه من تجليات الربوبية ؛ المشهودة بعين يقين ضميره من حضرة الغيب ؛ مال حسه إلى أن يشهد تلك الرتبة ــ رتبة الربوبية ــ ، فإذا لم يتداو بدواء سماوى عن تلك الميول الحسية ، انعكس نوره ظلمة ، وأنسه بالغيب وحشة ، فجسّم واشار ، وجعل الرب ناسوتا جسمانيا قام بلاهوت حيوانى ، واستدل على ذلك بآية خارقة للعادة ، يستأنس بذلك من لم يذق أسرار الغيب ، ويميل إلى ذلك من لم يشهد نور تجلى الرب ، وقد ظهرت تلك الانفعالات النفسية من قوة الخيال إلى حضرة العيان ، أعنى به سامرى بنى إسرائيل ، وعكف هو وكثيرون على عبادة ما جسمه بيده من الحلىّ ، حتى جاء سر السماء الظاهر على لسان موسى وعصاه و يده ، فصدع بالحق ، وأبطل الباطل ، وكشف حجاب الحس عن عين البصر ، فلمعت أنوار البصيرة على أولئك المارقين من حصن الإيمان ، فندموا ندامة محقت أنفسهم الحسية الحيوانية بدليل «فاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ» (٢) فتفضل الإله المنزه فتاب عليهم ، ثم ترجم لسان الربوبية الناطق بلسان النبوة عن حضرة الألوهية بالتنزل الفضلى قائلا : « إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ » مشيراً أولا إلى رتبة الألوهية لظهورها حسا ومعنى لكل متدبر ، واختصاص تلك الرتبة بالذات الأحدية المنزهة عن الحيطة والنسبة ، العلية من إدراك العقول والأوهام والخيالات ، فاندهش السامريون لقصر مداركهم وعدم تأهلهم لحضرة القدس الأعلى ، لأنهم لا يمكنهم أن يخصصوا تلك الرتبة بالذات العلية قدراً ، التى : العلم بها جهل ، والجهل بها علم . فتنزل فضلا منه وكرما ، وأوقفهم فى موقف الغيب عن الحس ، ليذوقوا حلاوة الشهود البصرى من حضرة الغيب المطلق عن التقيدات الغيبية ، فقال « ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» مخصصا تلك الرتبة الألوهية على غيب الهوية ، ليتيقنوا أن الحق غيب لا يُشهد إلاّ بعين البصيرة ، وظاهر لا يعلم إلاّ بكشف الحجب الكونية ، فانبعثت من شمس بيان التخصيص الأول بالذات القدسية أشعة أنوار المعرفة لأهل الاختصاص بالقدس الأعلى ، ومن التخصيص الثانى الغيبية عما سواه سبحانه وتعالى ، فكانت الرتبة الأولى رتبة المتمكنين من الأنبياء والمرسلين

(١) سورة طه آية ٩٨ .

(٢) سورة البقرة آية ٥٤ .

والصديقين ، والرتبة الثانية رتبة المجذوبين للحق بالحق ، أهل الفناء المطلق . ثم أيد معنى اللسان الحقى المشرب الأول والثانى بكلمة هى من جوامع الكلم ، يذوق كل سامع منها حلاوة مشربه قائلا (وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) فالأول شهود السعة الذاتية الماحية لكل شيء والثانى السعة الهوية ، الساريين فى كل شئ ، فثبت قدمه فى حضرة (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) (١) وأشرق أنوار بصره من حيث الوجهة ، فارتفعت ستائر الكون فى لآلئ الغيب وذاق حلاوة (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (٢) من حيث لا حيث بالنسبة المقيدة ، بل من حيث إطلاق الرتبة المقيدة .

رموز التكاليف :

التكاليف فى مقام الإسلام لرياضة الناسوت وصفائه من كدورات التشبيه بإبليس ، حتى تضعف القوى النفسانية لا تباع أوامر الناموس الشرعى ، واجتناب نواهيه ، و بذلك تقوى اللاهوتية على النفوس ، وتصفو من الأغيار ، فتذوق حلاوة الإيمان السمعى ، وعندها تقر المحبة وتكون التكاليف كقربات من المحبين المحبوبين . والرتبة الأولى رتبة الصالحين وحالهم بالمجاهده ، والرتبة الثانية رتبة الأولياء وحالهم الاستقامة . ثم تقوى الروح بالانقياد للشرع الشريف ، حتى تشهد مفصل المجمل منه به ذوقا ، وتقوى المحبة فتحن لأصلها ، وتميل لكلها مع علم يقين ، وهى رتبة المحسنين وحالهم الرجاء لتحققهم ، لأنهم فرع من شجرة وحدة الكون . والتكاليف فى هذه الرتبة إظهارٌ للتحقيق بمقام وحدة الأفعال والأسماء والصفات ، و يرمز عندهم بالفرق المشوب بالجمع ، ولم يزالوا فى رجاء للالتحاق بهذه الوحدة مع أنهم فى مشهد قد أفناهم عن الحسيات لاستغراقهم فى عالم الروح ، ومتى دخلوا خيطة الأحدية المقدسة ؛ وشهدوا تجليات الأسماء والصفات عَيْنَ يقين انجلت لهم الوحدانية ، فتحققوا بالتجليات حق يقين ، وعند ذلك تشرق شمس الوحدانية على قمر التكاليف فيتحققون بالعبودية ، وهى رتبة اليقين ، وحالهم الخشية . والتكاليف عندهم هى العبادة لأنهم هم العبيد حقا . وليس بعد هذا المقام إلاَّ التحقق بمجلى الذات الأقدس فى

---

(١) سورة الحديد آية ٤ .

(٢) سورة البقرة آية ١١٥ .

مقام نهاية النهايات ، ولا يكون صاحبه إلاّ متحققا بجميع شرائع الرسل السابقين من حيث اليقين ، وارثا حقيقيا لحضرة سيد الرسل على ذاته الشريفة وعليهم الصلاة والسلام .

التكاليف في الرتبة الأولى رياضة ، وفي الرتبة الثانية قربات ، وفي الرتبة الثالثة طاعات ، وفي الرتبة الرابعة عبادات . قال الله تعالى مخاطبا لأهل الأولى : « وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » (١) ولأهل الثانية : « مَن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً » (٢) ولأهل الثالثة : « أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ » (٣) ولأهل الرابعة : « وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » (٤) ففي كل آية من المشارب الذوقية والمعاني المعجزة ؛ ما لا يقف على حقائقها إلاّ من سمع الخطاب الإلهي من كشف حجب صفات الكمال المنزه عن الحرف والصوت ، فسبحان المعطي الوهاب ، والصلاة والسلام على حيطة العلوم والمعارف وعلى آله وصحبه وسلم .

الدرجات العلية الوهبية :

مقامات الترقيات تبتدئ أولاً بالانقياد والتسليم ولو ظاهراً ، ثم تنتقل بما هو برهان على كمال الانقياد ، فالأول هو النطق بالشهادتين ، و يؤيدهما ظاهر العمل بما يشعر بتصديق ذلك ، وهو الصلوات الخمس على أتم شروطها ، والصيام في أوقاته على أكمل واجباته ، والزكاة بحسب ما بين في تأديتها ، والحج بجميع أوامره ، وهذه درجة الإسلام . فإذا ارتقى الإنسان بتلك الدرجة وتحلى بكمالها أشرق عليه في كل ركن من أركانها نور رباني ، يكسوه حلة يرتقي بها إلى الدرجة العلية فيشرق عليه من النطق بالشهادة أنوار سر العقيدة ، وغوامض أسرارها ، وجواهر كنوزها ، فيذوق حلاوة الإيمان ، فيرتقي من أنوارها إلى درجة الإيمان بحسب اليقين العلمي ، و يلوح عليه من كنوز أسرار الصلوات الخمس خفي شهود مقام الوقوف بين يدي مولاه ، الذي كمل إيمانه باستحقاقه لجمال الصفات وجلال الأسماء ، فيذوق لذة الخضوع والخشوع العبدي بالأعضاء الناسوتية عن علم اليقين بالفؤاد ، فيسلك في عقد القانتين ، ويرتقي درجة القرب الإنساني ، بلذيذ حلاوة الذل للحضرة العلية عن الشبيه والمثل ، وهذه هي درجة القانتين . وتنكشف عنه حجب الحظوظ الدنيوية

---

(١) سورة الحج آية ٧٨ .

(٢) سورة الحديد آية ١١ .

(٣) سورة النساء آية ٥٩ .

(٤) سورة النساء آية ٣٦ .

عندما يقوم بإيتاء الزكاة صادقا بها ، موقنا الانقياد لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، و بذلك تفاض عليه حلل باطنية عن علم اليقين ، يقوى بها اعتقاده بانفراد الحق بالملك لكل شئ ، و يشم منها أنه عبد لله ، مأذون من قبله بالتصرف فيما يملكه ، المودع عنده من ملكه سبحانه وتعالى ، فيكسى جمال حلة التصريف ، و يرتقي درجة القرب المخصوص بالصادقين ، و يكون أهلا لأن يتحلى بحلل أهل العزم من كُمّل المقربين ، الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى : «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ » (١) فتظهر له أحوال امتحانية ، يظهر بها كمال إيمانه أو ضعفه ، فإذا ثبت موقنا رفع إلى درجة الصابرين ، و يصدق عليه أنه من أهل تلك الدرجة الرفيعة .

وبهذا المقام يكون للصبر مظهران : مظهر قلبي وآخر جسماني ، فإذا تحلى بالرضا ظاهراً و باطناً بدون أن يكون له في ذلك حال ينبىء بأنه مقهور لا قوة له على التخلص من هذا ؛ فهو ناقص الإيمان إذا كان كذلك ، وأما الصابر فهو الذى يتحقق أنه يرجو بالصبر على الابتلاء رضاءَ الله تعالى ، ويتلذذ بذلك سرا وعلنا بدون جزع ولا هلع فهو الصابر. وبهذا يرتقي درجة الصابرين العلية قدراً ، ويكون بها أهلاً لأن يكون في درجة الخاشعين ، الذين تحلوا بالرضا ظاهراً و باطناً ، واطمأنت قلوبهم ، ولانت جلودهم . وهي درجة الخاشعين حقا .

ولدى تحليه بتلك الجمالات العلية تشرق عليه من شمس التصديق السابق حقائق «لِلَّهِ مَافِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ » (٢) فيشم طيب أن المال لله ، وهو وديعة عنده يتصرف فيه سبحانه وتعالى كما يشاء ، و يقوم بإخراج الزكاة المفروضة التي أمره بها مالك المال سبحانه للوجوه التي أمر بصرفه فيها ، و بذلك يتحلى باطنا بحلى أنه عبد ، وظاهراً أنه مأمور بأوامر مقدسة ، يلزم القيام بتأديتها إجابة لأمرسيده سبحانه ، و يتلذذ بكونه مؤتمنا عند من أودعه ملكه ، ووكله على ملكه ، و بذلك يكون من المتصدقين . والصدقة صادقة بأن يتصدق بواجب أو بنفل ، وقد بين ذلك في مواضعه . فإذا ارتقى إلى تلك الدرجة العلية ؛ ظهر له من وراء الحس نور يذوق به الاستئناس بأنه سبحانه وتعالى له ملك المال ، وله ملك النفس ، يتصرف فيهما سبحانه وتعالى كيف شاء ، فيلمع عليه نور: « إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة محمد آية ٣١ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٤ .

أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » (١) ويرى سر ذلك ظاهراً في وجوب الصيام ، الذى هو امتناع عن المباح مطلقا مدة معينة ، عيَّنها الحق سبحانه وتعالى لكمال تصرفه فى النفس ، بعد كمال تصرفه فى المال . ولدى قيامه بهذا الركن يرتقى لدرجة القرب إلى الملأ الأعلى ، ويتنسم نسيم اليقين الكامل ، الذى به يعتقد صحة بيع نفسه وماله للمالك لهما سبحانه يتصرف فيهما بحسب أوامره الشرعية ، وبذلك يرتقى درجة الصائمين ، وبهذا يتوج بتاج اليقين .

فإذا تطهر بغيث توفيق شهود أنه باع ماله بالصدقة ، وباع نفسه بالصيام والجهاد ، انكشف له بنور يقينه ستائر إلْزَامِهِ بأنه لا يتصرف فى نفسه بأكل وشرب ؛ أو حركة أو سكون ؛ إلاَّ بأوامره الصادرة من عنده سبحانه وتعالى ، فنشأ من ذلك حفظ الأعضاء إلاَّ فى مرضاة السيد سبحانه وتعالى ، ومن أعظم أعضائك الفَرْجُ فتكون بحفظه الذى يتعسر على أكثر الخلق ؛ قد تمكنت من حفظ غيره بالأولى ، لأنه أشَدُّ وأقوى الأعضاء دفعاً إلى المخالفة ، وبذلك ترتفع إلى درجة الحافظين لفروجهم ، وبذلك تطهر قواك ظاهراً وباطناً ، طهارة تنكشف بها عنها الحجب التى رانت عليها فحجبتها عن القيام بما خلقت له من رفيع المنزلة وعليِّ المكانة . وبهذا الكشف ينتقل هذا الكامل إلى مقام الإحسان الذى هو عين اليقين ، وبه تتجمل جميع قواه ظاهرة وباطنة ، بشهود ماأودع فيها من بديع رفيع الجمال الربانى ، فتنطلق كلها ألسنة ذاكرة ، وعيونا شاهدة ، وقلوبا واعية ، وآذانا صاغية .

وبهذا يتصف بأكمل صفة وهبها الله تعالى لمن اصطفاهم ، ألا وهى درجة الذاكرين الله كثيراً ، فإن الذكر ليس المقصود به ذكر اللسان فقط ، بل المقصود به نطق كل عضو من أعضائك بالذكر بحسب ما يناسبه ، فذكر الآذان السماع ، وذكر العيون النظر ، وذكر القلوب العقل عن الله ، وهكذا باقى الأعضاء ، وفى هذه الدرجة يتحقق الإنسان بقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه « كُنتُ سمعَهُ الذِى يَسْمَعُ بِهِ » وهو مقام الإحسان وعين اليقين ، وهذه هى الدرجة العلية والمقامات السامية ، وليس بعدها إلا مقامات حق اليقين ، نسأل الله تعالى أن يجملنا بجماله إنه سميع الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

الإنسان :

قال تعالى : « وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ » (١) .

الإنسان ومـاأدراك ما الإنسان ، مجموع قوى الحيوانات ، وانفعالات الشيطان النفسانى من حيث قواه النفسانية ، لا يشهد نور ما ظهر بعيون اليقين لاحتجابه بظلمات تلك القوى المؤثرة عليه بدواعيها الفعالة به ، فهو المحجوب بالأدران النفسانية ،المبعود بالحظوظ الحيوانية ، لا يذوق لذة الإيمان فى حال من الأحوال ، ولا حلاوة الإحسان فى مقام من المقامات ، فهو فى حال النعمة معرض عن المنعم الحقيقى ، غافل عن مفيض النعم ، معتقد أنه هو الموجد للنعم ـــ غرورا منه ـــ وليته وقف عند هذا الحد ، بل يدعوه الغرور إلى التهاون بالدين والتلاعب به فيتخذ دينه لعباً ولهواً ، وتغره الأمانى ، هذا حاله فى النعمة . فإذا سلب المنعم نعمته عنه ؛ وأذاقه ألم الاحتياج يئس وقنط ، وباع دينه بدنياه ، وتلاعبت به الحاجة كيف شاءت . وهكذا ، حتى يزكى نفسه بنور التسليم والانقياد للدين ، ودراسة العلم النافع وتلقيه من العارفين المتمكنين المخلصين .

نعم ، الإنسان المقيد بأحكام المادة خاضع لأدوار الحوادث ، ينظر مايسره مما يلائم طبعه وحسه وراحته وعلو مكانته ، إن بموافق للشرع وإن بمخالف له ، حتى تراه يسره ملك مابه يخلد فى النار ، وعمل ما به يطرد عن رحمة الله بدون تبصرة فى مستقبل ، ولا تأمل فى حال وشأن ، ويدوم هكذا حريصا على هذا ، ناهجا مناهج الطمع والحرص على أن ينال الشهرة والمجد والشرف والعلو فى الأرض ، ويسعى بنشاط لنيله بالفساد فى الأرض وآذية الخلق ، يسره ضرر غيره ، ويفرحه نيل مطلوبه ، حتى يهاجمه المرض العضال ، ويقوى هين الأمراض ، فيئن عند شدة المرض وينسى الدنيا ومافيها بشواغله القوية ،فإذاسكن هذا الألم رجع إلى حرصه ومقته للناس ، ويرتب مايعمله غدا مما يعود عليه من الفساد والبغى ، حتى تزهق روحه وهو فى غفلة عن مآله ، فيرجع بأحمال تثقل الجبال ، فيندم ولات حين ندم .

كل ذلك من قوى النفس القائمة بهيكله التى تنفعل عنها الانفعالات النفسانية ، فينقاد بهذا العامل بدون تَرَوٍّ ، والله سبحانه وتعالى ـــ لتكون له الحجة البالغة ـــ أرسل الرسل الكرام بالهداية والحكمة والموعظة البالغة ، التى تومى إلى مشاهدات الروح ، وما تؤول إليه

(١) سورة فصلت آية ٥١ .

نهاية مرجعها ومن أين مبدؤها ، لأن الروح الملكية سماوية مصدراً ونهاية وإقبالاً وقولاً وعملاً ، لاستمدادها من نور الملكوت الأعلى . ولا يمكن أن يتحصل الإنسان على تلك المنزلة السماوية إلاّ بتزكية نفسه ، وتطهير قواه الحيوانية ، بالانقياد للأوامر الشرعية الموضوعة لتطهيره من أخلاق القوى الإبليسية من الحسد والكبر والفساد والتفرقة والتعالى ، وحب الجاه ، والبغضاء والحقد والكيد والخبث وغيرها ، وأخلاق الحيوانات المفترسة ، والحيوانات الداجنة من الخوف والجبن والحرص والبخل والنفاق والتملق والحيل وحب الشهوات وغيرها ، وبقدر انقياده للشرع ؛ وتمسكه بأنواع العبادات المختلفة الموضوعة لحكمة تطهير مجموعة نعوته وأخلاقه الإبليسية الحيوانية ؛ بحسب ما يناسب كل قوى ، لديها يذوق لذة كل نوع من أنواع القرب ، ويشهد لدى التلذذ سر الحكمة فيه وفيها ، وإذا شهد هذا المشهد يترقى من رتبة الإنسان إلى مقام الإنسان الكامل فى نوعه ، وبذلك تنكشف له حقيقته فيعرف ربه ، وبذلك تكون أنفاسه وتسبيحاته وحركاته : « لاَ يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ » [(١)] فيكون فى مشاهدات الملائكة المقربين حكماً وحالاً ومآلاً .

وهذا هو الإنسان العالم بالله تعالى ، المتمكن من معرفة حقيقته ، نسأله سبحانه وتعالى أن يناولنا من شراب القرب رحيق الحب ، وأولادى وأهلى وإخوانى والمسلمين آمين .

السلوك :

الرجل السالك حقيقة من ذاق حلاوة الإيمان بسر أضاء بالعلم الحقى ، ومحقق باليقين الكامل ، وبظاهر تطهر بعلوم الشريعة ، عاملا بما علم ، حتى تكون أخلاقه كاملة ، بمعنى أنه يتحقق بأن كل إنسان سواه مجمل بجمال الأخلاق ، وأنه محتاج أن يتخلق بما عليه غيره من حسن الأخلاق وصحيح الأعمال ، وذلك لأنه لا يجالس إلاّ أهل الخير ، ولا يعاشر إلاّ أهل الصلاح والعلم ، لأن السالك من سلك طريق أهل الخير لحبه لهم وحبهم له ، وميله إلى اتباع مناهجهم . فهو لا يهوى إلاّ أهل النفوس التى تزكت ، والأبدان التى تخلت عن خبيث الصفات وقبيح الأعمال ، وتحلت باتباع الشرع ، والعمل بما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويتباعد عن مجالس اللهو والفسوق ، وأهل الغرة بالله تعالى ، الجاهلين المستدرَجين .

---

(١) سورة التحريم آية ٦ .

فهذا السالك لا يقع نظره إلاَّ على تقيٍّ مقرب ، أوزاهد عابد ، أوفقير مبتلى ، فيكون ساخطا على نفسه وتقصيره ، شاكراً ربه على نعمه ونواله ، لا يزداد فى كل نفس إلا قربا إلى الله تعالى ، وشوقا إليه ، وذمًّا لنفسه ، وتخلية لها ، وطهارة لأخلاقه وتجملا بكمالها ، فلا يرى على البسيطة أقبح عملا منه ، ولا أجهل منه ، ولا أحوج منه . وبذلك يحبه الله ، ويجمله بأخلاقه الربانية ، ويحليه بنور الشرع الشريف ، فيحبه الناس من أهل الخير ويألفونه ، فلا يزداد من الله إلاَّ قرباً ، ومن الناس إلاَّ حبا، يتباعد عن الدنيا فتطلبه ، ويجتهد فى القربات فيجعله الله ميسر الأمر ، منشرح الصدر ، تتوالى عليه البشائر ، وتوافيه الخيرات والبركات ، وهو ذلك المشغول بربه ، الخائف منه ، الراغب فيه ؛ فإذا أحبه الخلق وتوالت عليه النعم ؛ وجب عليه الفرار إلى الله من الركون إلى تلك الآثار. التى ربما شغلته ، فجعلته يعرض وينأى بجانبه ، وهى نقطة المحنة ومكانة الفتنة . قال الله تعالى : « وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ » (١) وهذا سببه أنه لم يخرج من إنسانيته ، ولم يتطهر من بشريته . والأحرى بمن هذا شأنه ؛ الفرار من الخلق والتباعد عنهم ، حفظا على نفسه من القطيعة ، إذ السالك الصادق هو ذلك العبد وإن متع بكلمة كن ، لا تحجبه الآلاء عن عظمة المنعم ، ولا تشغله الآثار عن خوف مقام المؤثر ، ولديها يرث الأحوال النبوية ، ويتناول من كوثر التحقيق شراباً طهوراً ، يتلقى به من ربه سبحانه وتعالى أسرار المعرفة ، وآيات القربات ، وعيون حقائق الأعمال والمعاملات ، وبذلك يصلح أن يكون رجلا من أفراد الرجال المخصوصين بخلوته وجلوته .

وقد يتحقق الرجل بكل تلك المقامات بسابقية الحسنى فتفاض عليه حلل الإقبال والقبول فضلا من الله : « قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » (٢) وهم أهل العناية المطلوبون للحق بالحق .

انظر إلى الصديق الأكبر ، وإلى باب الفتوة لسان النبوة حيدرة ، وإلى سلمان الفارسى ، وبلال وأمثالهم عليهم السلام ، كيف اختطفتهم العناية ففازوا بالخصوصية المحمدية بباعث نفسانى ، بدون سابق جدل أومعارضة أوبحث : « ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

(١) سورة فصلت آية ٥١ .

(٢) سورة يونس آية ٥٨ .

يَشَآءُ» (١) . وهكذا فى كل زمان أفراد جذبتهم العناية ، فكانوا نجوم الدين ، وشموس السنة ، وبدور الشرع ، بهم ينظر الله تعالى إلى عباده ، وبهم يسبغ رحمته ، وبهم ينزل الغيث ويمهل الظالمين «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »(٢) ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى هؤلاء الأفراد حالاً وقولاً وعملاً بحقيقة الرسالة للوراثة المخصوصة (وَفِيكُمْ رَسُولُهُ) (٣) وإذا تحقق عبد الذات بهذا المقام كان فرد الحق المخصوص بأنه بأعينه ، لنيابته عن السيد الأكمل صلى الله عليه وسلم ، وخلافته عن ربه فى الأرض تحققا وشهوداً ، وهذا سِرٌّ لا يدرك بالعلوم ، ولا يؤخذ بالرياضة العقلية والبدنية ، وإنما هو نور يهبه الله تعالى لأهل الخصوصية ، بلسان الحكمة الحية من عين الحياة ، فتلقى فى فؤاد مؤهل تنمو وتربو، حتى تشرق تلك الأنوار من جميع الأعضاء العاملة فى الهيكل الإنسانى فيكون كله نوراً ، والنور هو النور « ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ » (٤) الحمد لله على فضله بفضله ، وكرمه بكرمه ، وإحسانه بإحسانه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

أسأله المعونة على شكره وذكره وحسن عبادته آمين ، وصلى الله وسلم على فرد ذاته مَن العالم كله لأجله وعلى آله وورثته والتابعين آمين .

نعم للرجال أسرار حجبت عنها أهل العقول :

سبحان من يهب الحكمة لمن يشاء ، إن الحق تقدست صفاته وتعالت آياته ، اختص من عباده قوماً اجتباهم للدار الآخرة فشغلهم بها ، فأجسامهم فى الدنيا عاملة على نوال تلك الحظوة ، التى تحققوا يقينا بأنها ولا محالة كائنة ، ولابد من الرجوع إليها ، وأنها لا تنال السعادة فيها إلا بنوال الوسيلة إليها فى تلك الدار الدنيا ، فوفقهم الموفق لما يحب من الجد والنشاط فى كل مابه نوال تلك السعادة الآجلة فى الظاهرة العاجلة فى اليقين ، حتى بشدة صدقهم تحققوا بأنهم يرون الجنة ويتمتعون بها عند العمل الصالح ، كما يتحقق التاجر بربح السلعة الرابحة ، ويجدُّ فى طلبها ، منشرح الصدر مرتبا مايكتسبه وما يربحه ، حتى كأنه قبل البيع قد ملك الربح فى خزينته . فهؤلاء حدى بهم اليقين حتى ذاقوا لذة وقوع البشرى

(١) سورة الجمعة آية ٤ .
(٢) سورة الأنفال آية ٣٣ .
(٣) سورة آل عمران اية ١٠١
(٤) سورة النور آية ٣٥ .

والوعد كما يذوق المحقق لذة حصول النتيجة ، فهم العاملون على نوال هذا الخير الباقى والنعيم المقيم ، واللذة الدائمة فى الدار التى لافناء فيها .

بيد أن غيرهم شغلهم الحظ العاجل المشكوك فى نواله ، المتحقق زواله ، إما عمن ناله أو زوال من ناله عنه ، لقصور مداركهم ، ووقوفهم عند أملهم وهواهم ، حتى حسن لهم الحظ والهوى تلك الحظوظ الفانية فطلبوها ، وقوى ذلك الرأى الناتج عن تلك الميول ، وزين لهم مدد الرب لهم : « قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا » (١) حتى رأو بسببه الحسن ما حسّنوا ، والقبيح ما قبّحوا ، فسعى بهم ساعى المهلة إلى القول بالرأى والعمل بالهوى ، فعلاماتهم ألسنة تنادى بتقويم أود الدين ، وقلوب ملؤها الحظ والشقاق والتفرقة ، ومساعدة أهل السؤدد الدنيوى ، وأبدان متعاصية على أعمال الدين « وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً) (٢) الحج عندهم ساقط لأن الله أوجبه ، ولأنه بأرض بها آثار دينية مجردة عن الزينات والبهجة الدنيوية ، فترى أعلمهم يرى بلاد الكفر كعبة له ، والتجول فيها قربة لربه الذى يسعى فى نواله ، وأهل العقول القصيرة التى لا تمتد إلى كشف حقيقة السعادة إخوانا له ، حتى حكموا أن الله ليس إلا كما يتخيلون ، محكوم عليه بعقولهم أن لا يختص بسر غامض عن الأعضاء الحسية عبداً من عباده ، وكيف يمكنه أن يفعل ذلك وقد حكم عقلهم السخيف عليه سبحانه بحكم لا يتعداه عقلهم ، وفهم هذا الواهم الكاسد كتابه العزيز برأى حكم أنه مراد الله حقا حتى لو كان لله مراد سواه لخاف الحق سبحانه وتعالى من هذا الشريك ، وغير مراده لمراده ، تعساً لك أيها الغبى الغر .

إن للرجال لأسراراً أذاقهم حلاوتها ، بعد أن هذب نفوسهم بتوفيق ، وألبسهم حلل الذل والتسليم ، والمجاهدة لذاته وفى ذاته ، فهم المجملة أبدانهم بالعمل الصالح والخشوع والتواضع والذل ، وقلوبهم بالثقة والتوكل واليقين والتسليم ، والتوجه إليه ، والرضا عنه ، والحب فيه ، والدعوة له بالحكمة والموعظة الحسنة . للرجال سر أخفاه حتى عن الملائكة ، حتى كأن العبد المصطفى له سبحانه يبتليه ، فإذا صبر اجتباه ، وإذا رضى اصطفاه بنص

---

(١) سورة مريم آية ٧٥ .

(٢) سورة النساء آية ١٤٢ .

الحديث ، لم يكن أيها المغرور الدين كما تزعم عكوفا على العمل الصرف للدنيا ، والغفلة عما أمر الله به أن يعمل .

الدين عقيدة كما نص القرآن ، وخلق كما كان الأنبياء ، وعمل كما كان الصديقون ، ومعاملة كما كان الحكماء الرحماء الكرماء ، أكان الدين جدلا ومعارضات برأى وترجيح ؟ قُمْ فتريض ، وزكِّ نفسك ، وقف موقف الجاهل بنفسه أمام الحق ليفيض عليك غيب علم من أنت ، ولديها تذوق لذة أسرار الرجال ، التى جعل الصحابة رضوان الله عليهم يتركون دينهم وأعراضهم وبلادهم ، ويبذلون أنفسهم ونفيسهم فى نوال تلك الأسرار بعد التحقق بنوالها ، لم يكن ذلك بشقشقة لسان ، ولا مقدمات جدل ، بل كان بحال نبوى ونور قدسى .

إليك عنى يابطال ، للرجال أسرار خفى ظاهرها عن العقل ، وغاب باطنها عن اللب ، ليست بذكاء ولا بمدارسة ولا بحكم عقلى ، وإنما كان ذلك بفضل الله ، والجد فى تهذيب النفوس ، والزهد فى تلك العاجلة ومافيها مما هو مأمولك ومتمناك . أنت بسعيك فى طلب الدنيا خصصت منها بأسرار يجهلها كثير من العلماء أمثالك ، وعلمت رموزاً تغيب عن أكثر الخلق من روابط الدول وأسرارها ، ومعاملة الخلق وأسرار الصنائع والتجارات والمعاملات وأخلاق طبقات العالم ، حتى كأنك بهذه الأسرار عالم بالمستقبل وما يكون للعالم . فتنبه كيف يقبل عبد بقلبه على ربه ؟ ولم يعلم منه أسراراً تغيب عن مثلك ، ويحيط علما بما يحبه ويرضاه ، ويذوق لذة ما يقرّب إليه .

قم أيها المشغول بما لا يجدى ، واسْعَ فى تزكية نفسك ورياضتها ، وتجمل بحقيقة العقيدة الحقة لكمال التسليم ، وتخلق بجمال الأخلاق ، واجتهد فى القربات وحسن المعاملات ، ثم شاركنى نادماً مقبحاً مسعاك ، ساخطاً على نفسك ونفس زمنك ، والله يوفق من يشاء ، ثم بعد ذلك تنعم بمشاهدات تلك الأسرار من « وَفِى ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (١) .

لعل خيالك الكاسد فَهَّمَكَ أن تلك الأسرار هى قلب الحقائق ، ونفع الخلق ومضرتهم ، ومشاركة الربوبية فى الإيجاد والإمداد . جهلتَ وبعدتَ . هذه الأسرار هى يقظة القلب

(١) سورة الذرايات آية ٢٠ ــ ٢١ .

بعامل الفكر، والتدبر فى السموات والأرض كما نص الله تعالى، وخوف بالخشوع والرهبة والرغبة على أعتاب الأوامر الإلهية ، وسعى وجدٌّ بنشاط فى العمل المقرب لرياضة النفوس ، وتطهيرها من أدران الحظوظ والميول إلى الحضيض السافل . والتعلق بمعالى الأمور الطاهرة الموصلة إلى الحق ، بقطع الآمال الفانية من الجاه والرفعة ، والعلو فى الأرض والفساد فيها ، ونقد الخلق ، وفتح أبواب الفتن والجدل ، ومحاربة أولياء الله ، والذل والخضوع للكافر ، والعزة والعظمة على المؤمنين ، وتحسين أعمال من حكم الله عليهم بأن أكثرهم لا يعلمون أو لايعقلون ، وتقبيح أعمال أهل الزهد والورع فى الدنيا والدعاة لله ، والمتحابين على ذكره والإقبال عليه .

أبَعْدَ هذا كله تبتغى أن تنال سرًّا من أسرارهم ؟ أوتفوز بحظوة من حظواتهم ؟!! دع عنك التكلم فيما لم تحط به خبرا ، ولن تستطيع عليه صبراً . تمنعك عناصر مادتك ، وتبعدك أدران آمالك . « وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » (١) فاشغل نفسك بذم المشوهين للدين المتهاونين بحدود الله تنل الثواب الجميل .

منة ونعمة وإكرام

أكمل منة عليك أن يجملك بحلل رتبتك ، حتى تجتلى فيك معانى صفاته وأنت مجمل بجمال مكانتك . والنعمة أن يقيمك عاملا من عماله بمقتضى مراده فى كل وقت . والإكرام أن ينفع بك أحبابه وأولياءه . وغير ذلك كله بلاء ونقم .

حفظ المنن والنعم والإكرام ؛ أن تحصنها بالتبرئة من الحول والقوة فى نوالها بنسبتها إلى الحنان المنان المنعم ، وتحيطها بسور من الشكر عليها عند المقتضى ، وما من نفَس ولا طرفة ولا لمحة إلاَّ ولله علينا منة ، وله فيه نعمة ، فلا ينفك المقتضى يوجب الشكر ، فمن أراد حفظ النعمة تيقظ .

الوقوف عند المرشد :

الوقوف عند المرشد أمان ونجاة ـــ وإن أنزلك عن مقامك وحالك ـــ لأنه يريد لك الوسط لتتمتع بشهود ربك فى كل شىء بوجود كل شىء ، وهو السنة فى التربية . وانظر إلى ذات

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

السيد صلى الله عليه وسلم برده ابن عمر إلى الوسط ، فكن كالميت مع المرشد تحيا أبداً .

نظر المرشد ببصره أعلى فى مراتب التمكين من كشفك ببصيرتك إذا كان أنسك بما هو بك لك فهو وحشة ، وإن كان بفضل تفضل به عليك فافرح مطمئنا .

احذر أن تقف عند حالك أو كشفك ، فإن للمرشد منازلات يكون فيها أحقر الخلق ظاهراً وباطناً لمقتضى المنازلة الإلهية ، وتكون أنت مجملا بحال فتجعل ميزانا بينك وبينه . وكن — مهما ترقيت وتَنَزَّلَ — حلة من حلل جماله ، وغصنا نضراً من أغصان شجرته ، اتصاله حياتك ،، وانفصاله هلاكك . قد يكون المرشد مجملا بحقيقة ذاته التى أنت لم تصل إليها ، وأنت مجملُ بمعية الحق لك ، فتُسخر لك العوالم ، وتلبيك الأسماء ، والمرشد بين خوف ورهبة واستكانة وهيبة ، فتجهل مقامه وتزهو بجمالك .

المرشد سر غامض مرتبته ، وجهر جلي مكانته ؛ ظاهره ذل العبودية وخشوع المشاهدة ، وخوف الإطلاق ، واستكانة المعرفة . وأنت فى بسط الجذب بعامل الود ، كن أشفق عليه من شفقتك على نفسك ، وارهب له من خوفك من النار ، ومهما ظهر لك من ذله واحتياجه إليك واستعانته بك ؛ فاجعل ذلك منزلة الاختبار ، وميدان الامتحان ، وابذل النفس والنفيس قبل الإشارة ، والروح عندها ، وانظر إلى حوادث الصديق مع السيد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ذلك فانهج . إذا ميزك بخصوصية أو رفعك بمزية فلا تجعلها شاغلا لك عن العكوف على ذاته ، واحتقار ملك الأرض فى جانب خدمة أعتابه ، فإنه لو أنس بك ماأبعدك عنه ؛ إلاَّ إذا أقامك مقام ذاته فى شأن من شئون واجباته كما فعل موسى بهارون عليهما الصلاة والسلام ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب فى غزوة تبوك .

حال الرجل :

الرجل فرد من حيث مشاهده ، فإن تمكن وصار وسطا كان حضوره غيبته ، وغيبته حضوره ، فيكون مع جلاسه كأنه معهم لما يشهدونه منه من ملاحظته لكل فرد منهم ، وهو بقلبه سابح فى عوالم اللاهوت الأعلى ، وحاله حال يخفى معقوله لكمال عقله ، وأخفى منه

مشهوده لفنائه عن نفسه ، ولكنه محفوظ بحصون الوراثة الشرعية عن أن يبيح لسامع إلاَّ مايتعقل ، إلاَّ لأهل الذوق العالى والتسليم الكامل .

لأن الناس بالنسبة لاشتغالهم قلباً وقالباً بالمحسوسات الكونية والآمال الوهمية ؛ محجوبون عن مشاهده ، غافلون عن منازله ، غيرمتيقنين حقيقة ما عنده وقفوا ، فهو بينهم غريب حكماً ، منتَقَدٌ عليه من أهل الجهل والضلال حقيقة ، حاله منكورمع معرفته فى الملأ الأعلى وفى كتب الأولين ، وسره خفيٌّ مع ظهوره فى قلوب الموقنين ، ظاهره الضعف ، مع أنه لوأقسم على الله لأبره . و باطنه الرهبة ، مع أنه لوشفع عند الله تعالى لشفع . مجهول عند البعداء ، معروف عند المقربين ، وهو مع ذلك فى رياض الأنس بربه سبحانه «لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) لا يشغله ما يشغل غيره ، ولا يحزنه ما يحزن الناس .

ظهرت له أنوارعظمة الذات الأحدية فملأت عينيه جلالا ، وقلبه رهبة وخشية،ظاهره الرحمة العامة لجميع أنواع الخلائق ، و باطنه تمنى نجاتهم من هول الآخرة ، وهو مع ذلك يتيقن انفراد الحق بالإيجاد والإمداد ، وأنه يغفر لمن يشاء بدون استثناء ، فلا ييأس من قبول المتباعد الجهول ، ولا من تحويل حال المعاند الكفور، ولا يأمن مكرالله سبحانه ولو كان فى الجنة ، لأن مقامه العلى سبحانه لا يتقيد بطاعة ولا معصية ، فهو الرحمن بوسعته الإلَهية ، وهو القهار بعدله الربانى ، والكل مقهورون بقهره ، مسيرون بتقديره ومشيئته ، وذلك الذى جعله لا يحزن إلا حزن خوف مقام ربه ، ولا يفرح إلا بإقبال مولاه سبحانه عليه ، وولايته له ، مع التمكن الكامل من لا حول ولا قوة إلاَّ بالله ، تمكن كشف وعيان وشهود و بيان . هذا حال الرجل . وما سواه مريد رجل حتى يكون هو ذلك الرجل ، والله سبحانه هو المعطى الوهاب .

(١) سورة يونس آية ٦٢ .



الباب الخامس

التجليات الوهبية وحال التلوين ومقام التمكين والمواهب اللدنية والخصوصيات

الفصل الأول

التجليات الوهبية

التجلي الأول :

الكون منفعل بمظهر الأسماء ، ومنور بسنا الصفات ، والمواليد كلها حية بالنسبة لأنواعها ، يشهد ذلك من ذاق حلاوة الحقيقة ، وهي خاضعة لناموس العلم الإلهي وسيره ، ومسيرة بتدبير القدرة طبق الإرادة (وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) (١) (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) (٢) فالمحققون شهدوا الكون وما فيه من مظاهر الصفات والأسماء . فآمنوا بوجدته ، واستملحوا جماله الظاهر في روض الكمال الإلهي ، وإذا كان المنشيء قادراً مريداً فلا تتعلق قدرته إلاّ بما خصصته إرادته ، ولابد لكل اسم وكل صفة من مظهر يظهر به بحسب العلم الإلهي المتعلق بكل الممكنات والمستحيلات والواجبات ، ومن تأمل في حديث جابر ؛ وعلم أن أول مخلوق نور النبي صلى الله عليه وسلم ؛ تحقق بأن الكون من نوره سبحانه وتعالى ، ولذلك فأهل الحجاب يستدلون عليه بالكون . وأهل الشهود يثبتون الكون به ، ويوحدونه فيه ، ومعلوم أن تمام النظام متوقف على ظهور كل اسم وكل صفة بمظهرها من محو وإثبات ، أو فقر أو غنى ، أو رحمة أو عذاب ، أو توفيق أو ضلال (وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (٣) فسبحان من حجب بآثار من تعلقت قدرته أزلا بحجابه . وظهر بصفاته وأسمائه لمن علم سعادتهم (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ) (٤) .

التجلي الثاني :

الظواهر الكونية حجب لمشاهدها ، وقد ظهرت مزينة الظاهر لمن وقف عندها ، ومحلاة

(١) سورة الصافات آية ١٦٤ .
(٢) سورة الإسراء آية ٤٤ .
(٣) سورة هود آية ١١٩ .
(٤) سورة الأنبياء آية ١٠١ .

الأطراف لمن اشتغل بها ، ومنطوية على لآلىء الكنز الأعظم والنور المطلسم لمن تأمل فى مبدئها . فهى حجب لمن حجبه الباطن ، ومعراج لمن قربه الظاهر ، هكذا هى حكمة دقت على الأفهام ، وخفيت إلا على أصحاب الأذواق .

كيف يتصور أن يدرك النور بحالة يحجب بها ؟ أو يتصور أن يظهر بمظهر يخفى به ؟ هكذا تكون الحكمة البالغة ، فالمظهر واحد والنسب مختلفة ، وكل يشهد بحسب ما وعده ووهب له من الفتوحات ، لا بقدر ما اكتسبه من العلوم العقلية ، والأعمال البدنية . قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) (١) .

التجلى الثالث :

مظاهر الصفات والأسماء عند التحقق بها وشهودها ؛ آيات دالات على موصوفها ، لديها يشهد وحدة الصفات والأفعال عن الأحدية المطلقة عن قيود الوهم والخيال ، والنسب والإضافات ، وبهذا التحقق يدخل ميدان الدهشة والحيرة ، إذا نظر وجوداً وعدما وفناء وبقاء ، وشهد الكل عينا والكل غيراً ، وهكذا حالة النظام الناشئة عن صفات متعددة فى التجليات ، متحدة فى المبدأ ، فإذا نظر إلى الدنيا المرتبطة بالأسباب المباشرة تخيل الغير ، وإذا بحث عن بدء البداية وحّد ونفى الغير وشهد العين فالصفات مختلفة فى المتعلقات ، متحدة فى التأثير ، وكل صفة لا تتفاوت عن غيرها من الصفات من كونها قائمة بالذات المقدسة ، فالمتحققون يرون الكل عين الكمال ، ويشهدون الجمع . اللهم إلاَّ أن التفاوت ليس إلاَّ فى نفس النسبة المضافة إلى كل صفة من حيث مصدرها ، ولذلك كان جمال الكون وحسن نظامه (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) (٢) هذا نظر أصحاب مقام الشهود ، وأهل رتبة التلوين . وأما أهل الفرق الأول فيشهدون النقص والجمال والكمال ؛ بحسب ما يظهر لحسهم من اللذة والألم . والحقيقة عند أصحاب مقام التمكين هى : شهود الفرق بين الإرادة والأمر ، فيشهدون الكمال فى كل شىء بالنسبة لإرادته ، والقبح والحسن بالنسبة لمخالفته الأمر وإطاعته (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (٣) ومن تأمل فى قوله تعالى :(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن

---

(١) سورة فصلت آية ٣٠ .
(٢) سورة هود آية ١١٨ - ١١٩ .
(٣) سورة الصافات آية ٩٦ .

فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ)(١) تحقق بصافى الشراب ، وتتوج بتاج الفوز والوصول .

التجلى الرابع :

الواصلون إلى الله لا يتقيدون لسرعة تنقل التجليات الإلهية ، وانفعالهم بخواص الأسماء ومظاهر الصفات ، فقد يكون الواصل فى مشهد جمال بظهور اسم من أسماء الجمال ، فيشتد الظهور ويقوى الشهود ، فينتقل من مشهد جمال صرف إلى مشهد جلالى جمالى فيندهش ، وينتقل بسرعة من حال إلى حال ، ولذلك فأهل الله يدعون بأصحاب الأحوال ، وليس فى طاقة المشاهد للجمال الصرف أن يتكلف حالا من الأحوال المغايرة للحال الذى به ، لأن الواصل فى كل طرفة عين يمد بفيض إلهى وفتح ربانى (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) (٢) وهذا سبب قولهم : الكامل لا يتقيد . ولذلك فالكامل لا تؤثر عليه مؤثرات الأغيار ، ومعارضات المحجوبين بوجه من الوجوه ، بل هو دائما فى بسط وانشراح صدر مع الله تعالى ، فانٍ عن شهود غيره وعن حواسه ، فهل مَن كان هذا شأنه يحجب عن الله تعالى ؟!! .

التجلى الخامس :

إذا عجز الناظر عن علم حقيقة مظاهر الصفات الظاهرة فى نسب المحسوسات ؛ ووقف عند عقله مدهوشاً عن أن يحيط بكشف تلك الحقائق معقولا بعقله ، محجوبا بحواسه ؛ كيف يدرك سر الأسرار؟! ويحيط بحقيقة الأنوار؟! حاشا أن يفوز من تعلق فكره بالسبب ، أو مال إلى كشف تلك الحقائق بغيرها ، أو شهد غيراً والغير حجاب لمن ركن إليه . فهذا السر إنما يظهر عند خفائه ، ويخفى عند ظهوره ، ولا يكون الوصول إليه إلا به . ومن ذاق طعم رحيقه نظره ببصره ، وسمعه بأذنه ، وحسه بحواسه ، بل وكان هو الحواس ، كما تحقق بنص الشريعة . ومادام الشراب فى الكأس فلا أثر له فى الرأس ، فإذا ذاقه الشارب تغيرت جميع حواسه ، وظهر بغير مظهره ، فتأمل .

(١) سورة الرعد آية ١٥ .

(٢) سورة إبراهم آية ٣٤ .

الجمال الحقيقى والقبح الصورى :

العيون الناظرة لا يخلو حالها ؛ إما أن تكون ناظرة به أو بها ، فإن نظرت به شهدته فيما نظرت ، فلا ترى إلاّ كمالا ولا تشهد إلاّ جمالا مهما كان شأن المرئى ، وعندها يكون التحقق بنفس المظاهر المضافة إلى الصفات والأسماء ، فإذا نظر صوراً جميلة شهد المنعم ، وإذا نظر كرما وعلما شهد المعطى الوهاب ، وإذا نظر عناء وشدة شهد المنتقم الجبار ، فهو لا ينظر إلاّ الأحدية المحيطة بكل العوالم ، وبهذا المعنى صار الناظر له به يشهده ، فإذا شهده وشهد عنه وشهد به وشهد منه وشهد فيه وشهد له ــ مع التنزيه ــ شهد الجمال المطلق ، وعاين الحسن الصرف ، وصار حق اليقين سمعه و بصره ويده ، إلى آخره . والعين التى ينظر بها تشهد تلك المظاهر والصور هى الفعالة ، فتنسب ما للرب إلى العبد ، وما للعين للغير ، فتحكم من حيث مظهرها ، لأنها هى القادرة المريدة المدبرة على تلك المظاهر والصور المختلفة ، بحسب ما تقتضيه خواصها ، وتميل إليه ميولها ، فتقبح عندئذ وتحسن ، وكأنها هى الفياض الحقيقى للعالم الحسن والقبح ــ والحقيقة أن تلك المظاهر كلها عند المحققين جمال صرف وكمال ، وعند الواقفين لدى عقولهم نقص وكمال وقبح وجمال ، ولا يعارض مذهب مذهباً (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ) (١) .

التجلى السادس :

سوابق العزائم بالنسبة للواردات الإلهية لا تؤثر على الخواطر ، لأن الواردات الإلهية لا تتعلل بعلل ، وكيف ؟ والفتوحات الإلهية وهبية بالنسبة لمصدرها **الفياض** ، ومن تأمل بعين الحقيقة ، أو ذاق سلسبيل هذا الشراب جعل مطمح أنظاره ومركز دائرته قطب الأقطاب ، وغفل عن شهود الغير والأثر لنفسه ، وفنى فيه بشهوده له ، بغير ميل طبيعى إلى ما تميل إليه الأنفس وتلذ به الأعين . وهكذا أهل النظر الحقيقى يفنون به فيه عن سواه ، فيشهدونه بهم فيهم عنه له هو من حيث تنزيهه ، ولا يشغلهم شأن فى مظهر الصور عن شأن ظهور الحق فى أسمائه وصفاته ، هذه حالة من وحّد ، فهو لا يرى لنفسه همة لشهود معبوده الحق فعالا حقيقيًّا فى كل المظاهر المجلوة على الأعيان البصرية والبصيرية ، ولا بعد ولا كسل ولا تأخير ، لتعلق كل ذلك بالإرادة الإلهية والقدرة الواحدية .

---

(١) سورة يوسف اية ١٠٦ .

التجلي السابع :

الآيات البرهانية بحسب النظر والاستدلال ، حجب لك أيها المستدل بالقيود الظاهرة على الحقائق الكائنة فى مظهرها ، الباطنة بها فيها ، الظاهرة لذوى الشهود ، فهم يشهدونها بها صرفاً عند المزج والخلط ، مجردة عن كونها غيراً وسوى ، فهى عين معانى الذات ، التى تجلى عن مجلاها الجمالات والمظاهر فى كل شهود وظهور .

تجلى السجود الأول :

العيون الناظرة لأصلها ؛ هى فى كل أحوالها مشاهدة للحقائق بحسب المظاهر المختلفة الناشئة عن مجالى آثار الأسماء والصفات ، وعند التحقق بهذا النظرينمحى الأين عن العين ، وتظهر شمس الحقيقة مضيئة بما فى الشريعة . وبهذا تنعكس الأنوار البصرية ، فيشهد العوالم العلوية ، وتنفذ أشعة الإنسان العينى الكامل فى جميع أنظار دائرة الحيطة الإلهية ، فيكون داخلا فى ميدان التحقق بقوله تعالى : (وَٱللهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ) (١) فإذا أبصر تلك العوالم ؛ ونظر تلك الآيات ؛ وقف مندهشا فيما عاين من خفىِّ تلك الآيات . قائلا بعد أن تعلم الأسماء وشهد المسميات (سُبْحَانَك لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ الحَكِيمُ) (٢) وعندها يسجد للمظهر الإلهى ؛ الذى ظهر فى مظهر الجمال والكمال فى الناسوت الآدمى ، فإذا سجد وحَّد ، فخلص وتطهر من درن الكبر وحجب البعد والكفر (وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئكَةِ ٱسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجدُوا) (٣) فهذه مرتبة الناظرين العارفين .

التجلى الثامن :

معانى المبْدأ محاطة بلمعات أنوار شموس الزينات الظاهرة ، ومحجبة للمحجوبات النفسانية والميول الناسوتية فمن انفعل بتلك الجمالات واشتغل بتقلباتها ؛ حجب بها عن إدراك حقائق مبدئها الفعال ، الذى أفاض عليها بهجة الوجود ونور الحياة ، ولولاه لم يثبت لها كون ولا زمن ، ولذلك فالجميل الأول أفاض الجمال بتجليات الألوان الناشئة عن مجلى ذات الحسن ، ليعرف من لم يذق فى مقام(أَلَسْتُ)شراب (بَلَى) (٤) وليطلعه بما أنعم به

---

(١) سورة البروج آية ٢٠ . (٢) سورة البقرة آية ٣٢ .

(٣) سورة البقرة آية ٣٤ .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : (ألست بربكم قالوا بلى) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

عليه على أسرارها (وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصارَ وَٱلأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (١) .

فعرفوه به (ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَالذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا ...) الآية (٢). وأما من ذاق هذا الرحيق فى المقام المتقدم ؛ فهو فى فناء عن شهوده نفسه وحواسه بل وعن الكون جميعاً . وأما من استعملوا تلك النعم فى غير ما خلقت له ؛ و برقعوها برداء الصور الوهمية ؛ و باعوها بأبخس ثمن (إِنْ هُمْ إِلاَّ كَٱلأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) (٣) .

التجلى التاسع :

مطالع أقمار الشريعةمن مشارق شموس الحقائق ، فلا يهل هلال إلاَّ بعد شروق شمس حقيقته . وليس هناك مطالع للبدور إلاَّ من هذا الأفق المبين ، أفق التجليات الإلهية والمظاهر الربانية . فلا تجد منسكا من المناسك ، ولا فريضة من الفرائض ، ولا سنة من السنن قد انبعثت لها الأعضاء عن نور القلب وشدة الفكر وطول الوجد والشوق ؛ إلا وقد طلعت شمس حقيقتها ، فأنارت بدر شريعتها ، فأهدت الأعضاء فى دجى ليل قد أضاء بدره ، فهذا هو الدستور الذى عليه مدار كل عوالم الثقلين ، فلا يتحرك متحرك ولا يهتدى حائر إلاَّ بأنوار شموس الحقائق الساطعةعلى أقمار الشريعة ، و بذلك يكون الإنسان قد نظر بعين الشريعة والحقيقة نظراً يجعله إنسان الكمال وكمال الإنسان ، فيشهد نور خالقه جل جلاله من مساطع أنوار كل شىء ، وتكون حركته كلية تتحرك بها العوالم كلها ، ويكون نظره حادا ، ينظر إلى العالم الذى ينسخ الأعمال ، ويسمع حتى صريف الأقلام ، وتكون كل تلك الهيئات معارج يعرج بها إلى الروح الأعلى ، ومراقى ينتقل فى بساتين جناتها حتى يصل إلى سدرة المنتهى ، وعندها يشهد أرواح المؤمنين فى حواصل الطيور الخضر ، تغرد بألحان التسبيحات الملكوتية ، والتمجيدات والتهليلات السبحانية ، ويعاين بعين بصيرته وبصره أن سيدنا الهادى هو المحيط بالعوالم العلوية جميعها ، المفيض جميع الإفاضات الرحمانية ، والهدايات النورانية ، وعندها ينادى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ)(٤) وماعرفناه حق معرفته ، صلى الله عليه وسلم صلاة منه ربانية لنوره الأعظم ، تليق بمقامه كما هويعلم ، عدد ما كان وما يكون إلى يوم القيامة .

---

(١) سورة النحل آية ٧٨ .
(٢) سورة الشعراء آية ٧٨ ـ ٨٠ .
(٣) سورة الفرقان آية ٤٤ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

التجلى العاشر:

المراتب الأولية أربعة : شاهد ، وعارف ، ومتحقق ، ومطلع .

فالشاهد إن كان عن علم فشاهد حس وعقل ، وإن كان عن رؤية فشاهد يقين عن واحدية هوية المظاهر، وهو مقام نسب إلى أعلى مقام تصديق ما بلغه .

والعارف إما بالأثر أو بإلهام . فالأول : رتبة الباحثين فى مقام إحسان المريدين . والثانى : رتبة من صفت ضمائرهم ، بحسب الاستعداد الإلهى المنبلج عن سنا صبح الأحدية ، السالبة كل إيجاب بمظهرها ، الموجبة كل سلب ببطونها ، فلا ظهور لشىء إلاَّ عند بطونها ، ولا خفاء لشىء إلاَّ عند ظهورها ، وهذا ناشىء عن إحسان المرادين .

والمتحققون انكشفت لهم المشهودات عن غيبها ، فتحققوا بما سرى فى جواهرها من سطوع شمس مجلى الذات المهيمنة فى حضرة العلم والإرادة والقدرة فتحققوا بذلك ، ووقفوا عن إحاطة معرفة حقيقة سر ذلك المجلى ، لأن التحقيق عند العارفين هو عين الجهل المطلق فى هذه الدائرة المدهشة للعقول ، المحيرة للألباب (كُلكُمْ حَمْقَى فِى ذَاتِ ٱللهِ) .

والمطلعون شهدوا فناء وجودهم ، وإيجاب سلبهم ، مع الاطلاع على (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْن) (١) فسلموا وعجزوا وفنوا وجهلوا ، فأبقاهم وأعزهم وأطلعهم على مجلى وحدانيته من حيث اليقين وصفا واسماً ، ومن حيث الذات شهوداً علمياً صادراً عن حقيقة جهل محض ، حاصلة من روض (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) (٢) وسلام على عباده الذين اصطفى .

التجلى الحادى عشر:

روح الأعمال وحياتها شهود الفناء عنها ، ونظرها للموفق بلا تعليل ولا نسبة شىء منها لنفسه . بل يجعل العشق الإلهى باعثاً ، والجمال الحقيقى معشوقاً ، والجميل الفياض للجمال على تلك الصور مشهوداً ومقصوداً ، هذه هى روح الأعمال . وهناك مقام به تكون

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٩١ .

الأعمال أرواحاً بلا أشباح ، وهو مقام الفناء حتى عن شهود حواسه وعن شهود نفسه ، حتى يشهد أنه مظهر من المظاهر الربانية ، محرّك ببارئه فإذا تحقق الإنسان بهذا المشرب الصافى ، وتناول كأسه فى دير الشهود الإلهى ، والجمع الحقيقى ، تتحرك بحركة قلبه جميع العوالم العلوية والسفلية ، وتُؤوِّبُ معه الجبال ، وتتمايل لذكره جميع الكائنات .

هناك إخلاص أسمى وأعلى ؛ وهو إخلاص الفرق الأخير الذى يعرف به العبد حق عبوديته ويحفظ حقوق الرب ، وعندها يكون المتحقق بهذا النموذج إنسانا كاملا فى صورته ومعناه . ولولا الإخلاص ما حيت أجسام الأعمال ، ولا تنورت ظلمات الأفعال ، وهذا باب به وصل من تمسك بمبدئه ، وفَازَ مَن شرب منه رحيقه ، فأحيا بالإخلاص هياكل الأعمال ، فذقه شرابا صافيا ، وتمسك بعشاق ذات الحق تعشق .

التجلى الثانى عشر:

المظهر الإلهى يلوح على قلب أهل المراتب حسب منازلهم ، فتارة يتحققون عند تجلى لون اسم من أسماء الذات المقدسة ، و يتيقنون أنهم فى هذا التحقق وقفوا على عين اليقين ، فتبتهج نفوسهم ، وتنبسط أحوالهم ، و يتبخترون فى روض الفكر ومشهد الذكر، حتى تنكشف تلك السحابة بظهور شمس صفة من الصفات الإلهية ، التى تغيّبُ هذا المشاهد عما تحقق به ، وتفنيه فناء يندهش عنده ، حتى ينتقل عما كان فيه من تجلى هذا الاسم السابق ، وعند رسوخ قدمه على مظهر تلك الصفات ؛ وتحققه بمظاهره ؛ تكشف على الفور بمجلى ذات الموصوف ، فيدخل فى ميدان حيرة الحيرة ، فلا يعى ولا يبصر ولا يسمع لما توالى عليه من شدة هذا المجلى الذاتى ، و يقف مبهوتا صارخا متلهفا « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً » وكيف وقد شهدنا أسراره فتيقنا (سبحانك) عن أن يثبت العقل ، أو يدرك بوادر حقيقة مظاهر الأسماء والصفات إلاَّ بك (فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) التى تطلع على أفئدتنا ، وتغلى فى بطوننا كغلى الحميم ، نار العشق الإلهى والغرام الربانى ، وأطلعنا على سرك بسرك ، واهدنا لنورك بنورك ، ولقنا معرفتك عنك بك حتى نسمع منك بك ، ونشهدك بكل حس وكل معنى ، فنخرج من حجاب الحس وغرور النفس بالفناء فيك (إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ) (١) وأن تمطر غيث الصلوات الهاطلة من الحنانة الإلهية إلى النور الكنزى والسر اللاهوتى ، دليلك

(١) سورة آل عمران آية ١٩٤ .

عليك بك ، وواسطتك إليك عنك ، وعلى آله الأنجم الزهر ، وأصحابه سرج الدنيا ومصابيح الآخرة .

التجلى الثالث عشر:

الخواطر إنما وجب كتمها وإخفاؤها ، لأنها تتوارد بحسب مظاهر الأسماء والصفات المجردة عن المسميات والموصوف ، وهذا أمر يوجب الحيرة ، والغالب على أهل الواردات سرعة التنقل من شأن إلى شأن ، ومن دهشة إلى تثبيت ، ومنه إلى حيرة ، وهكذا . ولذلك فحالتهم بنفسها توجب عليهم التستر والكتم ، إلى أن تظهر لهم مبادئ معانى تلك الأسماء والصفات ، فتثبت الخواطر ، وتترقى إلى واردات حقية ، وعندها يأخذ صاحبها فى البسط مع شهوده ووجدانه ، ومنه ينقبض مما يتوالى عليه من تلك الأسماء والصفات المتحدة فى المعنى المختلفة فى التأثير ، فلا يثبت على وارد يرد ويمكث هكذا ، حتى يتقوى حاله ، وتتوالى عليه المشاهد ، فيدخل فى ميدان تجليات الأسماء المزينة بمعانيها ، والصفات المنطوية فى سر موصوفها ، فيحصل له جمال الشهود الذى يشرح الصدور ، ويحرك عرش القلب ، وينتقل إلى رهبوت « أنا الله لا إِلَٰهَ إِلَّا أنا فَاعْبُدْنِي »[1] فيندك كل غير بناسوته ، وتصعق روحانيته رهبة ورغبة ، وهذا يسمى حالا. ثم يتقوى حتى يفنى و يكون على قلب الناموس الأعظم حسب تأهله : فقد يكون كليميا ، أو خليليا ، أو عيسويا ، و يتقوى حتى يكون وارثا محمديا ، فيجمع بين مقامات الإحسان المطلق ، و ينظر بكل العيون « وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ » [2] فنسأله أن يسقينا من رحيق حوض نوره الأعظم ، وسره المطلسم ، شمس أحدية قيوميته المحيطة بكل واحدى ، إنه مجيب الدعاء .

مجلى الذات وتجلى الأسماء:

حقيقة المجلى الذاتى الأقدس بالنسبة للمباحث الحسية والبراهين العقلية عنقاء مغرب ، وعند الإضافة لنسب المفهومات الذوقية الصادرة عن شهود التجليات المنبئة بمظاهرها عن خفى حقائقها شمس ساطعة لا تحجب ، أشرقت بما تزينت به من ألوان محاسنها المخفية بها لذوى الحجاب ، الظاهرة بها لأهل الذوق والوجد ، فإن أثبت الفرع

---

(١) سورة طه اية ١٤ .

(٢) سورة فاطر آية ١٧ .

واضفته إليه جحدته ، وإن أضفته لأصله أعدمته وهو موجود . فعندها يزول العرض ويظهر الجوهر خافيا بما ظهر به ، ولولا الجوهر ماثبت العرض ، ولولا العرض ماعرف الجوهر . وعند التحقق هو عين وهو غير . فانظرإلى هذا التناقض وقف موقف المسلم تسلم . فإن ذقت حلاوة التحقيق بإضافة الفرع لأصله ؛ ورأيت سر فرعيته تتجلى لك فى نفائس انعدام أنيتك و بقاء محاسنه فيك ، أثبت المعدوم وأعدمت المثبوت ، وخوطبت منك على مشهد تجردك (أَلَسْتُ) فلا ترى عند هذا الموقف الذى أشرقت لعين عيان يقينك شمس حقيقة موصوف صفاتك إلاَّ الإجابة بـ (بَلى) ، ولديها يناولك من شراب مجلى ما خفى ببطون ظهورك ، وظهر بظهور بطونك وانعدام حسك ، صافى العلم الذى به تَصير جاهلا ، ورحيق الجهل الذى تصير به عالما ، عند ذلك تضع قدم الخوف مقدما ، وقدم الرجاء مؤخراً ، وتشهد روض التلوين عن جهل بما شهدت ، و بعدها تختفى عنك المشهودات ، وتغيب المبصرات ، وتنجذب بعوامل الغيبة ، وتحيط بكل شهادة العلويات والسفليات بعروجك من سجن النأى عن المصدر الأصلى ، وتصل على براق الإيقان الحقى إلى هوية الذات المجلوة ، وهو هو عينه وغيره ، ولا عينه ولا غيره . كل ذلك فى عالم المثال .

وتنتقل إلى اضمحلال هذا المجلى حتى يبتدرلقلبك مجلى مبدأ تمكين الخاصة فيثبت فى فؤادك نور أهل الحدّ ، و يزداد عليك الحال ، فتكون بين ذكر مراقيك وفكر مباديك ، إلى أن تحجب عن فكرك وذكرك وأينك وحسك ، وعندها تتجلى لك مجالي تمكين الأوابين ، بعد اندكاك طورك ، وصعق كليمك ، وتُنادَى فى حق اليقين ، ومقام التمكين ، و وقوع العين على العين ، وفناء الأين والبين : «إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ لاَ إِلَٰهَ إلاَّ أنا » (١) وتثبت فى كنز العماء والطلسمة ، حتى تفك القيود ، و يثبت الوجود ، و يظهر المفقود ، فيناديك أنت بلسان ضميرك ، ومقال تحققك منك لك خطاب تنزل « فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلاَةَ لِذِكْرِى » (٢) وهو تحقيق مقام صفوة من ورثوا هوية العبودية ، المضافة للهوية الحقيقية عن عين دائرة « سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ » (٣) من نهار شهود الأسماء والصفات بالحس والعيان ، ليشهد بالضمير والأركان ليل حقيقة الباطن ، فذاق ليلة الإسراء . فإن الليل عبارة عن عماء ظلمة الكنز ، والنهار رمز لظهور الأسماء والصفات بجميع آثارها ، هذا بعض ما يمكن التعبير به

(١) سورة طه آية ١٤ . (٢) سورة طه آية ١٤ .

(٣) سورة الإسراء آية ١ .

بالنسبة للمجالى الذاتية، والعبارة فيها عبارة، والكون عنها ستارة. أما تجليات الأسماء والصفات فهى على الإجمال شهود صدور ما يحسن بصفات الفياض الأكبر عنه، أوبه، أو له، أو منه، أو فيه، أو هو، على قدر رسوخ قدم شارب هذا الشراب، وعلى نسبة ما يتجلى له من معانى كل اسم على حدته، فإذا تحقق أنه الأول والآخر، وليس إلاَّ أول وآخر؛ نظرت أنك إما أول أو آخر، وتحققت أنه محيط بثبوت أوليته وآخريته بالأول والآخر، فأينما وجهت وجهك تراه بحسب تثبيتك فى أهل هذه الدائرة إما (عن) أو (من) إلى آخره.

وإذا شهد قيومية الحيطة المطلقة، ومثبوت عنده أنه بعض العالم؛ تيقنت انضمامه لحيز قيوميته. وإذا كان الموصوف لا يتجزأ فحكم الصفة حكم موصوفها، بذلك يحكم أنه من الحيطة أوبها، أوفيها، أولها، أومنها، أوعنها، وهكذا، كلما تجلى اسم أو صفة، شهد هذا المشهد حتى يترقى من حس وخيال ومثال إلى ذوق وعلم، ومنها إلى شهود ومعرفة، ويبتدىء بإحاطة هذا السر بقوة يقينه وسلامة ضميره، ولا يزال شاهداً مشهوداً، ومعدوماً موجوداً، أو واصلا مردوداً، حتى ينتقل من فرع إلى أصل، ومن جزء إلى كل، وفى هذا الموقف تعلوه دهشة الوجل، وصفرة الخجل، جاهلا بذاته، عالما باسمه ورسمه «وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ» (١) على العارفين به قيامة الفناء فيه والبقاء به (وَٱلسَّمَٰوَاتُ) (٢) العاليات هى التى مجلى لمظهر شموسه وبدوره من المطلوبين له «مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» (٣) يمين: (قَبَضْتُ قَبْضَةً بِيَمِينِى وَقُلْتُ هَذِهِ لِجَنَّتِى وَلاَ أُبَالِى) (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) تنزيهاً وتعظيماً ممن وصل إلى نظر أشعة تلك الشموس المتجلية من أفق مجلى ذات المحبوب فى أفئدة المطلوب، الذى غاب عن عين الحجاب إلى عين الصواب، ودخل فى دائرة مظاهر الجمالات المنبعثة عن ربوبية ذات القدس، فترجم ذاكراً بعد الهوية الناشئة عن إشراق الأنوار من دائرة «وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ» (٤) ولا سبيل لذوق هذا الشراب الصافى إلاَّ من طريق الكشف، أو من ترجمان فؤاد سكنت الوراثة النورانية فيه بلا كيف، وبها تمام السعادة «ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ» (٥) وصلى الله على سيدنا محمد بدر التمام، ومصباح الظلام، وعلى آله وأصحابه الكرام، والتابعين لهم على الدوام.

---

(١)، (٢)، (٣) سورة الزمر آية ٦٧.
(٤) سورة الكهف آية ٢٤.
(٥) سورة الحديد آية ١٢.

التجلى الرابع عشر:

اللهم تجلى علينا بما أنت أهله ، ولا تتجل علينا بما نحن أهله يا واسع الكرم .

الارتباطات بين المواليد والصور والتفاوت بين الحقائق والعنصر:

علو الهمة فى الإلهيات والذل فى العقليات رمز يشير إلى ارتباط تام بين المواليد المختلفة أجناسها ، المميزة أنواعها ، بحسب ما يظهر فى كل نوع من أنواعها من الخواص المميزة له ، والمنافع المحصورة فيه بالنسبة للزمان والمكان والحال والشأن ، حتى لو كشفت بعين الكشف على ذرة من ذرات الكون لرأينا بها كل عناصر الأجناس والأنواع العالية عنها فى الرتبة تنادى بلسان المقال : يا من أنت أنا ، أهلتنى للترقى ، فنجز ما خصصته حضرة الإرادة لأترقى سلم درج الكون حتى أصل إلى العوالم العلوية بالأدب والخشوع ، فإذا سئلت أجابت بمائة ألف لسان تنبئ أن بها كذا إنسانا وكذا حيوانا وكذا نباتا وكذا معدنا ، وكل مادة تطلب أن تصل إلى ماأهلت له ، ولا تكاد ترى فى عالم الكون والفساد ما يقال له شئ إلا وهو مرتبط بجميع العوالم ، ومتصل به اتصالاً حكمياً به تمام الكمال ، ولا يظهر جزء حتى من جزئيات الجمادات إلا وهو مع جماديته فى عظمة وكبرياء يزدرى بآدمى النوع كبرا وعظمة ، وفى الحقيقة هو كذلك « لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ » (1) وذلك لأن كل متأهل للكمال أكبر من كامل فى نوعه يظهر له الكمال ، لأن المتأهل للكمال أعلى فى الهمة من الكامل الواقف ، لشهود أنه سيترقى ولزعم الآخر بكماله « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلإِنسَانُ » (2) .

---

(1) سورة غافر آية ٥٧ .

(2) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

الفصل الثاني

حال التلوين ومقام التمكين

السالك عندما تنكشف له حقائق تجليات الأسماء والصفات فيما يشهد بحسه ؛ يثبت قدمه فى دائرة أصحاب الأحوال ، فيشهد فى بداية هذا المقام أسرار تلك المظاهر الظاهرة فى حال ، وتنكشف بشهود ما لها من الأسرار الخفية عن الحس ، فعندما تنكشف عنه تلك السحابة ، يعلوه نوع حجاب يجعله كأنه لم يذق شيئاً ، وعندها يدركه الساقى له بشرابه ، فيظهر خفى صدور تلك التجليات عن الأسماء والصفات ، فيعروه عند ذلك الفرح الشديد ، والهمة العالية ، حتى يذوق بعض أسرار هذا الحال ، فلا يكاد يمضى عليه زمن إلاّ وقد قوى حاله ، وتجدد بلباله (١) ، وخفى ظاهره وظهر خافيه ، فيضع قدم الجلال فوق هامة الرهبة ، وتفتح له أبواب الحيرة ، و يلتبس عليه المشرب لقرب عهده بحال شهود سر المظاهر ولديها تنفعل قواه الوهبية ، وتقوى بقدر روحانية شرابه حتى يثبت فى هذا الحال . ومن ذاق حلاوته وتيقنها ثبت فى نفسه التحقق بهذا الحال ، فترفع على الفور تلك الستارة ، وتلمع أضواء ظهرت عن لمعات وميض برق ، فتتغير لأجله أرجاء عوالمه ، وترتج قواه السمعية بطرب ظهور رعد الجواذب الأسمائية ، فيرجع إلى حاله ، و يقوى لهفه ، وتشتد حيرته ، و يتمنى عند ذلك ما تمنته مريم بنة عمران ، و يسأل ما سأله الفاروق ، وتقوى تلك العوامل حتى تقرب من سو يداء قلبه ، فينادى بلسان الكليم بعد صعقه ، فيدركه صاحب الشراب ، و يناوله راحا صادراً عن نسبة تعلق تلك المظاهر بالأسماء والصفات ، وسر التجلى المسمى والموصوف بهذه الأسماء ، فيتجمل فى هذه الفترة بالكمال ، لنزول ستارة النور المتقدم وابتدائه فى شهود ما فوقه ، ولا تمضى لحظة إلاّ وقد تجلت له الأسرار الباطنة فى أعيان الصور الظاهرة ، على أرائك استواء رحمانية الجميل ، بلا شهود إلا لما تحلت به تلك الحضرة من نسبة الارتباطات الحاصلة ، وفى هذا الحال لا يشهد إلاّ رفارف الجمال تنسحب عن لآلئ الزينات ، مجملة بالرموز ، محجبة بالطلاسم ، فيقف موقف المستأنس لأنه لم ينظر ولم يسمع ولم يذق بحواسه ، حتى يتمكن هذا المشهد فى سو يداء قلبه ، وعندها ينزج فى

(١) سروره وطربه .

محيط أحدية الأسماء والصفات، ويرى أن أدوار سيره قد انتهت، ومقام أوقات وصاله قد صفت، ولا يشعر إلا وقد سلب كل حاسة فيصير ميتا مع الأحياء، وحيا مع الأموات، و يتكيف له أن قواه قد وهنت، و يشهد بعد هذا الحال رؤ ية الجحيم، فيقهقر بأشد ما يكون من السرعة رهبة من هذا التجلى، و يتمنى ما تمناه زكريا عليه السلام، لأنه شهد هذا المشهد فى حال غابت عنه كل العوالم، و ينادى لعدم إدراكه سر السير، فى هذا المقام يترك الخليل خليله؟ فيدركه الساقى و يناوله راحا صافياً، فينزل عليه رفرف التكمل، فيثبت مسروراً برهبة حتى يرفع إلى حال الغيب، وفيها يزول عنه الروع يتجلى السلام فى صورة مثال التصديق، و يبتدئ فى هذا الحال أن يتحقق بحق اليقين، و يشهد منازل التمكين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من ذاق المعنى لحق المغنى:

الآثار الكونية من حيث المادة المجردة عن الصور الجمالية الإلّهية لا يجرى عليها أقل حكم عقلى، بل هى والعدم سيان، وإنما أضيف إليها وصف الوجود مع تحققها به من حيثيات تتعلق بما تزينت به من أنواع التجليات الأسمائية، التى عندما تتحقق بها ظهرت مزينة بصفات الكمال، دالة بها عليها، حتى يتحقق الواصل إليها بها فى الوصول إلى المفيض عليها هذا الجمال «وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمهاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَارَ وَٱلأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١)فكل ما ظهر من جميع العوالم العلوية والسفلية إنما هو دال بذاته المادية إلى كشف أسراره الروحية، حتى ينتقل من عرفها إلى معرفتها به «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى ٱلآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ» (٢) فتى دلته عليها بها؛ وذاق سمعه و بصره ماوراء مادتها؛ قوى الذوق حتى يصل إلى الفؤاد، وعند ذلك ينتقل من ظاهر إلى باطن، و يظهر له أن تلك المادة إنما هى ستارة أوجبها وهمه، وسحابة عظمها صغر حجم شمه، حتى اشتدت حرارة نار الشوق إلى الأصل فانجابت تلك السحابة، وذاق حقيقة سر المعنى، فوجد الكل هو مطلسم فى كنز الباطنية، مرموز بسر الظاهرية، ولدى فهمه للمعنى يدخل مغنى مجالى ذات الحيطة الكبرى، والإيقان القويم، ولديها لا يرى له شريكا ولا ولداً

(١) سورة النحل آية ٧٨.

(٢) سورة فصلت آية ٥٣.

ولا كفوًا ، من عرف نفسه فقد عرف ربه « وَفِى ٱلْأَرْضِ ءايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (١) فذوق المعنى كشف سر المادة ، والدخول إلى المغنى الانتقال إلى أحدية الوجود بعد الفناء عن النسبة الإضافية ، وماقبل ذلك فراق للمريد ،ومعارج للواصل ، والله أعلم .

ظهور المعنى وسر المجلى:

عند كشف نقاب الأحدية ؛ وسلب ظاهر الأنية ؛ تلوح نسمات روض اللون الأول عن مفصل إجمال الواحدية ، فينتشق صاحب المقام أريج التحقيق بالوحدانية و يتناول رحيق هو ية اليقيو ، بعد ظهور شمس التجليات عن بطون مجالى المتجلى ، بعد انمحاق هلال التكاليف ، وشروق بدر التعار يف فى أفق نسبة الظاهر إلى الباطن ، وإضافة الأول إلى الآخر ، حتى يغيب هذا البدر مع ظهوره لشدة تلألؤ شمس حقائق الأعيان ، التى اتحدت فى عينها لعينها بحسب ماتجلت به من أنواع الجمال ، وتحلت به من أصناف الكمال ، ولديها تبتدئ القوى تظهر مزينة بما انطوت عليه ، وما ظهر فيها ، وماخفى بها ، حتى يزول الظرف و يبقى المظروف ، و يفنى الظرف والمظروف فى وحدة الكلمة الفهو ية ، الناشئة عن الحقيقة الكنتية ، المرموزة بالألوان المعنو ية بالجمال ، ومتى فنى من عليها ففناؤها أولى و يبقى الوجه الملون بالجمال والجلال « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » (٢) كل ذلك مقام كشف المعنى .

ثم تشاب التجليات بجليل مظهر معانيها ، وتترادف التجليات المحلاة بعين مبادى الكمالات الصفاتية ، المجردة عن معانيها بعد الفناء عن الجمال والجلال حتى تتوراد مجردة ، فيدخل عندها فى دائرة « يُثَبِّتُ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمنوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ »(٣)فانظر إلى قوله تعالى لأصحاب المقام : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » بلفظ : رب ، وقوله : « يثبتُ الله » بلفظ الجلالة ، لأن هناك عند تجليات أسماء الجمال والجلال لا يكون إلّا هو فى كل منزلة ، ، وفى مقامات الإيقان يظهر كل بمظهره ، لأن المقامات ثلاثة : بيان ، وعيان ، وإيقان . هذا بعد الترقى عن الأحوال ، وفى مقام الإيقان تتوالى تجليات موصوف الصفات الكمالية ، حتى ينغمر فى سبحات الفرق المشوب بالجمع ، فيكون فى عين التحقق بالذات المحلاة بالأسماء والصفات فى

---

(١) سورة الذاريات آية ٢٠ - ٢١

(٢) سورة الرحمن آية ٢٧

(٣) سورة إبراهيم آية ٢٧ .

مقام إيقان « وَلِلهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللهِ »[1] بالاسم الشريف فيها ، وفي هذا المقام يرث مظاهر أسرار « قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ » [2] وبذلك يدخل ميدان تحقق الإنسان الكامل ، ويشرب من رحيق « ٱللهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاس » [3] .

النور الحَقِّى والظلمة الخَلْقِيَّة :

المراتب الظاهرة لأهل الشهود من وراء ستارة التحقق بعلم اليقين تفيض على صاحب هذا المقام اية الاستدلال والبرهان النوراني ، المشوب بهيمنة العقل الوهبى المزين بمبادى العلم الشرعى ، فتلوح لصاحب الاستحضار بوارق تقابل المعانى القائمة بتلك الصور الآثارية بمحو تمائهها ، وتتراكم بعد تلك البوارق سحب كثافتها على نورانيته ، فتحجب شهود أنوار شمس حقيقته ، ولديها ينزوى فى وادى التيه حائرا ، بين وهم يبعده ، وعلم يرفعه ، حتى يقوى علمه فتلوح حرارة شمس حقيقته ، فتذيب هذا السحاب المركوم ، وتتساقط أمطار العلم على أرض التسليم ، فتحيا وتتزين بنبات الشهود ، وتظهر الشمس بضوئها النافذ فتنور الأرض ، فيشهد من مقام عين اليقين خفيَّ ما فى تلك الصور من الأسرار الحقية ، ويثبت قدمه على عين اليقين مشاهداً للشمس ، وبها جميع ما حوله ، لأنه بغير الشمس لا يشهد حتى نفسه ، فيكون شهوده بالشمس وللشمس ، ولايزال يترقى بشهود أنوار وآيات تتوالى عليه كل طرفة عين ونفَسٍ ، حتى يتحقق بعلم المُلك علواً وسفلا ، ظاهراً وباطنا ، بالبصر والبصيرة .

ثم بعد أن تبدو له تلك الآيات المُلكية ؛ تعلوه حيرة منه له ، فيظهر له منه خفاء ما فيه ، فينغيب به عن شهود ما حوله وفوقه وتحته ، ويجول فى مدينة حسنه وجماله وكماله ، منزها لما يظهر له منه من غرائب مايراه فيه ، من الآيات التى هى عين ما شهد قبلُ فى غيره ، ومن الأنوار التى سمت وعلت ، ثم يشهدها فى جميع ما شهد ، حتى يغيب عنه شمس حقائق ما شهد من غيره ، ويعلوه من الدهشة ما يجعله فوق طور الطلب ، وتحت ناموس الشوق المقلق الموجب للهيام ، وعندها يغنى عن القيود الناسوتية ، التى بها توصل لكشف المُلك ، لظهور لمعات أنوار الملكوت بعين بصيرته عن مشكاة المثال الحقى ، فى كوكب التجلى الأسمائى

---

(١) سورة البقرة آية ١١٥ . (٢) سورة الأنعام آية ٩١ .

(٣) سورة الحج آية ٧٥.

فى صورة الزجاجة اللطيفة النورانية ، ويفنى بعد هذا الفناء فى رتبة خفاء المرتبة الإحسانية ، فتمتلئ بغير استحضار، بل بقوة ما يفاض عليه من لدى الأوصاف الحسنى من التنزيه الإثباتى والتشبيه السلبى .

ويبوح عند الهيام بلواعج الشوق حتى يكاد أن يترجم من غير إدراك عن الغيب المصون الظاهر له بالبصيرة ، ترجمة تنبىء ظهوره بالبصر لشدة ميله للتشبيه ، ولقوة الجاذب الحقى الذى جذبه بعد سكره من رحيق محو معالم المحسوسات بحان (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) (١) فلا يميل لحكم البصيرة عليه إلى ملاحظة ما شهده البصر و بقية الحواس ، لصفاء زجاجته واستضاءتها بنور زيت الزيتونة المنزهة الربانية ، وإذا أشرقت أنوار شمس الحق ؛ وانجاب سحاب الخلق ؛ دخل حظيرة القدس بيقين الحق وحق اليقين ، وانجلى له من وراء ستارة التنزيه الكامل ضياء شمس الذات الأقدس بجهل الكم والكيف والأين ، وعلم العظمة والكبرياء الذاتى ، ولديها تظهر له الآثار الكونية ، محلاة بالأنوار الحقية ، فيشهد بالبصر القيدى الكون العبدى ، و بعين البصيرة الحقيقة بذوقه حلاوة شهود آيات الربوبية ، مفاضة على كل تلك العوالم العلوية والسفلية ، فيكون ممن غيب عنه شهود الآثار ، لشدة تلألؤ نور شمس الحقيقة بباطنه،وشهوده للآثار،لما أفيض عليه من كمال مقام العبودية المطلقة ، التى يشهد بها الخلق مقهورين بجلال الربوبية ، ومتمتعين بإفاضة جمالاتها . وهذا هو النور الحقى ، و به يكون الوصول إلى حضرة الحق جلت قدرته . وأما من شهد الآثار وشهد ما فيها لها وبها ؛ فقد حرم عن شهود الأنوار، وحجب عن تلقى الأسرار، ووقف فى ظلمة الوهم والخيال ، واشتغل بأسفلية النأى عن شهود المعطى الوهاب ، قال الله تعالى:(ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إلى الظُّلماتِ) (٢) أى : يخرجهم من ظلمات شهود ما فيهم لهم وبهم ؛ إلى شهوده له و به ، فيتمتعون بتلقى الأسرار من حضرة أمينه الأكمل ، ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المقام الذى تسارع إليه أرواح الأولياء ، وتتشوق إليه همم العارفين بالله تعالى .

نسأله سبحانه وتعالى بجاه الشفيع الأعظم والوسيلة الكبرى سيدنا محمد صلى الله عليه

---

(١) سورة النور اية ٣٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

وسلم أن يمتعنا بشهود الأنوار والأسرار واللطائف اللّدُنّيّة ، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين آمين .

السر الخفى فى المبنى الجلى :

أيها السالك فى غياهب المحسوسات السائر بك ، من أين انتقالك ؟ إليك عنى ، فما هكذا السير ، ولا هكذا السلوك ، فأنت إنما انتقلت من كون إلى كون ، وخرجت من ظلمة الى سجن ، وما ذلك إلاَّ لاشتغالك بحسك ، واحتجابك عن استعمال نور سرك ، رو يدك أيدك الله وإياى بتأييده الروحانى ، وكشف عنى وعنك هذا الحجاب الحسى لِتشهد بعيون الضمير خفى أسرار القدير ، وتبصر بعيون التفكر فى هذا الرياض المنير ، فإنك أيها الأخ إذا لاحت لك أنوار سريرتك ؛ وأشرقت عليك شمس حقيقتك ؛ غاب عنك سجن نأيك ، وشهد لك سر غيبك ، فكنت مشاهداً لخفىِّ الأسرار ، متدبراً فى آيات ظهرت فيك وفى الآفاق ، عندها تتحلى بحلية أهل السلوك ، وتتوج بتيجان أهل القرب .

أخى ، هذه المبانى الظاهرة ؛ حجب أبعدت من طلب الدنيا والآخرة . وتلك الآثار المحسوسة ؛ حضيض به هوى فيه من رده الحق إلى أسفل السافلين . فتجرد أخى من الركون إلى تلك الظواهر التى تشتهيها القوى البهيمية ، وترفع بنفسك الملكية من أن تجعلها معقوله تحت سلطة الحيوانية ، وانظر بعين الفكر ما فى السموات والأرض من بديع جمال الواحد الفرد ، لا تشتغل بجمال السمٰوات والأرض ، فجمالهما حجاب ، وحسنهما جنة لمن طرد عن الباب ، وشاهِدْ ما فيهما من جمال مبدعهما ، ولتكون متنعما بشهود الملكوت ، وتشرق على ظلمة ناسوتك أنوار اللاهوت ، هذا كتاب الله سبحانه وكتاب رسوله صلى الله عليه وسلم أمرا بالفكر والتدبر ، وأنت أخذت بحظك ولذتك ، فاتبعت هواك وشهوتك .

أَفِقْ ، فليس الأمر كما حكمت ، وراء تلك الحظوظ الجسمانية ؛ والملاذ الناسوتية ؛ جمالات قدسية هى عين الحسن الدائم والنعيم المقيم ، بل هى اللذة الروحانية والكمالات الملكية ، فأين هذا الحظ الزائل واللذة المنقطعة من هذا النعيم الدائم والإحسان الباقى ؟ وليس بينهما فرق إلاَّ بالفكر والتدبر . فعليك أيها السالك بالتوجه القلبى ، والاستحضار فى سرك وعلنك ، والمراقبة فى خلوتك وجلوتك ، لتشهد من أسرار الغيوب آيات جمالات شمس الأنوار الحقية ، التى أفقُها منك القلب ، وبروجها سمعك وبصرك وذوقك ولمسك ولسانك وفرجك وبطنك وأعضاؤك ، فإذا أشرقت تلك الشموس فى أفقها ؛ وانتقلت فى أبراجها ؛

انكشفت لك حجب الآثار عن رفيع الأسرار، فشهدت من الكثرة الوحدة، ونظرت سر التجلى بتجلى الأسماء الربانية، فى تلك المظاهر الحسية، وتغيب عنك وعن تلك المظاهر بشهود من هو ظاهر وباطن، وبذلك أيها السالك تنتهى أسرارك إلى سدرة منتهى علوم الخلائق، فتعرف نفسك، وتذوق عندها غيبتك عنك، ووصلك به إليه، وتذوق مدامة الفناء عنك، من تحققك بلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ولديها يغشى سدرتك من غيب كمالاته وسر ربوبيته ما يغشاها، من التفضلات القدسية، والكمالات العلية ما تصير به نعم العبد، بعد أن تؤوب بك منك به إليه، فتبدل تلك الصفات الملكية والإنسانية، بتلك الهبات الإلهية، وتبرز للحضرة المنزهة الأحدية فى حلل الرهبة والرغبة، وبهذا تتحلى بنعم العبد، متعنى الله وإياك بسيد الرسل عليه الصلاة والسلام، وحفظنى وإياك بحفظه، ووفقنى وإياك لإحياء سنته صلى الله عليه وسلم.

الفناء بالجمالات:

الفناء بالجمالات بساط الأنس، ورياض الشهود، ومرابع التنزلات، والفانى بالجمال فى بسط التجلى، ومقامه حضرة الربوبية، بغيبه عن كونه القيدى ومظهره العبدى، وبهذا تلوح له من وراء روحه القدسية نور شمس الروح الكلية من (وَنَفَخْتُ) [1] فيشطح بلسان العبارة، فإن كان وجه الشهود سماويا ترجم عن حقائق الآيات ودقائق الحقائق، وكانت عبارته خمرة المقربين، ونفخة الروح الأمين، تفك بها قيود الناسوت، وتقوى بها أنوار اللاهوت، فتناول سامعها رحيق التحقيق، ويتحلى بحلل الإيمان الكامل، ويسبح فى بحار الإحسان، ويتخلى عن الحضيض، وهذا اللسان الصادق ترجمان الرحمن وبشير الرحيم، وآية الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، وقد يتولى على صاحب هذا اللسان حكم أدوار الناسوت فيحتجب عنه هذا الإلهام؛ حتى تشرق عليه أنوار حال صادر عن نغمات نفس رحمانى أو نفث روحى.

الفناء بالجلال:

الفناء بالجلال ميدان المدافعة، ومجال الممانعة، وطريق الرياضة، ووادى التيه، وسبيل الخوف، فتنقبض النفس الملكية لشهوده لحاله الكونى، ومظهره العبدى، ومقامه

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: « ونفختُ فيه من روحى » سورة الحجر آية ٢٩.

حضرة الهوية . فلا يقوى على الغيبة عن (ك) والتحلى بحلية (ى) ولا شهود سنا أنوار شمس (ع) بل الحيرة حاله ، والرهبة صفاته ، والخشية مقامه ، ليس له لسان فيترجم ، ولا شهود فيعبر ، وإن انسدلت عليه أفياء الهوية وظلال الألوهية ؛ أباح بلهب نار الهيبة ، فأبعد القريب وقطع البعيد .

الفناء بالجمال والجلال :

مقام العارف المتمكن والفارق الأمكن صاحب العينين المشرقتين بالشريعة والتحقيق ، والقلب المنير بحق اليقين ، واللسان المترجم عن أسرار التنزيل وحقائق التأويل ، لسانه يكشف ظلال الآثار ، ويظهر حقائق الأنوار ، فتارة يقربك بهمته ، ويرفعك بعزيمته ، وأخرى يمحقك بإشارته ، ويسقيك بعبارته . حاله القرآن ، ومشربه التحقيق ، وعمله فى نفسه عمل محمدى ، يقف موقف الأدب حالة الطلب ، ينظره الناظر إليه فى عمله أحقر من أن يذكر ، وفى حاله فوق أن يوصف ، جمع بين كمال رهبة العبودية وجمال الرغبة الودادية ، بنظرته تحيا القلوب ، وبعباراته تنكشف الغيوب ، وبإشارته تفرج الكروب ، وهو الفرد الكامل المنظور بالعين المحمدية من جميع الوجود .

الحمد لله على نعم لا يقوم بالثناء عليها لموليها سبحانه إلاَّ هو ، حمداً من ذاته لذاته لعجزنا عن القيام بحمده سبحانه وتعالى .

الصفاء القدسى :

إذا انجلت سحابة الغين عن الروح الملكية ؛ ظهرت آيات أنوار العين القدسية ، هنالك تبدو الأسرار من حضرة الواحدية ، وتلوح الأنوار مشرقة من غيب تجليات الأسماء العلية ، فيفنى ذلك الإنسان فناء يجعله حاضراً مع فنائه ، ذاكراً مع صمته ، فاكراً مع موته ، تنجلى له حقائق تلك المظاهر ، فيشهد بعين الغيب حقيقة الظهور ، وبغيب العين حقيقة البطون ، ولديها تهب نسمات الكنز المطلسم على روض التجليات فتهب أزهار الوحدة المتنوعة من حيث تعدد الأسماء نوعا ووحدتها ذاتاً ، وإذا أفيضت تلك الحلل الربانية على تلك الأعيان الخفية ، فتميل بجواذب تلك العوالم الذاتية إلى أن تتحلى بنسبها لها ، وتتملى بشهود أنوارها ، فتنفك طلاسم البينية ، وتزول نقطة الغين الحاجبة لتلك الحضرات الغيبية ، وتزول سحابة الرين لشدة حرارة الشمس الإلهية ، وترفع ستارة الكون عن وجه المكون ، فيشهد من

تحلى بحلل الرضوان هذا الوجه الجميل ظاهراً فى كل وجهة ، متلذذاً برشف رحيق (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ) (١) ومتنعما بشهود كمالات أوصافه الربانية فى روض نزاهة (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (٢) يافتاح ياعليم يامعطى ياوهاب .

الروح إن قادت عوالم الإنسان الكامل فى بدايته ؛ محقت فى عينه الأكوان بظهور سر المكوّن ، فيسبح فى حيطة الأنوار القدسية المحيطة بجميع العوالم ، فلا يشهد إلاَّ نور الله من رمز (وَٱللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) (٣) فيكون لا متحركا ولا ساكنا مع حركته وسكونه ، إذ شهد الحول فى الحركة ، والقوة فى السكون لله تعالى ، وهو الجامع المجذوب للحق بالحق ، فإن أمر بالعبارة كانت عبارته نوراً يقذف فى قلوب المؤمنين ، لا تشغلهم ظواهرها ، ولكن يحتاج المستمعون إليه إلى تسليم له لا تقليد ، فإن تقليده فى حاله مع حكم النفوس على عوالم الإنسان يمزج المشهد . ولذلك لزم للسالك التضلع من الضرورى من علوم السنة والكتاب ، ليستمد من نور معلوماته كشف عبارة هذا الواجد ، حتى لا يخطىء فى فهم ولا ذوق . وهذه العبارة تكون ظلمات على من لم يرد الله أن يهديه ، فيفهم ظاهرها المومى إلى ما يخالف عقله الحاكم على الشرع ، لأن الشرع عنده تابع لهواه ، لحكمه أن الله تعالى بقدر ما يخيله له خياله ، وحكم له به عقله ، وأنه سبحانه ليس له علوم اختُص بها المصطفون من عباده فى كل زمان ومكان ، وهذا الواجد لبدايته يقهره حاله ، فلا يمكنه أن يخفى وجده من شدة اصطلامه ، ولم يخل مثل هذا من معارضة أهل الأهواء ، وربما جر ذلك إلى القدح فى المرشد الكامل ، الذى أذاق هذا الصادق نور الحكمة ، وأشهده أسرار الكون ، وليس ذلك إلاَّ لأن الله سبحانه وتعالى حفظ أسراره عن أن ينالها أهل الغرة به سبحانه ، فجعلهم ــ فضلا عن قطيعتهم عنه سبحانه ، وبعدهم عن شهود أنواره ــ معارضين لأوليائه محاربين لهم ، حفظا لنواميسه أن يحملها إلاَّ أهلها ، فإذا أنعم نعم ، وإذا أبعد قطع ، لا يُسأل عما يفعل .

المرشد الذى تزكت نفسه وتطهرت عناصره

أما المرشد الذى تزكت نفسه ، وتطهرت من عوالم الحيوانات والنباتات عناصره ، حتى نهج بظاهره الإنسانى وباطنه الروحانى مناهج الهداية بنور الدلالة ، ولاحظته حضرات

(١) سورة البقرة آية ١١٥ . (٢) سورة القيامة آية ٢٢ ــ ٢٣ .
(٣) سورة البروج آية ٢٠ .

الموفّق الهادى النور الرشيد الفتاح العليم المنعم المتفضل الوهاب الودود بالعيون التى نظرت لصاحب الهداية منه له به ، نظر وراثة لحاله ومقاله وعمله ، فذاك الإنسان الوسط الذى لا تقهر روحُه جسدَه فتطمس عوالم التنزيه ، ولا جسدُه روحَه فتطفىء نور التشبيه ، فهو الناظر بالعينين للمشهدين : مشهد التقيد ومنزلة الإطلاق . لا يشغله تقيد ناسوته عن إطلاق لاهوته ، فهو ميزاب الحكمة ، يفيض ماء السماء على أهلها ، ويرفع ماء العيون لأهل الأرض ، النظر فى وجهه قربة ، وسماع عباراته من لسانه لكل فرد هداية ، لعلمه بمكانة كل من نظر إلى وجهه ، واطلاعه على أمراض القلوب ، فبينا تراه غارقا فى بحر الهوية ، يترجم عن أسرار الواحدية ، وإذا به كادح فى قيد القيود ، يشرح مبادىء الشريعة بحسب مرائى الجالسين معه ، حاله محكوم له لا حاكم عليه ، ولسانه محفوظ بعين الحق ، لا ينطق إلاَّ بما فيه شفاء القلوب ، وإحياء الأشباح ، وخلاص النفوس ، لا يسمع معترض من لسانه ما به الاعتراض عليه إلا كشف رمزه ، وبين حقيقته ، وحاله لا يتحمله إلاَّ أفراد اختارهم مولاهم ، ولهم فى صحبته آداب لابد منها .

من آداب أهل الخصوصية والعامة فى صحبة المرشد :

١ — آداب أهل الخصوصية :

يلزم أن يكونوا تطهرو ظاهراً وباطناً مما يخالف الشرع ، من كل الكبائر خلقاً أو عملاً ، مما هو معلوم أنه باتصافه به يشبه حيواناً أو شيطاناً ، فإن الحيوان — وإن دخل الجنة — لا يشهد نور الحق . والشيطان — وإن علم — لا ينال رضا الحق . وصحبة هذا الفرد شهود للحق ورضاء لله ، فإن لم يتطهر السالك حجب عن صحبته وإن كان خادماً له .

وأن يتخلق بأخلاق الرسالة من الصبر والرضا والتوكل .

وأن يجعل ذات الفرد هى المقصودة له ، لا لكرامة يبتغيها ، أو مكانة يرجوها ، أو دنيا يصيبها ، أو علم يناله ، أو فقه يفهمه ، لأن أهل خصوصيته هم خاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويلزمه أن يكتم أحوال الرجل التى أباحها له فى سر إلَهى أو دينى أو دنيوى أو أخروى

ـ مادام سمعه منه منفرداً ـ لئلا يقدح ذلك فى حفظه لأمانته . ولأن كل قول قاله لك منفرداً ـ وإن كان مزاحاً لك أيها الأخ ـ ففيه فك لرمز حقيقة خفيت عليك ، فإذا تهاونت واستصغرت شيئا من كلامه لك له وأبحته ؛ لم تكن أهلا لأسرار السماء .

ويلزمه أن يكون مألوفا لجميع المخلوقات من الحيوانات والناس ، بما يناسب كل طبقة ، تارة بالبذل ، وآونة بالتواضع ، وآنا بإظهار الجهل ، حتى يكون مألوفا للقلوب . فمن لم يمكنه أن يؤلف قلوب الخلق عليه كيف يؤلفهم على الحق ؟! .

ويلزمه أن يكون بعيداً عن الشبهات ظاهراً وباطنا ، ولا يعتمد على حفظه بحاله ، ولا يقلد الرجل فى أحواله عند مقتضيات الجمع ، فإنه فرد .

٢ - آداب أهل العامة :

المراد بالعامة كل من لم ينل الحظوة الخاصة بالرجل ، فمن يكتم الرجل عليه حاله ويخاطبهم بظاهر الأمر فى دين أو دنيا ـ وإن كانوا علماء ـ هؤلاء آدابهم منوطة بأهل الخصوصية ، فيهذبون أخلاقهم بالقول والعمل ، ويعلمونهم الخلق الجميل بالبشاشة وتحمل الأذى من الناس حتى يقلدوهم ، والكرم بالبذل ، والشجاعة بالعمل ، والإقبال على الله بالترغيب والترهيب ، وكشف مقامات الرجال ، والشوق إلى النبى صلى الله عليه وسلم باتباع أوامره ، وإحياء سنته ، والمحافظة على الوقت النفيس بصرفه فى طاعةٍ ، أو علم ، أو ذكر ، أوعمل نافع للأهل والإخوان ، والود والحب والمعاونة فى الله ولله سبحانه وتعالى ، حتى تزكو نفوسهم ، ويكونوا أهلا لأن يصحبوا الرجال صحبة تسليم وتفهيم ، مع إرشادهم لعلم الشرع الحافظ للأبدان والأرواح من الخلل والزلل ، والله سبحانه ولىُّ المؤمنين .

الصفاء الباطن :

هو إضاءة القلب بنور الشمس على باطن تلك الأكوان ، حتى أن صاحبه لا يشهد بعين رأسه كمالاتنا إلا بتلذذ باطنه بشهود ما فيه من أسرار الحكمة ، والآيات التى نطقت بلسان البيان ، مسبحة للذات الاحدية منزها لها ، وبذلك فصاحب الصفاء حاضر مع غيبه ، شاهد مع سجنه فى تلك المحسوسات ، حتى يترقى إلى مقام الاصطفاء .

البيان قبل العيان :

لما أن تلونت الذات المقدسة بزينة مجاليها الأسمائية ؛ وانبعثت أنوار تجليات معالمها لصفاتية فى حضرة الكلمة الكنتية ؛ عند كشف لثام النسبة الرحمانية ، لأعيان الروح الكلية ، فى حضرة تعيين مسميات الأسماء الجمالية على شريف الألحان القدسية بلفظ « أَلَسْتُ » ، انبعثت عندها الأسرار المخفية ، وثبتت المودة الإضافية ، ومالت بعد تحقق ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (١) تلك الأرواح الجزئية ؛ إلى ما شهدته فى هذا **المجلى الجمالى**، وقوى حنينها وزاد غرامها ، حتى انحبست فى مادة الحضيض ، وقيدت بتكاليف الجلال بعد الجمال ، وإيجاب الرهبوت بعد الرغبوت ، فاضمحلت قوى استمدادها ، وانحصرت فى هذا السجن الضيق أشعة شموسها ؛ عن أن تتصل بأفق أنسها ، وعند ذلك نأَتْ عن هذا المورد مع صفتها عليه ، واطمأنت بهذا السجن مع تناقضها له ، وشخصت بعينها إلى تنسم نسيم عنوان أسماء ما تجلى لها ، حتى طربت بالرسم بعد أن كانت تستوحش من الاسم ، وحنت للاسم بعد أن تمتعت بالشهود ، وصار حنينها بسماع الأخبار لا للرجوع إلى القرار ، وشهود الجار لا سكنى الدار ، وبقيت تألف أن ترى الأثر ، وتشم وتسمع الخبر ، حتى قوى هذا الباعث ، وانتقل من ظاهر إلى باطن ، حتى قوى هذا الباعث فامتزج ظاهره بباطنه ، وباطنه بظاهره ، وغلبت الروحانية على عوالم المادة فانهدمت أركانها ، واتصلت الأشعة النورانية الجزئية بالكلية ، والفرعية بالأصلية ، فانجاب سحاب النأى عن العين ، فلم تتمكن الروح من التستر ، فلبت الداعى عندما ناولها لذيذ شراب حقيقة العيان ، الذى ستره عنها حجاب المادة ، عند ذلك انتفى البين عن العين ، وزال الأثر عن اللون ، وثبت الاسم والوصف ، وزال ذكر الطلل والرسم ، وقنعت الروح بالاتصال بعد الوصال ، وبالعيان بعد البيان . وهكذا ، فالبيان قبل العيان . ولم تذق حلاوة البيان الموصل للعيان ، بعد التكبل بقيود الهبوط من أعلى عليين إلى السفل إلاَّ بعد العيان ، فى حضرة التجريد من مادة الكينونة ، **فهكذا** عيان قبل بيان ، وبيان قبل عيان ، فذُقْ هذا الرحيق من باب الإيقان بعد الإحسان والإيمان تكن من الذين أحسنوا ، وتفز بالحسنى وزيادة .

والصلاة والسلام على ناشر لواء الإسلام ، وباسط موائد الإيمان ، ومناول أقداح

(١) سورة الحجر آية ٢٩ .

الإحسان ، ومتوج أهل الإيقان بتاج (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَ بِّهاَ نَاظِرَةٌ) (١) وعلى خلفائه وأتباعه و ورثته ، وجميع أمته المحبين لدعوته آمين .

(١) سورة القيامة آية ٢٢ ــ ٢٣ .

الفصل الثالث

المواهب اللدنية

العلم بالله تعالى :

العلم بالله تعالى عن شهود ووجود ، لا عن فهم للعقول وعقل للمعانى . إذ الفهم لا يكون إلا للعلم بأوامر الله تعالى ، والعقل إنما يستعمل فى إدراك آياته سبحانه وتعالى ، وفهم أوامره وإدراك آياته : غيره جلت قدرته وتقدست أسماؤه ، فالهبات اللدنية مبدؤها يقين عن ذوق وتدبر ، وعلم بالأصول : أصول الكتاب العزيز والسنة المطهرة ـ يقوى حتى يساوى المشاهدة ، لتمكن الموقنين مما ذاقوه من فهم الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، تمكنا عن وجد وشوق وصدق وإخلاص ، ووسطه مراقبة استحضارية ، لمشاهدة ما تيقنه به من عوالم الملكوت الأعلى ، يزداد بها علما ، ويكمل يقينا ، وتقوى لطائف القلب الذى هو محل نظر الحق سبحانه ، قوة تقهر بها عوامل النفوس الحيوانية ، والقوى الإنسانية ، والصفات المجبول عليها الإنسان ، حتى تكون أنوار الملأ الأعلى تسطع على لطائف القلب بأنوار الأسرار ، وأسرار الغيوب الملكوتية ، وبهذه المراقبة يكون كأنه ملك مقرب ، لمشاهدة العوالم الملكية بنور البصيرة وعيون السريرة ، واشتغاله باصطياد الآيات العالية من حظيرة القدس الأعلى ، وفراغ قلبه مما سوى الحق وآياته ،وتدوم الأنوار وتتوالى عليه ، فترقق عوالم عناصره السفلية .

وتقوى عوالم ملكيته ، حتى تنفتق عين بصيرته ، وتقوى أنواره فتشرق على عوالمه المادية ، فيرى بعيون البصيرة أسرار الغيوب ، ويلوح من شدة الأنوار عليه ودوام التوجه منه ؛ أنه يرى بقواه الظاهرة محسوساً مشاهداً ، وهو الغريب فى عشيرته ــ وإن كانوا أهله وجيرانه ــ العدو فى قومه ــ وإن كانوا أرحامه ــ وطوبى للغرباء ،ونهاية الكشف والمشاهدة وهو مقام حق اليقين وعين اليقين ، ورتبة الصبغة الإلهية ، ومنزلة التدارك الربانى ، وحال العناية الصمدانية ، يرى والهاً ولا وله عنده ، مهيما ولا هيام به ، مجنونا ولا جنون يعتريه ، وإنما انكشفت له الآيات انكشافاً أشهده فى الآفاق وفى نفسه ما به قام كل شىء بقيومية الحى

القيوم ، وقدرة القادر الحكيم ، وتدبير المريد البديع ، فصار شاهداً مشهوداً ومقامه عند ربه أقسم به (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) (١) .

ولدى هذا الكشف تظهر له سيا العالم ، وتنعكس عليه ظلماتهم ، إن بإقبال عليه أو بإنكار فإن كان ممن اطمأنت قلوبهم بذكر شهد الحق ، وغاب عن سيا الخلق ، فاطمأن قلبه وأستأنس بالله تعالى فى الحالين ، ونطق بالحكمة ، لا يغيره إقبال ولا إدبار ،ولا يؤثر عليه تسليم ولا إنكار، وهو الرجل المؤهل للوراثة المحمدية ، الذى ينتقل لحق اليقين . واليقين الحق مقامه (لَوْ رُفِعَ ٱلحجابُ ما ازددتُ يقينا) وهذا المقام الإشارة فيه عبارة ، والعبارة فيه عماء وظلمة ، والمتمكن منه فرد الوجود فى عصره ، إليه الإشارة ، ومنه الاستمداد ، وبه الفيوضات والأسرار ، وهو قلب العالم الذى ينظر الله تعالى إلى العالم فيه .

الوجد والتواجد :

إن هذا الهيكل الآدمى اختلفت فيه مادة التركيب ، لأنه من مجموع أنواع معادن الأرض ، وكل فرد من أفراد الإنسان بحسب ما تركب منه هيكله يكون خلقه وسجيته ، ولذلك فأهل التربية الروحانية السماوية ؛ جعلوا الرياضة سلم ترقيه ، والمحبة باب وصوله ، والتخوشن معراج نعيمه ، حتى لا نكاد يسمع السامع حكمة أرضية أو سماوية إلاَّ وهى تنطق بقهر الهوى وقبح الشهوات تكلفا ، لان الهوى والشهوة فطرة حيوانية لا تفارق هيكلا حيا بوجه ؛ إلاَّ بقاهر انتقامى كالفقر والمرض والخوف ، أو واعظ من الضمير ينشأ عن إيمان وتصديق بالدار الآخرة ، ولا يمكن أن يخلو أحد من تلك الفطرة ـــ مادام عنصريا ـــ إلاَّ من اصطفاه الله وصفاه من كُمَّل الرسل ، والمقربين بعوامل التربية الربانية ، وأنوار الوحى الإلهى ، وكل إنسان بحسب نوع هيكله الناسوتى من مادة الأرض ، تكون نفوسه السماوية إما مطلقة تتصرف فى جميع هذا الجسد التصرف السماوى ، أو مقيدة بهذا الجسد السفلى ، مندمجة فى ظلماته ، لا تصرف لها والسلطة للنفس الحيوانية . فالأول التواجد يجعله يجد ، والثانى لا يجديه التواجد شيئاً ، وليس له إلاَّ الاحتراق بنار الرياضة القهرمانية ، ليذيب تلك المواد الغريبة من جسده ، أو النار الجهنمية يوم القيامة . والرجل المتمكن من طرق الرياضة والتهذيب والإرشاد هو العارف بمسالك القرب والوصول ، ومنازل التقرب ، وطهارة

(١) سورة البروج آية ٣ .

الأخلاق ، وخلاص العقيدة ، فيلزم للطالب السعى وراء العارف ليسعد بصحبته ، نسأله سبحانه وتعالى العلم الربانى ، والشهود الإحسانى ، والقرب الودادى إنه مجيب الدعاء ، والصلاة والسلام على شمس الهداية سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

العبد :

شجرة زيتونة مباركة ، أشرقت أنوار زيتها على آفاق أرجاء العوالم كلها ، فأضاءت بنور الإيجاد وسر الإمداد ، حتى خضعت العوالم التقييدية لنور العبودية المشرقة فى سماء الهيكل الإنسانى الكامل ، بسر ما أودع فيه بالاستعداد السابق من الحسنى من لدى « وَنَفَخْتُ فِيهِ » (١) فهو سر الغيب الذى تجملت الكائنات كلها بسر حضرته ، وأفيض عليها جمال الحضرات العليا ليسخرها له من حكم « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ » (٢) فهو هيكل الرب الذى أودع فيه بيته المعمور ، ليظهر فيه بأنوار مجلاه ، وأسرار علاه ، ويصرفه بحكم الخلافة فى أنواع العوالم ، فيكون مظهر رهبة ورغبة الربوبية فيما سواه من العوالم ، ومشهد رهبة ورغبة الذات الأحدية فى نفسه لنفسه ، فهو بعين العين والجميع بعينه .

العبد وما يدريك ما العبد ؟ حجب العظمة القائمة بين مقام التنزيه وتنزل التشبيه ، وغامض غيب الأين ، حتى لقد يتحلى العبد بحال تفنى فيه حقيقة التقيد بنور الإطلاق والتجريد ، ويستوى على أرائك المكانة ، والملائكة يدخلون عليه من كل باب ، وتزول ستارة الإطلاق وحجب التجريد عن عين الباء فتتلألأ أنوار هوية المقام ، ومقعد صدق عند مليك مقتدر. العبد غابت حقيقته ، وخفيت مكانته ، لو انكشفت ستارته ؛ لظهرت بالخفاء حقيقته ، ودلت على الظاهر إشارته .

العبد سدرة منتهى علوم الخلائق ، وغيب نهاية مشاهد الكروبيين ، فهو غيب الغيب على العيون والبصائر ، وحجاب العظمة للقلوب والسرائر .

سر انكشف من الرب للعبد حتى تحقق لمن هو عبد .

سر خَفِيٌّ عَنِ الأَبْصَارِ مَضْنُونُ ... غَيْبٌ جَلِيٌّ لأَهْلِ القُرْبِ مَضْمُونُ
مَكَانَةٌ سَجَدَتْ أَمْلاَكُ حَضْرَتِهِ ... لِمَظْهَرٍ فِيهِ نُورُ العَبْدِ مَكْنُونُ

---

(١) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٢) سورة الجاثية آية ١٣ .

مَـقَـامُ حَـقٍّ بَـدَا والغَيْبُ يَحْجُبُهُ فِـى هَيْكَلِ الْحُسْنِ إذ أخْفَاهُ تَكْوِينُ
فِـى صُـورَةٍ بِـجَـمَـالِ الـحَـقِّ ظَاهِرَةٍ وَرَمْـزُهَـا الـحُـسْنُ وَالتَّلْوِينُ تَلْوِينُ
تَـبْـدُو بأسْرَارِهَـا فِـى طَـوْرِ نِـسْـبَـتِهَا وَالْـكُـلُّ يَـبْـدُو لَـهَا وَالسِّرُّ مَضْنُونُ

المراقبة حصن العناية :

مراتب الوجود مع تباين نسبها ؛ وتفاوت خواصها ؛ حافظة لوسطها بحسب النسب بين الرتب الدنية والعلية ، بحيث أن الأحكام والخواص الفطرية والمزايا النوعية اللازمة لتركيب حقيقة الإنسان فهى بحسب ما جبل عليه من الفطر ،منقادا بعوامل فطرته إلى ما خلق ، مستعدا له من العمل مطلقا ، وإنما يوقف هذا الدافع إلى حد مخصوص ، فما أهل له بواعث موجبة ولوازم قاهرة من ضرور ياته لحفظ حياته ، ولزوميات لمسراته وعاداته ، فيكون عكوفه على عمل ما مسببا عن هذا الداعى القاصر على جلب لوازمه ودفع مضاره ، أو لتحصيل ملاذه وبعد آلامه ، ولا فرق بين الأنواع الحية جميعها فى هذا إلاَّ فى النوع الإنسانى — وإن يشترك معها فى أعم المقاصد — إلاَّ أنه بفطرته يشعر بقوة غيبية ،يلتجىء بها عن مصادمته بما لا يقوى عليه مطمئنا بها ، ولكنه فيما عدا ذلك لا يهتدى بحسب استقلاله العقلى إلى الطمأنينة بهذه القوة الغيبية عنه ، ما دام لا يضطره إليها موجب روحانى ، أو باعث ضرورة ، وليست كل النفوس — وإن استعدت بحسب المادة لأن تصفو — بمؤهلة للصفاء الذى به كمالها لأن كل نفس أخذت قسطها قبل وجودها الكونى فى حضرة العلم ، وسجل عليها ما هو لها أن تفعله وتناله لا محالة ، والأمر مخفى على النفوس بحسب المقتضيات المناسبة لهذا النظام البديع ، الذى ظهر بأكمل إبداع لا تفاوت فيه ، محكم بحكمة حكيم ، مدبر بتدبير مريد ، فالنفوس تصفو وتزكو بتذكيرها جلال مبدعها ، وعظمة موجدها ، وقدرة خالقها ، وإحاطتها علما بحكمة وجودها ومثالها ، حتى إذا كانت قد سبقت لها الحسنى ذاقت من العلم حلاوة أسرار المعلوم فتمثل لها بما يمكنها أن تمثله له من معانى صفاته العلية المنزهة ، وأسرار كمالاته المقدسة ، فيكون هذا المثال ملحوظا للقلوب ، مشهوداً للبصائر ، وينتج من هذا الاستحضار حفظ النفس عن الهم بما يكون لذة عاجلة توجب مقتا من المنعم الوهاب ، بل تنزعج النفس عند ميلها — مجرد الميل — بالفكر دون العمل ، لما تستحضره من علم العليم ، واطلاعه على خفيات القلوب ، فتخافه أن تكون حيث لم يأمرها ، أو حيث يكره لها ، وبذلك يكون العبد فى مقام الإحسان مراقبا لمولاه مراقبة الموقنين ، كلما هَمَّ بأمر عرضه

على قلبه واستفتاه فيه ، ثم يعرضه على الشرع ، فإن رأى منه رضا الله وأمره استعان به سبحانه وفعل ، وَإلاَّ لاَ ، وهم أهل الخصوصية .

حقيقة الطاعة :

ليس لقوة فكرية — وإن صفت — ولا لنفس طيبة — وإن زكت — أن تهم بأمر أو عمل من الأعمال إلاَّ ولها فيه من الحظوظ الخفية ، والدسائس الباطنية ما يخفى عليها ، لتحسين هواها وحظها لبعض الأعمال دون بعض ، ولنشاطها للقيام بشئون دون أخرى ، ولذلك فكل فرد جنح إلى السلامة ؛ ورغب نوال السعادة ؛ وجب عليه أن يحتاط كل الاحتياط في أن يكون كل همه وعزمه وتوجهه وعمله وحاله وقاله موزونا بموازين السنة ، منطبقاً عليها ، مع الخط الوسط في كل وجهة ، بدون غلو ولا تفريط أو إفراط . وبعد هذا الوزن الدقيق يلزمه أن يحاسب سريرته عند الهَمِّ به ، محاسبة مراقب محتاج إلى أن يكون هذا العمل موجبا للرضا والقبول والثواب من الله تعالى ، حتى إذا صدر عنه هذا العمل بعد هذه الملاحظات والمحاسبات الدقيقة ؛ يعمله خائفا من الله تعالى ، خوف مَن ربما كان عمله عمل مردود ، أو حاله حال مستدرج ، ويتباعد عن كل صفة اتصف بها أهل النفوس الشريرة ، من الحسد والخداع وحب الشهرة والميل إلى السمعة والسعي وراء التفرقة ، بأن يرى نفسه دون كل عباد الله ، وفي حاجة إلى الإمداد منهم ، ويهتم في استجلاب رضاهم بما يمكنه من إطاعة أوامرهم التي لا تؤدي إلى مخالفة أو معصية ، خشية من تنفير القلوب ، وتفرقة الجماعة . ويجعل كل سعيه وراء نوال القرب من الولي الحميد ، والرضا منه سبحانه وتعالى ، بدون نظر إلى الخلق ، أو التفات إلى زهرة الدنيا وزينتها ، والعلو فيها ، فإن من اشتغل بهذه الأشياء ربما أبعده شغله عن نوال القرب ، أو حرم الرضا ، أو نال السخط والمقت . وطالِبُ الحق مهتم كل الاهتمام بنوال لحظة مودة من جنابه العليّ ، والخلق بأجمعهم مفقودون من قلبه وعينه . فعلى من أحب أن يكون من عمال الله تعالى ؛ وأنصار سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أن يجعل نفسه عاكفا على مايقرب ويؤلف الخلق ، ويودد البعيد ، ويحبب البغيض ، حتى يعد من أهل الخصوصية ، فإنه إذا تخلق بغير ذلك عد من أهل البعد ، والله سبحانه وتعالى يتفضل على أحبابه بجمال أنبيائه ، حتى لا يخالفوا ما كانوا عليه في لحظة أو طرفة ، وبذلك يكون من تجمل بهذا الجمال مع النبيين والصديقين

والشهداء والصالحين ، والله يجمعنا على الحق ، ويحفظنا من التفرقة آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بر النفس :

إذا علم الإنسان منزلته من العوالم التى حوله ؛ وتحقق أنه العالَم الوسط الذى تجمعت فيه كمالات الأنواع بحسب فطرتها ، فما هو كمال لنوع ؛ نقص للأنواع الأُخر فوقه ، وقد يبلغ النوع كمالات ماهو فوقه من الأنواع كبعض الحيوانات التى تهذب وتستأنس وتألف وتنفع ، فتكون أعظم درجة من غيرها من نوعها وغيره ، وتعلو قيمتها حتى تكون مألوفة للإنسان ، يستأنس بها أكثر مما يستأنس ببعض أفراد الإنسان ؛ فإذا ذاق الإنسان لذة منزلته ؛ وعلم أنه نوع وسط فوقه أنواع ، وهو بكماله الإنسانى يحفظ رتبة الإنسان فقط ، يتمتع فى هذه الدار ويحرم لذة الدار الآخرة ، ومشاهداتها التى يذوقها أهل البر بأنفسهم فى تلك الدار الدنيا بحسب قوة اليقين وضعفه ، فى هذه الحالة يسعى بجد وهمة إلى أن يبر نفسه برًّا يجعلها تتحلى بكمالات النوع الذى هو أعلى من الإنسان ، فيؤلف له ويستأنس به ، وتعلو قيمته ، ويعظم فى بقية الأفراد ، وبذلك يشهد الملكوت فى كل شئ ، فيكون إنسانا بالشكل مَلَكاً بالمقام ، ولا وسيلة إلى ذلك إلا بالبر للنفس ، وهو أن ينكشف للإنسان حقيقة السعادة ، ويعلم طرقها وموجباتها ، وأنها بأخلاق شريفة لابد منها ، وعقيدة حقة كاملة اليقين ، ومعاملات حسنة تجعل كل مخلوق فى عينه كنفسه فى الحقوق له وعليه ، متساهلا فيما له بجهاد نفسه ، محافظاً على القيام بما عليه بما يراه من نفسه حينما يكون له على غيره حق ، حافظا منزلة كل فرد بحسبها — أحبت نفسه أو كرهت — حتى يذللها ويهذبها ، ويجعلها تألف الحسن من كل شئ من عمل وقول ، ولديها يكون قد أبر نفسه ، فإذا تعاصت عليه فى أمر نافع فيه خير للدين ؛ يتساهل معها فى مباح لئلا تنفر منه ، فيمتعها بما أباحه الشرع بوجه تتلذذ به ، ويحاربها فى غضون ذلك لتساعده على برها وتهذيبها ، وأن لا يكون عق نفسه . وللبر بالنفس أبواب وأنواع ظاهرة لمن تدبر فى هذه الحياة الدنيا .

ذكر الجلوة :

إن العبد المراد للحضرة الإلهية بالمحبة السابقية له ؛ يرزقه الله بصحبة الإنسان العارف الكامل بالوراثة المحمدية ، ويرزق العبد الفقير الطالب لله تعالى حب الإنسان العارف

الكامل ، حتى يتأدب به له ومعه منه أدب مَن قال : (أدّبَني ربِّى فأحسنَ تأديبى) صلى الله عليه وسلم ، وعند ذلك يظهر عليه الانقياد الظاهر والباطن ، حتى أنه لو عاين ما يخالف الشرع ــ الذى اطلع عليه هذا العبد ــ يؤول ما عاين من شيخه بتأويل حسن ، لأن الشيخ المرشد لم يكن إنسانا كاملا إلا بعد تحققه بالمتابعة المحمدية ظاهراً وباطنا ، غير أن القاصر أو المقصر من الخلق ــ لعدم اطلاعهما على رموز معانى الشرع الظاهر وفك طلاسم سر الشرع فى الباطن ــ يرونها مخالفة فى الظاهر ، فيقعون فى حق أهل الله بغير حق ، فإذا تحقق العبد الفقير الطالب لله تعالى بالمحبة الصديقية ؛ أمده الإنسان العارف الكامل بالوراثة المحمدية بمدد يفنيه عن نفسه وعقله ودنياه وآخرته وترسم صورة الشيخ فى صورته حسا ومعنى ، وحينئذ يرى الغائب ويغيب عنه الظاهر ، فلا يزال الشيخ المذكور يمده بمدده حتى يتحقق بمشرب شيخه العارف المذكور ، فيتحقق بما يتحقق به شيخه ، فيرى ذوقا بتزكية شيخه من المذكور حقا ، فيكون ذاكراً بجميع أجزاء جسمه بما يناسب كل عضو وكل جزء من الذكر الظاهر والباطن ، لا يفتر عن ذلك طرفة عين .

وفى هذا المقام يكون فى مقام خلقيته ، ولكن محبوب ومراد للإنسان الكامل المرشد له ، فيذوق العبد حلاوة التحقيق بمدد مرشده ، حتى يتحقق بمظاهر الأسماء والصفات ، فيترقى إلى ذوق معاينة تجليات الأسماء والصفات ، وحينئذ لا يرى ولا يسمع إلا أسماء وصفات ، فتكون الأسماء والصفات هى الذاكرة ، والعبد يرى نفسه عدما لا قدرة له على شىء ، فيكون فى مقام الإحسان ، فيترقى برضا شيخه وحبه وزيادة اليقين فى شيخه فى كل طرفة عين ، والتسليم الكلى من العبد المراد لشيخه العارف الكامل بالوراثة المحمدية ، حتى لا يكون غيره ، ويكون مراد الشيخ هو مراد العبد الطالب لله ، ولا مراد للعبد مع مراد المرشد له ، فيمده شيخه المحبوب له بمدد خاص روحانى حقى محمدى ، فيجعل هذا العبد الفقير المتأدب الأدب القلبى الفارق الفانى فى محبة معشوقه المتعزز بالعزة اللاهوتية ، كما قال تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (١) حقيا باطنا خلقيا ظاهرا ، فيكون بفضل شيخه عارفا بالذكر من جهة الحقيقة باطنا ، ومن جهة الخلقية ظاهراً ــ وذلك ذوقا ــ ، فعليك أيها المحب الطالب لله بمصاحبة أهل الله ، العارفين الكاملين بالوراثة المحمدية والعلوم اللدنية ، المتلقين العلوم بالإلهام من الحى القيوم الوهاب المعطى .

(١) سورة المنافقون آية ٨ .

الفصل الرابع

الخصـوصيـات

لما كان الطريق هو المحجة والشرعة التى يسيرعليها السالك إلى الله تعالى ، متمسكا بها بقدر استطاعته ، كان لها منار يستدل السالك به على أنه لم ينحرف عن المحجة ، والسالك يجهل مخاوفها ، ويجهل سبل الأمن منها ، فكان لابد من صحبة المرشد العالم بأقرب الطرق وأأمنها ، والمسافة الموصلة ، والزاد الكافى ، والراحلة ، والسلاح الواقى من شرور الأعداء فى الطريق ، فإذا سعد المريد بهذا المرشد ؛ وتمسك بهديه واقتفى أثره ؛ كوشف بأسرار كل منزلة وصل إليها ، وشاهد أنوار كل آية مَرَّ بها ، فيزداد علما على علمه لما شهده من الآيات والأسرار، ولم يكن هذا الشهود إلا بتجرده عن ما كان حاجبه من أخلاق دنيئة ، ومطامع فاسدة ، فيكون كلما انتقل من خلق ردىء إلى خلق حسن ، ومن أمل فاسد إلى ثقة بالله وتوكل ، كأنه انتقل من مدينة فاسقة إلى مدينة فاضلة ، ومن بين وحوش كاسرة إلى عوالم آنسين آمنين ، فتكون أول خصوصية له زهده فيمن هو بينهم ، وكراهته فى عوائده القديمة وأخلاقه ، ونفوره من مألوفاته ، وتباعده عن أقاربه وعشرائه الذين لم ينتقلوا معه إلى تلك المدينة التى وصل إليها ، فإن الانتقال المعنوى أقوى فى التأثيرمن الانتقال الحسى ، فينكر عليه العارفون به قبلاً ، ويرمونه تارة بالبلّه أو الجنون أو الحمق أو الجهل ، للمباينة التى حصلت بينه وبينهم ، وهذا الأمر أول عقبة من عقبات الطريق ، فإنه إذا تميزبالخصوصية وعارضه أهل عصره ربما التفت إليهم فوقع فى الجدل ، ورجع إلى ما كان عليه من سفاسف الأخلاق ، وسىء الأعمال ، وربما كان سيره على يد مرشد كامل يهذب أخلاقه ، فيتحمل لوم الخلق ، ومعارضة البعداء ، وإنكار الجهلاء غيرملتفت إليهم ، مقبلا على سيره وسلوكه مجدا فيحصل له المزيد ، لأنه كلما انتقل من عادة ذميمة إلى جميل العادات حصلت له مشابهة بالملكوت الأعلى ، وأشرقت عليه من سماء الفضل الإلهى شمس التخلق بأخلاقه سبحانه وتعالى ، وكوشف بأسرار ذلك ؛ فيشتد شوقه ، وتقوى رغبته ، وينقبض صدره عن كل الخلق الذين لم يتجملوا بما جمله الله به ، لبعد ما بينه وبينهم من المسافات الطويلة المعنوية ، ولِماَ ملأ الله قلبه من عشق الفضيلة ، والشوق إلى الحق ، والتجافى عن دار

الغرور، وما أبعد الله به غيره من التلذذ بالعاجل الفانى ، والمسرة بجميع ما يضر ولا ينفع ، ومنافسة كلاب الدنيا لجمعها ، والتملق لأغنيائها وحكامها ، من الأخلاق المنحطة ، والصفات السافلة التى تترفع عنها بعض الحيوانات البهيمية .

فتكون لهذا السالك خصوصية ثانية تكشف له سيما الخلق ، فيرى أشكال بنى آدم فى حلل القردة والخنازير والكلاب والوحوش والحمير، فيشتد نفوره ، ويقوى عاجل الوجد فى قلبه بالفرار منهم خوفاً على نفسه من العدوى بهذه الأمراض المهلكة ، فيرقيه المرشد بترقية قلبه إلى فسيح العاطفة على الخلق ، والرحمة بهم ، فيحصل له به الأنس مع كمال التباين ، كأنس الطبيب النافع بالمرضى ليخفف عنهم الآلام ، أويزيل عنهم المرض ، وبهذا يظهر للناس بحالة لا يألفونها و بعلوم لا يتعودون سماعها ، و بأحوال لم يكونوا أهلها ، فيشتد الإنكار عليه . وهذا بلاء من الله له ولأهل زمانه ، لأنه لم يكن مرشداً متمكنا فيريد الله تعالى بتسليط الخلق عليه قبل تسخيرهم له ، حتى يتمكن من مشاهدة التوحيد فى تسخيرهم له أن الفاعل هو الله ، و بلاء للخلق لأنهم لم يقبلوا النصح من نصوح مخلص .

وقد يكون السالك من أهل الخصوصيات العالية فتدوم وحشته من الخلق ، وللمرشد النظر فى أن يلقنه من أسرار الحكمة ، ويأمره بمعاملات خاصة ، ومشاهدات خاصة من أسرار التوحيد ، حتى يفنى عن نفسه ، ويطيب أنسه بالوحدة بعد النفور من الكثرة ، وهكذا ، حتى يترقى إلى حظائر القرب مقبلا بكليته على القدس ، مخلصا فى سريرته ، فإذا دام اصطلامه ؛ وقويت أحواله ؛ وأشرقت شموس معانيه فسلبت ظلال مبانيه ؛ ألبس حلل الأفراد وكان عند ذلك مراداً .

وخصوصية لا تكشف بالعبارة ، لأنها مشاهدات عن عين التوحيد ، ومكاشفات عن مقام التمكين ، وكم فى الطريق من خصوصية لو ظهرت لنوعت الأفكار ، ووافقتها الأقدار ، وقلبت الحقائق ، وأظهرت الدقائق ، وإنما يدرك الخصوصية أهلها ، ويسلمها ذووها ، ويعاديها من حُرموها ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

١ ــ التحلى بالتخلى :

التخلى خمسة : برزخ ، وقلب ، فرُوح ، فخفاء ، فأخفى .

والتحلى خمسة ــ يقابل كل خلعة خلعت بحلة توهب ــ: معية ، فعندية ، فهوية ، فواحدية ، فأحدية .

٢ ــ مشاهدة التوحيد بالتوحيد :

مشاهدة التوحيد بالتوحيد فناء عنك به ، فظهور معانى صفاته ، فظهورك هيكلاً نورانيا ، فتمكينك بعبد جامع للضدين ، متحقق بالنسبين .

خفيت معانى الصفات بظهور معانيك بعيون رأسك فكنت عبداً . وخفيت معانيك بانبلاج أنوار معانيه بعين روح القدس التى نفخت فيك فكنت عزيزاً ذليلاً ، غنياً فقيراً ، قادراً عاجزاً ، عالماً جاهلاً ، حيًّا ميتاً ، مضطراً منعماً فسبحان مَن « لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ » (١) .

٣ ــ النظرات النبوية :

أيها المشاهد لتلك المظاهر الكونية ، الغاض عين الفكر عن أسرارها الخفية ، المعرض بجانبك عن مكنون آياته ، النائى بك عن التحلى بجواهر زيناته ، المحبوس فى ظلمات سجن طبعك ، المكبل بقيود حسك وطمعك ، العابد لشهوتك ، المتنافس فى لذتك ، المتيقن السراب ماء طهوراً ، والدار الدنيا نزلا قريراً ، الفانى فيما لا بقاء له ، والعانى بما لا يحسن مآله ، رويدك ، فوراء ما وقفت عنده الحياة الأبدية ، وفوق ما غفلت به السعادة السرمدية . فتنبه ، وانظر بعين فكرتك فى حكم تشهدها ببصرك لا ببصيرتك ، وتأمل فيما أحاط بك وما فيك ، من محض إحسان مولاك ما به مُواليك ، فإذا تلذذ بالنظر بصرك ، وذاق الحلاوة فكرك ؛ وتلألأت لك أسرارتلك المظاهر ؛ وتمتعت بالنزاهة فى روضها الزاهر ؛ وزج بك فى محيط التدبر والإمعان ؛ فشم عنده عبيرطيب الإيمان ، ثم طهر أذنك من صممها الحسى ، ومن قيدها السفلى النفسى ، واصغ إلى نغمات تلك الآيات ؛ عندتسبيحها بأفصح العبارات ، واسمع منها ماترتله فى آيات الزينة ، وما تبيح به مما عن سواك تخفيه ، فإذا طاب سمعك بنغمات أوتارها الروحانية ؛ وقرت عينك بمرأى تلك الجمالات القدسية ؛ عندها تطرب الأفئدة القلبية ، وتفجر من أرض القلوب عيون البصيرة النورانية ، مشاهدةً لبديع محكم تلك الأسرار الكونية ، فتسبح فى بحر الإحسان ، بعد التمكن فى مقام الإيمان وتذوق حلاوة الحياة

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣

الباقية ، وتتوب من ظلمك لنفسك بوقفتك عند الحظوظ الفانية ، فيحليك ربك بحلل المتطهرين التائبين ، حللا طرزت بجمالات (طسٓ) (١) ومحبة رب العالمين ، وهدى سنة الأمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته وأزواجه والتابعين آمين .

٤ ــ النظرة القدسية :

هاء الهوية نور شمس عين المعية ، وصاد مشكاة المظاهر هى السين الحاجبة لقاف المعانى ، فإذا أشرقت شمس الأحدية بنورها الكمالى ؛ وأضاء بها زيت هذا المشكاة المثالى ، انمحقت نار المظاهر ، وانسلبت أفياء الناظر ، وانجلى بمجلى الذات حقيقة القرآن ثبتت الكمالات لأهل الآيات ، ولاح حق اليقين من مقام « ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ » (٢) وشهدت أنوار الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأفيضت الحلل العلية على أهل الحسنى الأولية « وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » (٣).

٥ ــ حسن المعاملة :

أحسِنْ أيها الإنسان فإنما أنت تعامل ربك فى أشخاص خلقه ، فكن قائما بالحق ، مشاهداً لربك فى كل عمل ، مؤديا لحقوقه التى أوجبها عليك لكل موجود . وَأَدِّ هذه الواجبات للحق غير ناظر إلى مَن قدمتها لهم من الخلق ولا تقف عند الواجب فقط ، بل تتقرب إليه سبحانه بالنوافل ، والنوافل فى المعاملة أن لا تنسى الفضل بينك وبين عباده ، ومن تمام الفضل عمل المعروف مشفوعاً بشفقة وحنان ورحمة ، وظهور أنك أنت الذى عُمل لك المعروف ، مشاهداً أنك متحقق به ، فإن الله سبحانه وتعالى ــ الذى عاملتَ عبادَه لأجله جلت قدرته ــ يحسن عطاءك بما لاقدرة لجميع الخلائق عليه من الهبات والإحسان والفضل ، ولم تنل ذلك منه سبحانه إلاَّ بمحض الفضل الذى أعانك عليه ، ووفقك له ، وكان حسن معاملتك لعباده فضلا منه سبحانه عليك ، ثم أجزل لك الجزاء ، ورفع شأنك بحسن الذكرى بين الخلق ورفع المقدار ، والمحبة منهم ، فانظر رحمك الله تعالى فضل حسن المعاملة ، وكن محافظا عليها مسروراً بها .

---

(١) إشارة إلى الآية الأولى من سورة النمل .
(٢) سورة الرحمن آية ١ ــ ٢ .
(٣) سورة الصافات آية ١٦٤ .

٦ ــ الزهد والفقر:

قال تعالى : «فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَم يُرِدْ إِلاَّ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا»(١) وقال تعالى : «وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» (٢) الفقر تحقق الاحتياج إلى الله تعالى فى كل نفس وطرفة وحركة وسكنة وأقل وأكثر، بحيث لا يغفل قلب العبد المتحقق بحق العبودية فى جميع آناته عن اليقين بكمال اضطراره إلى الواحد المنعم المتفضل الوهاب المعطى ، فيكون مقامه المتمكن فيه الفقر إلى الحق ، وحاله الشكر عند تمام النعم التى لا تنفد بقدر اللحظات والأنفاس ، وما يغذيه به من النعم المحيطة به . فالفقر حقيقة رتبة العبد شهوداً ووجداً ، ينظر به إلى مقام الحق نظر حفظ للمكانة والمقام ، والحق هو الغنى لذاته بذاته لا بأموال وأسباب . والعبد هو الفقير لذاته بذاته ولو كثرت الأموال والأسباب . لأنه سبحانه وتعالى هو الموجد لكل شىء ، الواهب لكل شىء : «وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» (٣).

فالفقر إذاً حلل أولى العزم من الرسل ، وجمالات أولى الهمم العلية من الصدِّيقين ، يسارع إلى التجمل به ــ ببذل الموجود وصرف المجموع ــ مَن ذاق حلاوة معناه ، وتحقق بمشاهدات أسراره ، ولذلك فالفقير فى الحقيقة هو الغنى الشاكر بهذا المعنى ، لأنه استبدل الدنىء بالعظيم ، واشترى حلة كمالاته وزينة حياته الباقية بما يفنى من العرض الدنيوى ، وحفظ رتبته عند ربه سبحانه وتعالى بإسقاط شهرته عند الخلق .

وكيف يذوق لذة الأنس بالله تعالى من لم يمض عليه نفَس ولا أقل ولا أكثر إلَّا وهو فى غاية الفقر إليه سبحانه أن يمده بنعمتى الإيجاد والإمداد ، ومع ذلك يغفل ويعد نفسه غنياً بأعراض نفنى ، وأموال تزول ، وأسباب تنتهى ، ويتلذذ بنسبته إلى الغنى من قبل الخلق وهو أفقرهم لكثرة احتياجه إلى الأعراض والأسباب ؟ لا شك أن مثل هذا لا يتلذذ بالأنس بالله تعالى ، إنما يتلذذ بالأنس به سبحانه من تَيقَّنَ حقيقة الافتقار إليه سبحانه ، ودوام الاضطرار إليه جلت صفاته ، فلازم العكوف على أبوابه ، وداوم اللزوم لأعتابه ، متيقنا بفاقته واحتياجه ، زاهدا فيما يفنى واثقا بالعوض من الله تعالى ،

---

(١) سورة النجم آية ٢٩ .
(٢) سورة يونس آية ٧ .
(٣) سورة الحجر آية ٢١ .

وهناك معنى يشهده أهل الجمع الأكبر فى مقام التجلى من المحبوب الأعظم عند التخلق بأخلاق الله تعالى ، وهى أن الفقير الزاهد بعد أن ملك الدنيا وزهد فيها صار غنياً عن الأعراض والأسباب ، فتخلق بالخلق العظيم ، وشهد الغنى المطلق ظاهراً ، وهو سر خفى يذوقه أهله من أهل الجمع الأكبر، ولذلك فالفقر والزهد كانا صفات الأنبياء والمرسلين ، والصديقين من المقربين . وجاهد المريدون أنفسهم بالبذل ، والتباعد عن مواطن الشهرة والسمعة ، والمزاحمة فى جِيَف الكلاب ، والتقرب إلى أهل الدنيا من الأمراء والأغنياء ، كل ذلك من الغفلة عن علم نفسه ومعرفة مكانته ، وجهله عن نسبة ربه تعالى . إذاً لا يحتقر الفقر والفقراء إلاَّ مبعود عن حلاوة الإيمان ، مقطوع عن منازل الأبرار، فعظِّم الفقراء واخضع لهم ، وازهد فى الدنيا ومافيها ثم قم فشاهد أنوار الغنيِّ المغنى بنور بصيرتك ، واقتطف من أزهار التحقق بأنك عبده الفقير المحتاج إليه - أزهاراً : « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (١) .

٧ ـ النظرات الملكوتيه :

القلب إذا جمل بالمعانى وحجب بالمبانى كان حجابه نورانياً ، وكان أميل إلى عالم الغيب عقيدة وتسليما ، لا كشفاً وتحقيقاً . مع انقياده للأهواء والحظوظ ، الباعث عليها مقتضى الآدمية وداعى البشرية ، ولكمون تلك الأسرار فى تجويف القلب . فإذا كان له سابقة حسنى بأن ينعم فى كون الدنيا بمشاهدة كون الأخرى ؛ أمده الله بعالِم به ، مذكر له بأسرار شهدتها لطائف قلبة ، وتجملت بها سريرته ، فاجتمع عليه قوتا السماع الظاهر المذكر للجمال الباطن ، والسر الكامن الذى هو حقيقة ماسمع ورفع هذا الحجاب ، لأن الحظوظ والأهواء الحاجبة إنما تكتسب من الحواس الظاهرة ، فإذا صغت الحواس إلى الذكرى ووافقت الحقيقة زال المانع وظهرت أنوار الملكوت ، فكان الملكوت كأنه عند الذكرى رؤ يا عينٍ ، لما ينبلج فى القلب من الأنوار الكاشفة لحجاب الحظوظ عن القلوب ، فيشرق عليه من تلك الذكرى أنوار تكشف له عوالم الملكوت ، فيشهدها بعيون قلبه وتلك الذكرى لا تؤثر هذا الأثر إلاَّ إذا أثرت على الجوارح تأثيراً ينسيها مقتضياتها ، ويفقدها لوازمها ، ولا تكون إلاَّ بمجاهدة لتلك القوى بإذن مرشد كامل عالم بأمراض النفوس ، ومكاشف بأدواء القلوب ، أو بحال سماوى تجمل به إنسان

---

(١) سورة طه آية ١٣١ .

واجـد، فى حالة علم، أو عمل بدنى، أو ذكر لسانى، والحال أقرب مسلك لهذا الشهود.

وإن كانت المجاهدة آمَنُ فى السلوك؛ ولكن لكل سبيل منها مزالق أقدام ومزالق قلوب؛ إذا لم تكن على يد المرشد وبإذنه وباستحضاره، فقد تنتج المجاهدة مشاهدة ـــ لا عن علوم اليقين والتوحيد، ولكن عن التصريف والتكوين ـــ فيخلد المجاهد إلى الأرض وكان يتوسل للعروج إلى السماء. وقد تنعكس فتجعل له علوا فى الأرض بغير الحق، وغروراً بنفسه، وازدراء للخلق، لما يتراءى له من حسن عمله وكثرته، ولما ينفثه عدوه فى قلبه ليرده عن سبل الوصول، ومناهج القبول. ولكنها آمَنُ لأن الزلل فيها مدرك تلافيه، والخطأ فيها ممكن تداركه، لأن المجاهد بمجرد تركه المجاهدة إذا حصل منه زلل؛ أو نفر الناس منه؛ أو واجه ذا حال؛ صغرت المجاهدة فى عينه واحتقر نفسه.

وللأحوال دخان قد يعشى البصر و يعكر البصيرة إذا لم يكن على يد المرشد، فإن الحال يشهد صاحبه من مشاهد الملكوت فى لحظاته ماربما تخيل أن هذا الجمال عين الجميل، وأن هذا الحسن عين المحسن، لعدم تلقيه الحكمة العالية من أفواه العلماء بالله تعالى، العالمين بمراتب الوجود. ومتى قوى شهوده فقد يمحو وجوده، فيختلف عليه الظهور بالظاهر، والبطون بالباطن، وهى الوقفة التى ربما لا ينتقل منها، لأن أنوار الشهود تجعله لا يسمع لقائل، ولا يأنس بواعظ.

وقد قلنا إنه أقرب مسلك، لأن الإيمان فيه أكمل، والوجد إلى الوصول أسرع، والمرشد أعلم بدواء تلك الأمراض، فعلى السالك المريد الفضل والرضا أن يرى أمره ـــ ولوفيما لم يستبن له وجهه أوفيما صعب عليه ـــ أنه دواء لمرض خفى أورعونات نفس، والنظرات الملكوتية قد تقوى فى أثناء لوازمها مع المرشد، حتى لا يحس الإنسان بما كان يحس به أولاً، ويكون ملكوتياً خالصاً فى أنفاس الحال، حتى إذا رجع إلى المُلْك مَيَّز بين الحضرتين، وأدرك الفرق بين المشهدين.

٨ ـــ الأمل والعمل:

العاقل بعد أن يعمل يأمل، لأنه خلق ليعمل لا ليأمل، ولان العمل نافع مطلقا للعامل ولغيره، ولأن لذة العمل تغنيه عن بطالة الأمل، والأعمال تتفاضل بحسب ماهياتها

وكيفياتها ونتائجها وَلِمَ هى أولمن ؟ وبحسب مقاصد العامل وعلمه بإتقانها وعملها على الوجه الأكمل ، وكل عامل يعمل لكفايته وسد حاجته فليس بعامل فى الحقيقة ، لأن بعض أنواع الحيوانات يعمل لنفع غيره : كالنحل والنمل وديك الدجاج وكلب الصيد ، وتتلذذ تلك الأنواع بنفع الغير أكثر من نفع نفسها ، وهذه النسبة محفوظة فى كل العمال ـــ سواء كانوا عمالا للدنيا أو الدين أو الآخرة ـــ قال صلى الله عليه وسلم : (خَيرُ الناسِ عندَ اللهِ أنفعُهُم لعبادِه)

فكثير الصلاة كثير الصيام كثير الفكر عامل لخير نفسه ، وخير منه من توسط ، وخالط الناس ونفعهم بعلمه وعمله وماله ، وخير العمال من كان عمله عن علم وإخلاص ، مريداً به التقرب من الله والرضا منه سبحانه وتعالى ، معلنا به : عند حسن النية ، وأمن الفتنة ، وتحققه أنه خير لا شك فيه ولا ريب . ومسراً به : عند خوف الفتنة ، أو تفرقة جماعة المسلمين ، أو دخول الآفة على قلبه من غرور أو كبر أو طمع ، أو علو فى الأرض بغير الحق .

فإذا جاهد العامل نفسه ؛ واطمأن قلبه بظهور الحق وانبلاج حججه ؛ قام عاملاً لله ، داعيا إليه سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة ، غير مبال بمعارضة الجهلاء ، واستهزاء المستهزئين ، موقنا أن ثوابه من أهل العناد أعظم من ثوابه من أهل التسليم ، لأنه إنما يعمل لله تعالى الذى لا يضيع عنده أجر العاملين ، وأن الدرجات العلا خاصة للمجاهدين الصابرين « وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (١) « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ » (٢) .

٩ ـــ نور اليقين وظلمة الوهم :

أ ـــ نور اليقين .

لليقين نور يشرق على القلب فتتقلص منه أفياء الشكوك وظلال الريب ، فإذا أشرق هذا النور على القلب قبل أن تلابسه أدران الحظوظ والأهواء ، وظلمات الأطماع والآمال بقرناء السوء ، والغفلة بأعمال الضلال ومصاحبة الضُّلَّال ، اتسع تجويف القلب وقبل النور ، فاستبان له معالم الحق وسبل الهدى والرشاد ، وتكشفت له الدنيا عن حقيقتها فعلم

(١) سورة العنكبوت اية ٦٩ .

(٢) سورة السجدة آية ٢٤ .

نفسه ودنياه ومآلها ، فأقبل بالجد لتزكية نفسه وخلاصها من شوائب الرذائل ، وطبائع السوء الحاجبة له عن كمالاته الإنسانية ، ومقاماته العلية ، مستسهلا كل جهاد فى نوال هذا الحظ ، معظما قدر أنفاسه التى ينفقها، متحققا أنها البراق الموصل ، أو هى المراحل التى يقطعها فى خير الأعمال ، لينال خير الجزاء ، أو هى السجل الذى يطوى بأعماله ثم ينشر ليجازى بما تضمنه من خير أو شر.

فيكدح بانشراح صدر فى نيل الفوز، موجها وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، لا يلتفت وراءه ولا يمنة ولا يسرة ، خوفاً من ضياع نفس وطرفة وحركة بغير ربح وقرب وتقرب وعمل صالح نافع للجميع ، فلا يلبث إلاّ وقد زكت نفسه واتصلت بعالم الغيب ، عالم الملكوت الأعلى ، وظهرت له الآيات فى الأرض وفى السموات ، ثم يشرق له نور بين يديه ويمينه ، فيرى أكمل الآيات وأجلى التجليات فى نفسه ، ويشهد أنه الآية الكبرى والمثل الأعلى ، ويقوى اليقين بالتمكين بعد التلوين ، فيحضر بعد الغيبة ، ويقرب بعد البعد ، ويسكن بعد الحركة « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ » (١) لديها فالدنيا آخرة ، لأنه ليس فى الدنيا ولا من أهلها وإن كان فيها بالجسم فقلبه معلق بالملأ الأعلى .

فإذا بلغ هذا المقام نال الفلاح ، وتوالت عليه البشرى من الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، وكان مع الله ، والله سبحانه معه وعنده ، إلاّ أنه بشر لا ينفك عن قيود البشرية ؛ من القبض والبسط والجمال والجلال ، إلاّ أن مشاهداته تتفاوت ، فقد يحزن لما لا يحزن الناس ، ويفرح بما لا يفرح به الناس ، لأن مشاهداته عن حقيقة التوحيد ، فيشهد أسرار التوحيد فى شئون التجديد بلا لبس فى حقيقة التوحيد ، بل لتحققه بالضعف والانكسار ، والفاقة والاضطرار ، فيخاف مما يشغله أو يلفت قلبه أو يمكن الشيطان منه عند تغير شأن ، أو إبطاء لازم له ، أو معارضة الجهلاء ، أو حلول مرض ، أو ظهور بدعة ، أو ظهور أهل الضلال . كل تلك الشئون تحزنه خوفا من تلك المعانى ، مع طمأنينة قلبه بنور التوحيد ، فيبتهل للولى القريب ، ويستغيث بالقادر المجيب ، وقد يفرح بصغير الأشياء لأنه شهد المعطى فيها فيفرح به سبحانه . وتلك المقامات بها تظهر العبودية بحقيقتها النسبية على قدر العبد لا على قدر سيده ، فإن العبد الأكمل والمراد الأعظم فرد الذات صلى الله عليه وسلم قال : « سُبْحَانَكَ لا نُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أنت كَمَا أثنيتَ على نفسِكَ »

---

(١) سورة الرعد آية ١٥ .

اللهم إنا نسألك حسن اتباعه ، والمحافظة على سنته صلى الله عليه وسلم ، ونوال شفاعته وجواره فى الدنيا والآخرة يارب العالمين آمين .

ب ــ ظلمة الوهم :

وللوهم ظلمات بها تقفل القلوب وتغلق ، وتكون فى أكنة عن الهدى والنور ، لا تقبل الحكمة ولا تصغى للذكر ، لأن الحظ الذى جمله الوهم لصق بالقلوب ، فتوجهت إلى نواله وسخرت من غيره من الحقائق . وقد تتكاثف ظلمات الأوهام بما تستمد به من المشاكلين والمجانسين فى المبادئ الفاسدة والأهواء المضلة ، حتى تنطمس البصائر ، وتدنس السرائر ، وتخفى معالم الهدى ، وتستبين سبل الغى ، وتمكن الشيطان من القلب فيلم به ، ويمده بالشكوك والضلالات « وَإِخْوَانُهُم يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ » [1] فتضعف أنوار الإيمان حتى تكاد تزول من القلوب ، ويكون الإنسان مسلما فى المولد والمنشأ وليس فى قلبه ذرة إيمان ولا استسلام ، لأن الإيمان نور يتضح به سبل الحق ، وتستبين به حججه وبياناته ، وتفهم كلماته ، وتشهد به آياته ، فإذا قوى الوهم أزال الفهم ، ولا سبيل إلى حفظ الإنسان من هذا المرض إلاّ بمعونة الله له بصحبة أهل اليقين ، وصحبة العلماء العاملين ، نسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه آمين .

١٠ ــ الدنيا والآخرة :

أ ــ الدنيا :

المؤمن إذا ذاق حلاوة الإيمان وعلم شُعبه ؛ وفهم أسرار الأوامر والنواهى ؛ ووفقه الله سبحانه وتعالى للتمسك بالعروة الوثقى ؛ وأعانه سبحانه على أن يسير على الصراط المستقيم بنشاط وسخاء وشجاعة وانشراح صدر ؛ وسكون نفس إلى جناب القدس الأعلى ؛ وطمأنينة قلب بالحق ؛ تنكشف له الدنيا عن حقيقتها وعن سر ما خلقت له ، فيعمل فيها عمل المتزود منها ، المدخر فيها لأجله ، الذى يكنز الكنز العظيم لينتفع بما فيه عند الضرورة والحاجة ، آخذاً منها لوقته ما لابد له منه لحفظ كيانه وآله ، بقدر الحاجه التى تلزم مثله من زاد لنفسه ولأهله وأولاده ، وبلغة تبلغه ما أوجبه عليه مولاه من إغاثة ملهوف ، وإجابة سائل ، ومعونه

(١) سورة الأعراف آية ٢٠٢ .

مضطر، وتأدية فريضة حج أوجهاد أونفقة على من تلزمه ، مراقبا فى ذلك الأوجه التى نهجها له الشرع ، ملاحظا أن ذلك عمل لمولاه سبحانه ، وتأديته واجب أوجبه الله عليه لنفسه ولغيره . فيكون فى عمله للدنيا عاملا من عمال الله تعالى ، حاضراً فى معية الحق مجملا برضاه سبحانه فى حصون الحفظ وولاية الولى ، وتكون الدنيا له ليست دنيا ولكنها سوق تجارة رابحة ، ويكون المؤمن العامل بهذا هو الياسر الفالح فيها ، ينتظر الفضل العظيم والفرج القريب (انتظارُ الفرج عبادة)وبذلك يدوم أنسه ، ويطيب وقته .

العمل فى الدنيا لابد منه:

والعمل فى الدنيا واجب لا بد منه وليس هو للدنيا ، وإنما يكون للآخرة أو لله سبحانه ، وأعمال الدنيا قد تقدم على غيرها من العبادات عند المقتضى ، كالسعى على المعاش لمن عنده عائلة وأهل ، فيكون له أجر أكثر من أجر العابد التارك للتكسب ، لأن مقام التوكل على الله سبحانه لا ينافيه العمل للكسب ، فرب عامل فى شئون الدنيا أقرب إلى الله سبحانه لحسن توكله عليه ، من عابد مشغول القلب بمعاشه ، لصفاء قلب الأول وطمأنينته بما يسره الله سبحانه له من الرزق ، وبسطه له من الخير، وقد يكون إصلاح شئون الدنيا بعمل المنافع العامة ، والتفات المسلمين إلى العناية بحفظ دنياهم ونفوسهم بالأموال والصنائع والزراعة والتجارة والعلوم الكونية التى يعدون بها العُدد والعَدد لتجديد السنة ، وإعلاء الكلمة ، وإذلال الكفر وأهله .

واعتزاز المسلمين وتمكينهم فى الأرض بالحق عند الله سبحانه من أفضل الأعمال المقربة لجنابه العلى ، مع النية الخالصة والرغبة فيما عنده سبحانه ، وكل زمان له مقتضيات بها تفضل بعض الأعمال على بعض ، هذا بالنسبة لغير الفرائض اليومية والواجبات المفروضة تعبداً لله سبحانه ، واستحضاراً لعظمته . فإن شعب الإيمان تتفاوت بحسب مقتضى الوقت ، وقد يعمل العامل عملا لا يقتضيه الوقت فيرد عليه وربما ضره ، كما يفعل الجاهل الذى يجمع الأموال ويتساهل بصحته ، مع أن المحافظة على الصحة أولى من جمع المال ، وإنما يجمع المال للمحافظة على الصحة . ونحن فى زمان الواجب فيه العمل لإصلاح حال المسلمين مقدم على كل عمل ، خشية من أن يتساهل كل فرد ويسعى فى صالحه فيضيع فضل الجماعة ، والله سبحانه وتعالى يوفق الجميع لما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ــ الآخرة :

المؤمن الذى أمدته العناية الإلهية فآمن بالغيب ، وانقاد بتوفيق الله لتأدية الأوامر واجتناب النواهى ، مجاهداً نفسه فى طاعة الله تعالى ، ناهجاً منهج العزائم فى جميع شئونه ، حتى ينطبع على الأكمل من كل شىء بانشراح ونشاط بعد المجاهدة والعناء ، إيمانا بالغيب وتسليما لله تعالى ، ورضاء بأحكامه سبحانه ، محافظا على حدوده ، قاهراً لحظه وهواه ، كابحاً جماح غيه وبغيه ، متجافياً بجانبه عما يلائمه مما حظر عليه الشرع ، متقللا من الدنيا بقدر الاستطاعة ، عاملا فيها بقدر الضرورة ، صارفا وجهه عن كل شاغل فيها مما يلذ الأنفس وتهواه الطباع ، هذا العامل يفوز بربح تلك التجارة ، ونعيم ذخائره ، وملاذ كنوزه التى سجلها له مولاه ، وتفضل عليه بها جزاء حسن معاملته لسيده ، وقيامه بحقوق الرعاية فيما استرعاه فى رياض دانية ، ونعيم لا يفنى ، وحلل من الجمال لا تبلى ، فى ظل ظليل ، وطهور وسلسبيل ، وحور وولدان ، لا يأسن ماؤها ، ولا يبلى جديدها ، ولا تغرب شموسها ، ولا تتغير أزهارها . والمؤمن فيها غض نضر ، يتجدد شبابه فى كل نفس ، ويزداد جماله فى كل لحظة ، تتجمل به الفردوس وتتولى أعماله الملائكه ، سرور دائم ، وبهجة لا تزول ، وفضل يزيد ، وإحسان جديد ، تحن لها الأرواح ، وتطيب بها الأشباح ، نَوَّرَها نُورُها ، وراحُها رُوحُها « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحاتِ كانت لَهُم جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالدينَ فِيها لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً »[1] .

هِىَ الدَّارُ فَضْلُ اللَّهِ يُعْطِيهِ مَن يَشَا ... نَعِيمٌ بِلاَ كَدَحٍ طَهُورٌ بِلاَ رَشَا
هِىَ الرَّاحُ وَالرَّيْحَانُ وَالصَّفْوُ وَالرِّضَا ... يَحِلُّ بِهَا مَنْ فِى العِبَادَةِ قَدْ نَشَا
جِوَار رَسُولِ اللَّهِ أَمْنٌ وَمِنَّةٌ ... لِذِى نِيَّةٍ فِى مَنْهَجِ الصِّدْقِ قَدْ مشى

١١ - الرضوان الأكبر :

المؤمن بعد تحققه بكمال التصديق بالغيب ؛ وتوفيقه للعمل على طِبق العلم ؛ وقيامه بما أمر الله سبحانه حق القيام ؛ محافظا على الفرائض كلها : عبادة ومعاملة وأخلاقا ، متجملا بالقربات النقلية من تلك الأعمال ، يكون على مزيد من الله تعالى ، فتكشف لنفسه التى تزكت بالرياضة والمجاهدة والجهاد أسرار الآيات من الكائنات ، فيشهد غيوبا عن الحس

(١) سورة الكهف آية ١٠٧ ــ ١٠٨ .

والعقل ، ساطعة أنوارها ، قاطعة حججها ، قائمة بالحق أدلتها ، فيزداد إيمانا حتى يبلغ اليقين ، ولديها تنجذب نفسه إلى الجانب القدسى ، معرضا عن جانبه الكونى ، فيجمل بشراب الإحسان ، و يعان على الإحسان فيكون محسناً .

ويدوم جذبه وأخذه من حِسّ العقل ، ومنه إلى النفس ، ومنها إلى الروح الملكية ، فيرى أنوار الملكوت فى السموات والأرض ، ثم تقوى أحواله بواردات الحق ، فيكشف الله سبحانه له أنوار الملكوت فى نفسه ، فيطيب وقته ويصح حاله ، وينتقل إلى مقامات الإحسان ، فيرى بعين اليقين أسرار علوم اليقين ، ويتحقق بمعرفة نفسه ، وحقيقة مبتداه ومنتهاه ، ويمنح المعونة على عمل القربات فى جميع الآنات ، ويكون عاملاً من عمال الله تعالى فى رياض المعية ، حتى يشهد التوحيد بعين اليقين ، فلا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يجد إلا بالله تعالى عين يقين بيقين ، ولديها يكون فى حصون «أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ» (١) ويحل عليه الرضوان الأكبر بمواجهة معانى الربوبية لمعانى العبودية مواجهة سالبة ، موجبة ماهية مثبتة الوجه العلى تجاهه ، والنور الجلى محيطاً به ، والولى القريب معه وفقه لأن يجاهد بمعونة الله تعالى فى محبته حق الجهاد ، فنحه الرضوان الأكبر، ووصفُه لا تفى به العبارة ولا تصوره العقول ، وهو من العلوم المضنون بها ، لا تُعلم إلاَّ بتعليم الله سبحانه، ولا تُنال إلا بفضل الله تعالى ، والله ذوالفضل العظيم .

قال رضى الله عنه :

١ ـــ آهِ يـا دَارَ الـفَـتَـا فِـيـكِ الـبَـقَا	وَرِضَـا اللَّـهِ وَفَـوْزٌ بِـاللِّـقَـا
٢ ـــ فِـيـكِ نُـورُ اللَّـهِ مُـحْـكَـمُ آيِـهِ	وَصِـرَاطٌ مُـسْـتَـقِـيـمٌ لِلـتُّـقَـى
٣ ـــ فِيكِ مِنْهَاجُ الحَبِيبِ المُصْطَفَى	سُـلَّـمٌ لِلْـوَصْـلِ سَـهْـلُ الـمُـرْتَـقَـى
٤ ـــ أَنْـتِ رَوْضٌ لِلشُّـهُـودِ مُجَمَّلٌ	قَـدْ يَـرَاهُ بِـالـصَّـفَـا مَـنْ يُـنْـتَـقَـى
٥ ـــ فِـيـكِ أَنْـوَارُ الـتَّـجَـلِّـى أَشْرَقَتْ	وَالـطَّـهُـورُ بِـحَـانِـهِ لِـمَـن اسْـتَـقَـى
٦ ـــ فِـيـكِ آيَـاتٌ وَأَسْـرَارٌ بِـهَـبَا	حُـظْـوَةُ الـزُّلْـفَـى نَـعِـيـمٌ لاَ شَـقَا

(تَمَّ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ)

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٢ .

شكـــــر وتقـديــــر

لا يفوتنى وأنا أذيل كتاب : « شراب الأرواح من فضل الفتاح » للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم رضى الله عنه أن أتقدم بالثناء العاطر لإخوانى آل العزائم فضيلة الشيخ محمد عامر وفضيلة الشيخ أحمد زهدى عمرو والسيد قنديل عبد الهادى على جهودهم المشكورة فى الإشراف على التصحيح والمراجعة والتدقيق والترتيب ليكون خلواً من أخطاء الطباعة .

والله أسأل أن ينفع به المسلمين وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

شيخ الطريقة العزمية
السيد عز الدين ماضى أبو العزائم
المحامى بالنقض

الفهـــــــــرس

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحه

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة

الموضــــــــــــــــوع	رقم الصفحة

رقم الإيداع
٨٧ / ١٦٣٦

طبع بدار المدينة المنورة
١١٤ ش مجلس الشعب ــ القاهرة

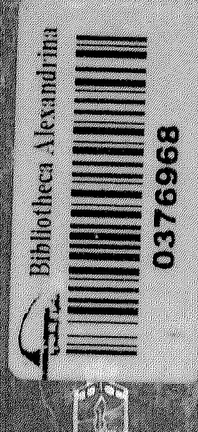


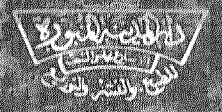


شراب الأرواح من فضل الفتاح

هو دراسة عليا فى علم التصوف الذى هو من أجل العلوم قدرا ، وأرفعها ذكرا ، وأعظمها أثرا ، وأروعها تأثيرا ، وأعمقها نفعا ، يهتدى به الكثير ممن يعيشون فى ظلال مملكة التصوف ، تتزكى نفوسهم بدروسه ، وتتطهر القلوب بإرشاده ووحى توجيهاته ، فيشفون من أمراض نفوسهم ، ويسقون شرابا طهورا يزكيهم ، وينير قلوبهم ، ويحيى أرواحهم ، فهو العلاج لأمراض النفوس ، والدواء الشافى لعلل القلوب .

وبذلك يخطط هذا الكتاب للسائرين أروع الطرق للسير عليها ، ويرسم لهم معارج الأنس لطلوعهم إلى سماء الهدى ، والتمتع بمناجاة الحضرة ، [illegible] التجلى الربانى ، وعظاته تهدى إلى مقامات العارفين ، وترشد إلى منازل المقربين ، وتدل على كعبة المحبين ، وتوجه إلى قبلة العاشقين ، وتوصل إلى الإلهامات الربانية [illegible] القدسية ، والعطايا العلوية .





الثمن

